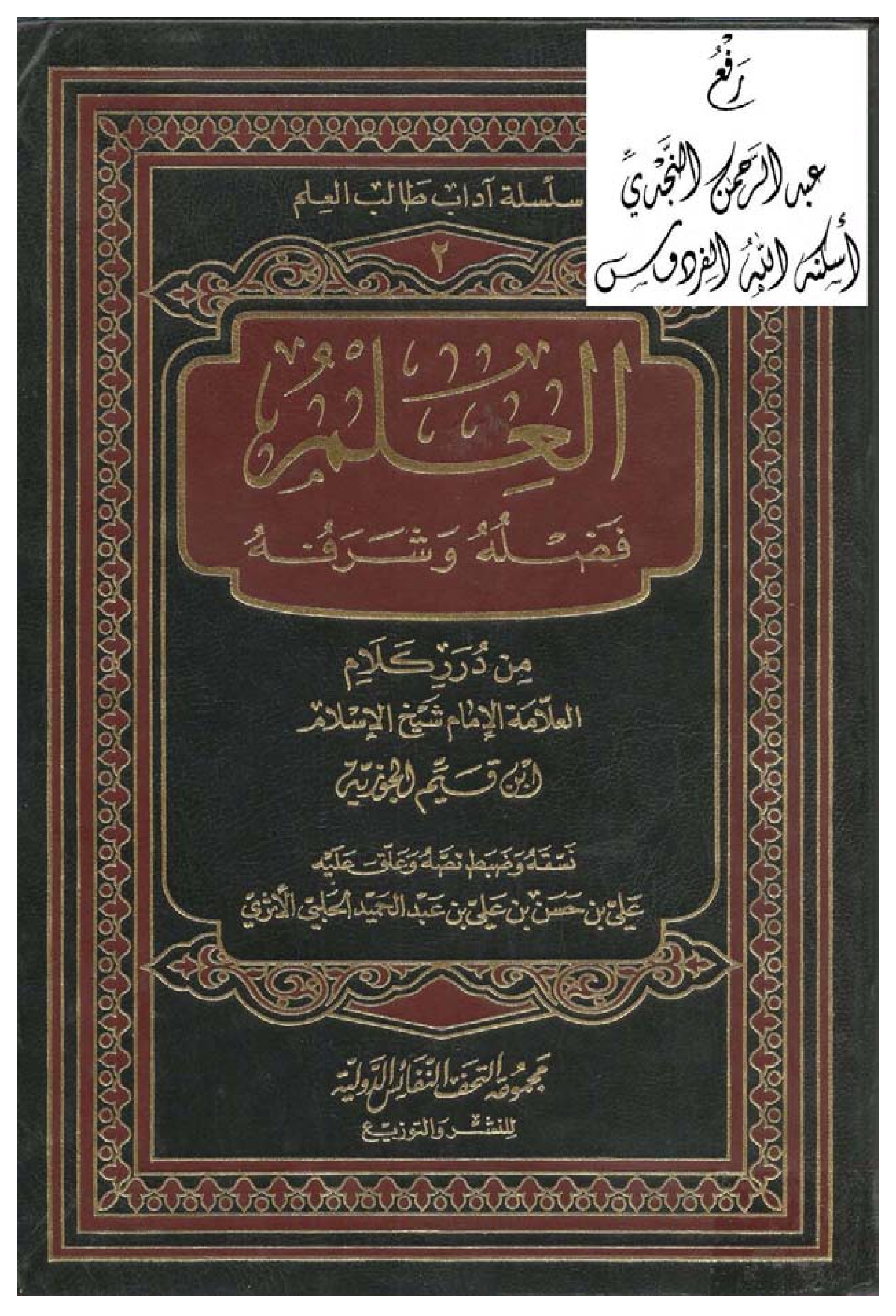
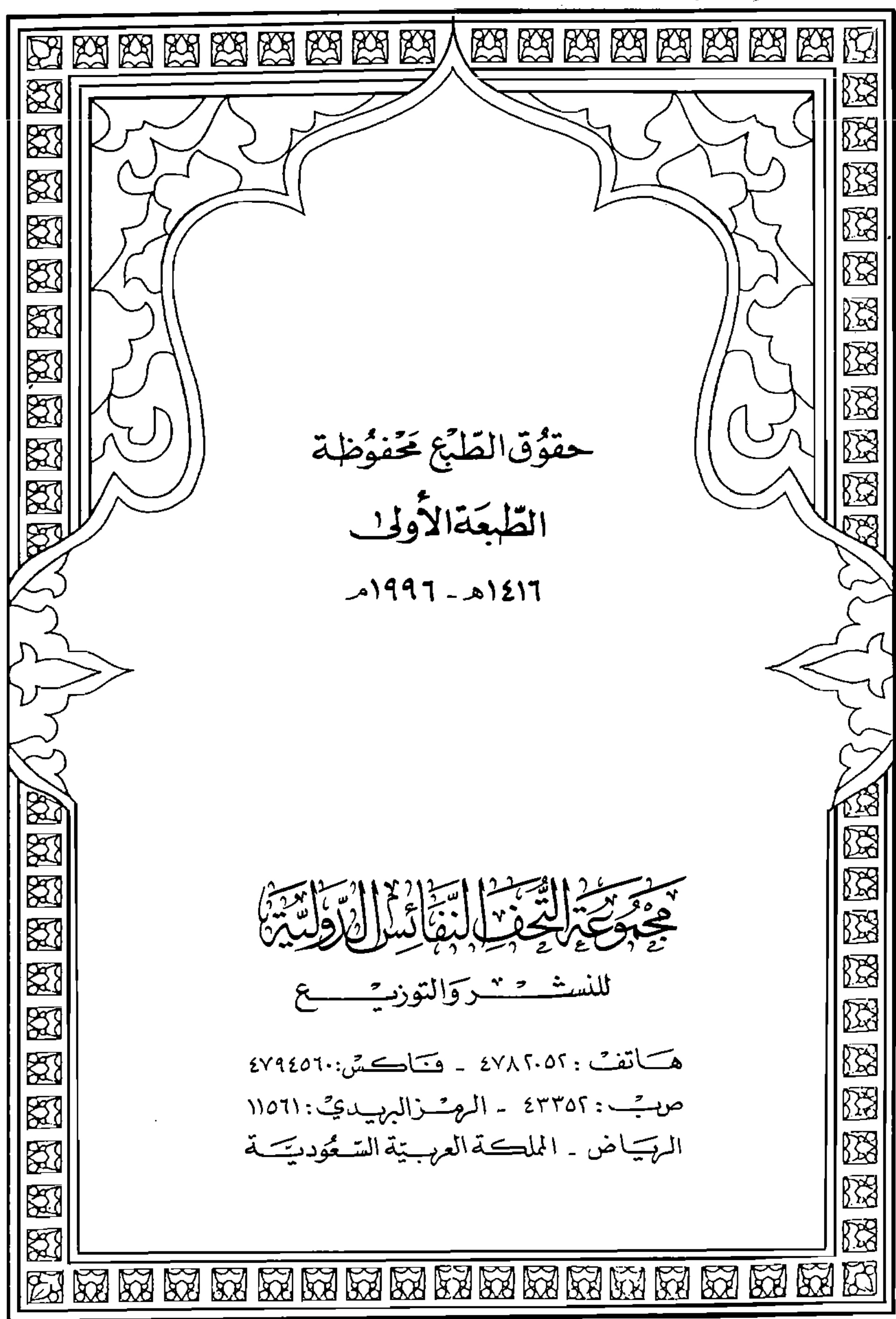

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
سلسلة آداب طالب العلم
٢
العلم
فضله وشرفه
من درر كلام
العلامة الإمام شيخ الإسلام
ابن قيم الجوزية
نسقه وضبط نصه وعلق عليه
علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري
مجموعة التحف النفائس الدولية
للنشر والتوزيع

العلم

فضله وشرفه

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

مجموعة التحف النفائس الدولية
للنشر والتوزيع

هاتف: ٤٧٨٢٠٥٢ - فاكس: ٤٧٩٤٥٦٠
ص ب: ٤٣٣٥٢ - الرمز البريدي: ١١٥٦١
الرياض - المملكة العربية السعودية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

سلسلة آداب طالب العلم (٢)

العلم

فضله وشرفه

من درر كلام

العلامة الإمام شيخ الإسلام
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١ هجرية رحمه الله تعالى

نسقه وضبط نصه وعلق عليه

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري

مجموعة التحف النفائس الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ، ونستعينُهُ ونستغفره ، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنفسِنا ، ومِن سيِّئاتِ أَعمالِنا ، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضلل فلا هاديَ له .

وأَشهدُ أَنْ لا إِلٰه إِلّا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له .

وأَشهدُ أَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه .

أَمّا بعدُ :

فإِنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى يقولُ في كتابِه العزيزِ : ﴿ وجاهِدْهم به جِهاداً كَبيراً ﴾ [الفرقان : ٥٢] ؛ أَي : القُرآن ؛ كما رُويَ عن ابن عباسٍ [١] رضي الله عنه .

ولا يَتمُّ هذا الجهادُ على وجهِهِ الحقِّ إِلّا بالعلمِ بِهِ ؛ وبأَحكامِهِ ، وعقائدِه ، وآدابِه ، وأُصولِه ، وهدايتِهِ ...

ومِن قواعدِ أَهلِ العلمِ المعروفةِ المشهورةِ قولُهم : « للوسائلِ حُكْمُ الغاياتِ » [٢] ؛ فالعلمُ على هذا المَعْنى - أَيضاً - جهادٌ وأَيُّ جهاد !

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣ / ٥١٤) لابن كثير .

(٢) على تفصيلٍ يُنظَرُ له كتابي « إِحكام المَباني » (ص ٨٤ - ٨٥) .

وقد روى الإمامُ الحافظُ يعقوبُ بن سُفيانَ الفَسَويُّ في « المعرفة والتاريخ » (٣ / ٤٠٠) بسندِه عن أَبي الدرداءِ رضي الله عنه قولَه : « ما مِنْ أَحدٍ يغدو إِلى المسجدِ لخيرٍ يتعلّمُهُ ، أَو يُعَلِّمُه إِلّا كُتِبَ بِهِ أَجرُ مُجاهدٍ ، لا ينقلبُ إِلّا غانماً » .

وفي « جامع بيان العلمِ وفضله » (رقم : ١٥٩) للإِمام ابنِ عبدِ البَرّ عنه - رضي الله تعالى عنه - قال : « مَن رأىٰ الغُدُوَّ والرواحَ إِلى العلمِ ليس بجهادٍ فقد نَقَصَ عقلُهُ ورَأْيُهُ » .

وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ عن أَنسٍ رضي اللهُ عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ خَرَجَ في طَلَبِ العلمِ فهو في سبيلِ اللهِ حتّى يرجعَ » [1] .

وهذا معنى صحيحٌ جدّاً .

قال الإِمامُ العلّامةُ ابنُ قَيِّم الجوزيّة في كتابِه العُجابِ « مِفتاح دار السعادة » (١ / ٢٧١ - ٢٧٣ - نشر دار ابن عفّان / بتحقيقي) :

« وإِنَّما جُعِلَ طَلَبُ العلمِ من سبيلِ اللّهِ لأَنَّ به قَوامَ الإِسلام، كما أَنَّ قَوامَهُ بالجهادِ ، فَقَوامُ الدِّين بالعلمِ والجهادِ .

ولهذا كانَ الجهادُ نوعين : جهادٌ باليَدِ والسِّنانِ؛ وهذا المُشارِكُ فيه كثيرٌ، والثّاني : **الجهادُ بالحُجّةِ والبيانِ؛ وهذا جهادُ الخاصّة من أتباعِ الرُّسلِ، وهو جهادُ الأئمّة، وهو أفضلُ الجهادَين لعظمِ منفعتهِ وشدَّةِ مُؤنتهِ وكثرةِ**

(١) رواه الترمذي (٢٩٤٧) والطبرانيّ في « المعجم الصغير » (١ / ١٣٦) والعُقيليّ في « الضُّعفاءِ » (٢ / ١٧) بسندٍ فيه راويانِ ضعيفانِ !

أعدائِهِ[1]، قال تعالى في سورة الفرقان [٥١-٥٢] - وهي مَكِّيَّةٌ - : ﴿ ولو شِئنا لَبَعَثْنا في كُلِّ قَريَةٍ نَذيرًا فلا تُطِعِ الكافرينَ وجاهِدْهُم بِهِ جهادًا كبيرًا ﴾ .

فهذا جهادٌ لهم بالقرآن وهو أكبرُ الجهادَين، وهو جهادُ المنافقين أيضًا؛ فإنَّ المنافقين لم يكونوا يُقاتلونَ المسلمين، بل كانوا معهم في الظَّاهرِ ، وربَّما كانوا يقاتلونَ عدوَّهُم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافقينَ واغلُظْ عَلَيهِم ﴾ [التوبة : ٧٣]، ومعلومٌ أنّ جهادَ المنافقين بالحُجَّةِ والقرآن .

والمقصودُ أنَّ سبيلَ اللَّهِ هي الجهادُ وطلبُ العلمِ ودعوَةُ الخَلْقِ به إلى اللَّه، ولهذا قال مُعاذٌ رضيَ اللَّهُ عنه : عليكم بطَلبِ العلمِ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للَّهِ خشيَةٌ، ومدارَستَهُ عبادَةٌ، ومُذاكرتَهُ تَسبيحٌ، والبَحثَ عنهُ جهادٌ [2] .

ولهذا قَرَنَ سبحانهُ بينَ الكتابِ المُنزَّلِ والحديدِ النَّاصر، كما قال تعالى: ﴿ لَقَد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأنزَلْنا مَعَهُم الكتابَ والميزانَ ليَقومَ النَّاسُ بالقِسطِ وأنزَلنا الحَديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ وليَعلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُه ورُسُلَهُ بالغَيبِ إنَّ الله قَويٌّ عَزيز ﴾ [الحديد : ٢٥]، فذكرَ الكتابَ والحديدَ ، إذ بهما قَوامُ الدِّينِ، كما قيل :

فما هوَ إلّا الوَحيُ أو حَدُّ مُرهَفٍ … تُميلُ ظِباهُ أخْدَعَي كُلِّ مائـلِ
فهذا شفاءُ الدَّاء من كلِّ عاقـلٍ … وهذا دواءُ الدَّاءِ من كلِّ جاهلِ

ولمَّا كانَ كلٌّ من الجهادِ بالسّيفِ والحُجَّةِ يُسمَّى سبيلَ اللَّهِ ، فسَّرَ

---

(١) فلْيتأمَّلْ هذا دُعاةُ الإثارةِ العاطفية ، والتهييج الحماسيّ السّياسيّ !
وَلْتُنظَر رسالتي « ضوابط الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر عند شيخ الإسلام ابن تيميّة » .
(٢) انظر ما سيأتي (ص ٣٩) .

الصَّحابَةُ رضيَ اللَّهُ عنهم قولَه : ﴿ أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمرِ منكُم ﴾ [النساء : ٥٩]، بالأُمراء والعلماء؛ فإنَّهُم المُجاهِدون في سبيلِ اللَّهِ ؛ هؤلاء بأيديهم ، وهؤلاء بألسنتهم، **فطَلَبُ العلم وتعليمُه من أعظمِ سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ** .

قال كعبُ الأحبار : طالبُ العلمِ كالغادي الرَّائحِ في سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

وجاءَ عن بَعضِ الصَّحابَةِ رضيَ اللَّهُ عنهُم: إذا جاءَ المَوتُ طالبَ العلمِ وهو على هذه الحال ماتَ وهو شهيدٌ .

وقال سفيانُ بن عُيَينَة : من طَلَبَ العلمَ فَقَد بايَعَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ » .

وإذ الأَمرُ كذلك ؛ وهو - مع ذلك - خافٍ على كثيرٍ من الناسِ ، وغائبٌ عن واقعِ شريحةٍ عظيمةٍ من الأُمّةِ ، رأيتُ لُزومَ حَثِّ الناسِ على العلمِ ، وحَضِّهم على التعلُّمِ ، وذلك ببيانِ « فضل العلمِ وشرفِه » ، وتعريفِهم عظيمَ قَدْرِهِ وكبيرَ منزلتِه ، وقديماً قيل : « مَنْ جَهِلَ شيئاً عاداه » !! فكيفَ إذا كانَ هذا الشيءُ الَّذي جُهِلَ هو العلمَ ؟! فالبليّةُ - إذن - مُرَكَّبَةٌ !!

ولَمَّا بَدَأْتُ بِجَمْعِ خُيُوطِ الموضوعِ ، ولَمِّ شَعَثِ أَطرافِه ، وتَنْسيقِ مباحثِه ، ومسائلِه ، كانَ أَوَّلَ ما وَقَعَ عليه بَصَري ذلك الفَصْلُ البديعُ المُمْتِعُ العَظيمُ الَّذي دَبَّجَتْهُ يَرَاعَةُ الإمامِ الحافظ ابنِ قَيِّمِ الجوزيّةِ - رحمه اللهُ تعالى - في كتابِه الجليلِ المُستطابِ « **مِفْتاح دار السعادة** »[1] (١ / ٢١٩ - ٥٤٢) الَّذي عدّه **الأَصلَ**

---

(١) ولقد امْتَنَّ اللهُ سبحانَه على كاتبِ هذهِ الحروفِ - وهو المانُّ وحدَه - بالقيامِ على خدمةِ هذا الكتابِ ؛ ضبطاً ، وتحقيقاً ، وشرحاً ، وتخريجاً ، وتنقيحاً ، وفهرسةً - على مدار ثلاث سنوات - وقد طُبع قريباً في ثلاث مجلدات ، نشر دار ابن عفّان - الدمام .

الأوّلَ ، وهو : « **في العلمِ ؛ فضلِه وشَرَفِه ، وبيانِ عُمومِ الحاجةِ إليه ، وتوقُّف كمالِ العبدِ ونجاتِه في معاشِه ومعادِه عليه** » ...

فرأيتُ - بعدَ تأمُّلٍ شديدٍ ونَظَرٍ سديدٍ - أَنَّ كلَّ كلامٍ - دونَه - دونَه ! وشعرتُ بأَنَّ الزيادةَ عليه - بمثلِ سَعَةِ جَمْعِهِ وحُسنِ بيانِه - تكادُ تكونُ على القارىءِ عَبَثاً !! وعلى الباحثِ عِبْئاً !!

فانْشَرَحَ صَدْري لإفرادِه بالنَّشرِ حتّى تَعُمَّ فائدتُه ، وتنتشرَ مادّتُهُ ؛ لِما تحويهِ من دُررِ المسائلِ ، وعُيُونِ الفضائلِ ؛ فقد زادت الوجوهُ الّتي ذكره هذا الإمامُ العَلَمُ على مئةٍ وخمسين وَجْهاً ؛ نَثَرَ فيها سائرَ أَنواعِ الاستدلالِ الصحيح الصَّريح ، مُصَدِّراً إيّاها بالقرآنِ والسُّنّةِ ، ثمَّ الآثارِ عن الصحابةِ والتابعين ، ثمَّ كلماتِ أَئمّةِ الدين ، ثمَّ القياسِ الشرعيِّ المُعْتَبَر .

فأخذتُ مِن هذه الوجوهِ - جميعِها - أَقواها ، وأَبقيتُ منها أَحلاها وأَغلاها ، فوَصَلَتْ نحوَ مئةٍ وثلاثين وجهًا .

ولقد تميَّزَ كلٌّ مِنَ العَمَليْنِ - المبحثِ الذي هنا ، مُقارنةً مع الفصلِ الموجودِ في « المِفْتاح » - بفوائدَ وتعليقاتٍ وتنبيهاتٍ لا تُوْجَدُ في مُقابِلِهِ ، بحيثُ لا يُغْني أَحدُهما عن الآخرِ .

.. فعسى أَن أَكونَ قد قَدَّمتُ لإخواني المُسلمينَ - من العامّةِ والخاصّةِ - ما تَقَرُّ به عيونُهم ، وتنثلجُ به أَفئدتُهم ، وتنتعشُ به صدورُهم ..

واللهَ أَسأَلُ التوفيقَ والسدادَ ، والهدايةَ والرَّشادَ .

وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين .

وكتب

أَبو الحارث الحلبيُّ الأَثريّ

الزرقاء : لعشرٍ خَلَونَ من شهرِ رمضان / سنة (١٤١٥هـ)

مُوْجَزُ ترجمة
الإِمام العلَّامَةِ شمسِ الدين ابن القيِّم
رحمه اللَّه تعالى

مدخلٌ[1]:

« الإِمامُ الجليلُ ابنُ القَيِّم عَلَمٌ من أَعلامِ عُلماءِ الكتابِ والسنَّةِ ، وَمَنارٌ من مناراتِ الحقِّ ، في هَدْيِهِ إِشْراقٌ ونورٌ ورحمةٌ ، فلقد حَيَّ - رضي اللَّه عنه - لربِّه وكتابِ ربِّه، وسُنَّةِ خاتَم النَّبيينَ ، حَيَّ حياةَ الصدِّيقين والشهداءِ ، يفتحُ قلبَه للنُّور ، لأَنَّه لا يُحبُّ أَنْ يحيا إِلَّا في النُّور .

عاشَ يُحَطِّم طواغيتَ الشركِ ، وأَصنَامَ الوثنيَّةِ ، ويُدمِّر تلك الحُصونَ التي شيَّدَتْها شهواتُ الطُّغاةِ البُغاةِ من أَحْلاسِ الرِّمَم ، ورادةِ الإِثم في رَدْغَةِ المواخيرِ .

عاشَ والقرآنُ بين عينيهِ، وفي فِكرِهِ، وفي قلبِهِ، بل عاشَ والقرآنُ فَلَكٌ لا تدورُ حياتُهُ إِلَّا حولَه ، فأَعاد هو وشيخُه الجليلُ الإِمامُ ابنُ تيميَّةَ إِلى السُّنَّةِ بهاءها ورونَقها، وخلَّصاها ممَّا شابها ، وبيَّنا لأَكثرِ الحقائقِ الإِسلاميَّةِ مفهوماتِها الصادقةَ الحقَّةَ ، وجَعَلَا لكُلِّ حقيقةٍ ما هو لها دونَ نقصٍ أَو زيادةٍ .

ورَفَضَا بقُوَّةٍ ودرايةٍ علميَّةٍ ممتازةٍ ، ونباهةٍ فكريةٍ رائعةٍ ما افتراه المُحَرِّفونَ والمُؤَوِّلون والمُعَطِّلةُ والمُشَكِّكةُ مِن مفهوماتٍ ومُصطلحاتٍ ، ودَمَغُوهم بتجريدِ

---

[1] مِن كلام الشيخ عبدالرحمن الوكيل رحمه اللَّهُ تعالى في مقدمته لتحقيقه كتابَ « إِعلام الموقِّعين » (١ / م - ن) للمؤلِّف ، وذلك قبل نحو رُبع قَرْنٍ مِن الزَّمن .

الكلماتِ المقدَّسةِ مِن حقائقها ومعانيها ، ثمَّ جاءوا لهذه الكلماتِ بما يُحِبُّ اللَّهُ أَن يكونَ لها .

ولهذا عاشا يُناضِلانِ الفلسفةَ والتصوُّفَ والكلامَ ، وأَدعياءَ الفقهِ والأُصولِ مِن عَبَدةِ الرأي والقياسِ ومُحلِّلي الإثمِ بِاسْمِ الحِيَلِ ! وأَبَيَا في إِصْرارِ المؤمنِ وكِبريائِهِ أَنْ يَهْطَعَا للبغي في سطوتِهِ الباغيةِ ، أَو أَنْ يَرْضَيَا السَّلامةَ يشتريانِها بمُداهنةِ الباطلِ ، ومُمالأَةِ الضلالةِ ، واستحبَّا السجنَ على الحُرِّيَّةِ .

ولم يَرْوِ لنا التاريخُ بعد عصر الإمامينِ الجليلينِ قصَّةَ أُستاذٍ وتلميذِهِ تُشْبِهُ قصَّةَ الإمام ابنِ تيميَّةَ وابنِ القيِّم ، فهما أَشبهُ بالمِصْباحِ ونورِهِ ، أَو بالشمسِ وضُوئها ، فَرَضِيَ اللَّهُ عنهما وأَرضاهما » .

مصادر الترجمة :

« الوافي بالوفيات » (٢ / ٢٧٠) للصَّفَديِّ ، و « شَذَرَات الذَّهب » (٦ / ٢٦٨) لابن العِماد ، و « الدّرر الكامنة » (٤ / ٢١) لابن حجر ، و « البدر الطالع » (٢ / ١٤٢) للشوكانيِّ ، و « ذيل طبقات الحنابلة » (٢ / ٤٤٧) لابن رجب ، و « ذيل العِبَر » (٥ / ٢٨٢) للذهبيِّ ، و « البداية والنهاية » (١٤ / ٢٠٢) لابن كثير ، و « التاج المُكَلَّل » (ص ٤١٦) لصدِّيق حسن خان ، و « طبقات المفسّرين » (٢ / ٩١) للداووديِّ ، و « بُغية الوُعاة » (١ / ٦٢) للسّيوطيِّ ، و « الردّ الوافر » (ص ٣٥) لابن ناصر الدين ، و « النجوم الزاهرة » (١٠ / ٢٤٩) لابن تَغْري بَرْدي ، وغيرها .

وللعلامةِ الشيخ بكر بن عبدالله أَبو زَيْد - حفظه اللهُ ونَفَعَ بِهِ - كتابٌ حافلٌ في « ابن قيِّم الجوزيّة : حياته ، آثاره ، موارده » في أَكثرَ مِن أَربعِ مئةِ صفحة ، مطبوعٌ عدّةَ طبعات ، أَحسنُها طبعة دار العاصمة سنة (١٤١٢هـ) ، فجزاهُ اللهُ خيرًا .

سَرْدُ الترجمةِ[1] :

○ هو محمَّدُ بن أَبي بكرِ بن سَعْد بن حَرِيز الزُّرْعي ثم الدمشقي ، المُلَقَّب بشمس الدين ، والمُكَنَّى بأَبي عبدالله ، والمعروفُ بابنِ قيِّم الجوزيَّةِ ، والجوزيَّةُ مدرسةٌ كان أَبوهُ قيِّمًا عليها .

○ وقد وُلد ابنُ القيم في ٧ من صفر سنة ٦٩١ هـ ، ونَشَأَ في بيتِ علمٍ وفضلٍ ، وتلقَّى علومَه الأُولى عن أَبيهِ ، وأَخذ العلم عن كثيرٍ من العُلَماءِ الأَعلامِ في عصرِهِ .

وله في كُلِّ فنٍّ إِنتاجٌ قيِّمٌ .

○ وإِلى جانبِ علمِه كان يذكرُ اللَّهَ ذِكْرًا كثيرًا ، ويقومُ الليلَ ، وكان سَمْحَ الخُلُقِ ، طاهرَ القلبِ .

وقد أُعْجِبَ بابنِ تيميَّةَ ؛ إِذ الْتَقَى به سنة ٧١٢ هـ ولازَمَه طولَ حياتِه ، وتتلمَذَ عليه ، وتحمَّل معه أَعباءَ الجهادِ ، ونَصَر مذهبَه ، وحملَ لواء الجهادِ بعد وفاةِ شيخِه ابن تيميَّةَ سنة ٧٢٨ هـ ، وظلَّ يخدمُ العلمَ إِلى أَنْ تُوُفِّي ليلةَ الخميس ١٣ رجب سنة ٧٥١ هـ .

○ وكان رحمه اللَّه بَحْرًا زاخِرًا بأَلوانِ العلومِ والمعارِف ، وكان مُبَرِّزًا في فقهِ الكتابِ والسنَّةِ ، وأُصولِ الدينِ ، واللُّغةِ العربيةِ ، وعلمِ الكلامِ ، وعلمِ السلوكِ ، وغيرِ ذلك .

---

(١) وهي بقَلَم فضيلة الشيخ سيّد سابق حفظه اللّه ؛ وذلك في مُقدمةِ الطبعةِ التي حقَّقها الشيخُ الوكيل رحمه اللّه لـ « إِعلام الموقِّعين » (١ / ز - ل) .

وإِنَّما اكتفيتُ - في هذا المقام - بنقل هذه الترجمةِ الَّتي كَتَبَها الشيخُ سيّد سابق ؛ لأَهميتها ، وعِزَّتها ، والدلالةِ على نهجِ كاتبها .

وقد انْتَفَعَ النَّاسُ به وتتلمذَ عليه العُلماءُ ، ولا تزالُ مُؤلفاتُه حتى اليومِ مصادرَ إِشعاعٍ ومناراتِ توجيهٍ .

○ وعالِمٌ هذا شأنُهُ لا بُدَّ أَنْ يكونَ موضعَ إِعجابِ المُنْصِفين ، ومثارَ حقدِ الأَعداءِ والحاسدين - فلقد كان مُستقِلَّ الشخصيةِ ، لا يُصْدِرُ رأْيَه في المسائلِ إِلَّا بعد الوقوفِ على ما قالَتْهُ الطوائفُ المختلفةُ ، والنظرِ بعينٍ فاحصةٍ ، ورأْيٍ ثاقبٍ ، يَنْفي به الباطلَ ، ويُؤَيِّدُ به الحقَّ الذي يراه - جديرٌ بأَنْ تُسَلَّطَ عليه الأَضواءُ .

ومِن هنا قام مذهبُ ابن القيِّم على الانتخابِ[1]، بمعنى أَنَّه **لا يتَّبِعُ مذهبًا مُعيَّنًا، وإِنَّما يَنْشُدُ الحقَّ أَينما وُجِدَ**، ويُحارِبُ الباطلَ أَينما وُجد، دون أَنْ يتأَثَّر بارتباطاتٍ نفسيَّةٍ أَو اتجاهاتٍ من أَيِّ نوعٍ، إِلَّا الارتباطَ بالحقِّ، وبالحقِّ، وبالحقِّ وحدَه .

○ وذلك الاتِّجاهُ يتمشَّى مع إِصرارِهِ على مُحاربةِ التقليد الأَعمى، والحِرْصِ على دَعْم اتجاهاتِهِ وآرائِهِ بالكتابِ والسنّةِ ، ومُحارَبَةِ التأْويلِ المُستجيبِ للأَهواءِ .

ومِن هنا الْتَقى مع السَّلَفِ في تَرْك التأويل ، وإِجراءِ ظواهر النُّصوص على موارِدها ، وتَفْويض معانيها[2] إِلى اللَّهِ تعالى .

وقد كان يستهدفُ إِخراجَ المسلمين مِن خلافاتِهم ، وتضارُبِ آرائهم ، وخُصوصًا أَنَّ هذه الخِلافاتِ غريبةٌ على المُشتغلين بدينِ اللَّه ، وأَنَّ رُوحَ الإِسلام تأْباها ولا تسمحُ بها ، وأَنّ الأَوضاعَ العامَّةَ للمُجتمع الإِسلاميِّ آنذاك كانت غايةً في السوء من النَّواحي السياسيةِ والاجتماعيةِ والعلْميةِ ، ومِنْ شأْنِ هذه الخلافاتِ

---

(١) والأَصوبُ أَنْ يُقال : الانْتِقاء . (ع) .

(٢) المُتعلّقة بذاتِ اللّه سبحانه ، لا الأَصل اللُّغوي . (ع) .

أَنْ تزيدَ الطينَ بِلَّةً ، وأَنْ تَشْغَلَ المسلمين عن مُقاومةِ أَعدائهم[1] الذين تكالبوا عليهم في العُصور الوسطى .

وساعد العَدُوَّ على تحقيقِ مآربه تمزُّقُ البلادِ الإسلاميَّةِ إلى ممالكَ صغيرةٍ[2] يحكُمُها العَجَمُ والمماليكُ ، وضياعُ هيبةِ الخِلافةِ التي وُجدت اسْمًا وتلاشَتْ فِعلًا ، فاسْتَغَلَّ التتارُ والصليبيُّون هذا الوضعَ السياسيَّ أَسوأَ استغلالٍ ، وإِنْ كانت الدائرةُ قد دارتْ على الأَعداءِ في نهاية المطافِ ، والحمدُ للَّه .

○ ولم تكُنِ الناحيةُ الاجتماعيَّةُ أَقلَّ سُوءًا من النَّاحيةِ السياسيَّةِ ، فقد كان النَّاسُ يعيشون في رُعبٍ وفَزَعٍ وخوفٍ من سوء المصير ، وخَيَّمَ الفقرُ ، وابْتُلِيَ الناسُ بالجوع والغلاءِ مع نَقْصٍ في الأَموالِ والثمراتِ ، وانطلق اللصُوصُ ينهَبون ويسلُبُون ، واستعان الأُمراءُ بهؤلاء اللصوصِ على تحقيقِ مآربِهِم ، وظهر الفسادُ في المتاجِر وفي كُلِّ نواحي الحياة .

وَجَوٌّ كهذا لا يُمَكِّنُ مِن طَلَب العلمِ ، بل إِنَّه يصرفُ الأَذهانَ عن نُور المعرِفةِ ، وذلك هو الذي وَقَع في دُنيا الناسِ حينئذٍ ، ولذلك عاشوا عالةً على السَّابقين ، يُقَلِّدُونهم تقليدًا أَعمى ، ويَجْمُدُون على ترسُّم خطواتهم ، ولذلك خَمَدَت القرائحُ ، وعَجَزَتْ عن الابتكارِ والاجتهادِ والتجديدِ ، ولا يَنْقُضُ هذا وجودُ بعضِ أَفرادٍ كان لهم - إِلى حَدٍّ ما - جُهْدٌ يُذْكَرُ فَيُشْكَرُ .

---

(١) في الكتاب : عدوُّهم . (ع) .

(٢) ما أَشبه الليلةَ بالبارحةِ ! فَحالُ الأُمَّةِ - اليوم - كذلك ، تفرقًا ، وتَشتُّتًا ، وتسلُّطًا ، واندحارًا ، وذُلًّا - ، ولكنْ أَنَّى لها - اليومَ - أَمثالُ ابنِ تيميَّة وابنِ القيِّم ، ومناهجهم العلميَّة العالية ؟!

وإِنْ وُجِدَ .. فأَنَّى لهم أَتباعٌ صادقون ، وتلاميذُ مُخْلِصون ؟!

○ في هذا الجوِّ ظهر ابنُ القيِّم ظهورَ الغَيورِ على أُمَّتِه ، المُهتمِّ بحاضرِها ، الباحِثِ عن خَيْرِ مصيرٍ لها في مُستقبلِها ، الراغبِ في إِنْهاضِها من كَبْوَتِها ، وإقالَتِها مِن عثرَتِها ، وإِخْراجِها من ظُلُماتِ الخلافاتِ ، والعودةِ بها إِلى طريقِ النورِ الذي سَلَكَهُ سَلَفُنا الصالحُ ، فَوَصَلُوا في نهايتِه إِلى أَكرمِ الغاياتِ في ضَوْءِ هذا الدينِ القويمِ ، وبتوجيهاتِ القرآنِ الكريمِ .

○ والأُصولُ الَّتي اعتمدَ عليها ابنُ القيِّم في استنباطِ أَحكامِه ؛ هي الكتابُ والسنَّةُ والإِجْماعُ - بشرطِ عدم العِلْمِ بِالمخالفِ - وفتوى الصحابيِّ - إِذا لم يُخالِفْهُ أَحدٌ من الصحابةِ ، فإِنِ اخْتَلَفُوا تَوَقَّفَ تَوَقُّفَ المُختار - ثم فتاوى التابعينَ ، ثم فتاوى تابِعيهم ، وهكذا ، والقياسُ ، والاستصحابُ ، والمصلحةُ ، وسدُّ الذرائع ، والعُرْفُ .

○ وأَمَّا بالنسبةِ إِلى طريقتِه في البحثِ ؛ فقد كان يعتمدُ أَوّلًا على النُّصوصِ ، يَسْتنبطُ منها الأَحكامَ ، ويُكْثِرُ من الأَدلَّةِ على المسأَلةِ الواحدةِ ، ويعرضُ آراءَ السَّابقين ، يختارُ منها ما يُؤَيِّدُه الدليلُ ، وقد يُبَيِّنُ وجهةَ كُلِّ فقيهٍ فيما ذهبَ إِليه ، ويعرضُ أَدلَّةَ المخالفين ويُفَنِّدُها ، ويستعينُ بالأَحاديثِ على بيانِ معنى الآيةِ .

وهو في كُلِّ هذا لا يتعصَّبُ لمذهبٍ مُعيَّنٍ ، بل يجتهدُ ، ويدعو إِلى الاجتهادِ ، ويُعْمِلُ فِكْرَهُ ، ولا يَدَّخِرُ في ذلك وُسعًا ؛ ويَنْشُدُ الحقَّ أَينما كانَ .

○ وقد كان ابنُ القيِّم يرجو مِن وراء ذلك كُلِّه أَنْ يَقْضِيَ على اختلافِ المسلمين الَّذي قادَهُم إِلى الضعفِ والتفكُّك ، وأَنْ يجمعَهم على الاقتداءِ بالسلفِ في أَمرِ العقائدِ ، لأَنَّه رأَى أَنَّ مذهَبَ السَّلفِ أَسلمُ مذهبٍ[1]؛ وكان

---

(١) وأَعلمُهُ وأَحكمُهُ . (ع) .

يرجو أَنْ يَقُودَ المسلمين إِلى التحرُّرِ الفكريِّ ، ونَبْذِ التقليدِ ؛ وإِبْطالِ حِيَلِ المُتلاعبين بالدِّين ؛ وأَنْ يكونَ الفهمُ المُشْرِقُ الكاملُ لروح الشريعةِ الإِسلاميةِ السَّمْحةِ ، هو النِّبراسَ ، وهو المُوَجِّهَ الحقيقيَّ في كُلِّ المواقفِ .

○ « تُوُفِّي رحمه وقتَ عشاءِ الآخرة ليلةَ الخميسِ ثالثَ عَشَرَ رَجبٍ سنة ٧٥١ هـ ، وصُلِّيَ عليه من الغدِ بالجامعِ عَقِيبَ الظُّهرِ ، ثمَّ بجامع جَرَّاح[١]، ودُفن بمقبرةِ الباب الصغير ؛ وشيَّعه خلقٌ كثيرٌ .

ورُئِيَتْ له مناماتٌ كثيرةٌ حَسَنةٌ رضي اللَّه عنه .

وكان قد رأَىٰ قبلَ موتِه بمدَّةٍ الشيخَ تقيَّ الدين[٢] رحمه اللَّه في النَّومِ ، وسأَلَهُ عن منزِلَتِه ؟ فأَشار إِلى عُلُوِّها فوقَ بعض الأَكابرِ ، ثم قال له : وأَنتَ كِدْتَ تلحقُ بنا ، ولكنْ أَنتَ الآنَ في طبقةِ ابن خُزَيمة رحمه اللَّه »[٣].

وبعد :

فتلك لَمْحَةٌ خاطِفةٌ عن هذا العالمِ الجليلِ ؛ والمُصْلِحِ الكبيرِ ، نُقَدِّمُها في إِجْمالٍ نجدُ تفاصيلَه مع تفاصيلِ الجوانبِ الأُخرى لابنِ القيِّم في هذا الكتابِ .

نسأَلُ اللَّهَ أَنْ ينفعَ به ؛ وأَنْ يَجْزيَ مؤلِّفَهُ خيرَ الجزاءِ ، وأَنْ يُعِزَّ دينَه ، ويُرشِدَ عبادَه بأَمثال ابن القيِّم من العُلماء الأَجلَّاء ، والفقهاء الذين أَراد اللَّهُ بهم خيرًا ، وأَرادوا لأُمَّتِهم النَّفعَ والإِرشاد .

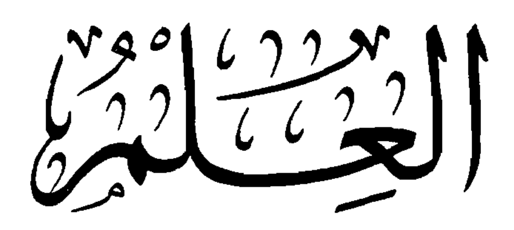
وما توفيقُنا إِلَّا باللَّهِ ، عليه توكَّلْنا وإِليه أَنَبْنا ، وإِليه المصيرُ .

---

(١) انظر « مُنادمة الأَطلال » (ص ٣٧١) لابن بدران . (ع)

(٢) هو شيخ الإِسلام ابن تيميَّة . (ع)

(٣) مِن نَقْل الشيخ عبدالرحمن الوكيل في مقدِّمته لـ « إِعلام الموقِّعين » (١ / خ) عن « ذيل طَبَقات الحنابلة » (٢ / ٤٥٠) لابن رَجَب الحنبلي .



العلم

فضله وشرفه

وبيان عموم الحاجة إليه
وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه

[وجوهُ تفضيلِ العلم]

○ الوجه الأوّل : [شهادةُ اللهِ سبحانَه لأَهلِ العلمِ] :

قال اللّهُ تعالى : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلمِ قائماً بالقِسطِ لا إِلهَ إِلّا هوَ العَزيزُ الحَكيم ﴾ [آل عمران : ١٨] .

استشهدَ سبحانَهُ بأُولي العلم على أَجَلِّ مشهودٍ عليه، وهو تَوحيدُهُ فقال : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلمِ قائماً بالقِسطِ ﴾، وهذا يدُلُّ على فَضلِ العلمِ وأهلِهِ من وجوهٍ :

أحدُها : استشهادُهُم دونَ غَيرهم من البَشرِ .

والثّاني : اقترانُ شهادَتِهِم بشهادتهِ .

والثّالثُ : اقترانُها بشهادَةِ ملائكتِهِ .

والرّابعُ : أنَّ في ضمنِ هذا تَزكيَتَهُم وتَعديلَهُم؛ فإنَّ اللّهَ لا يَستَشهدُ مِن خَلقهِ إلّا العُدولَ، ومنه الأَثَرُ المَعروفُ عن النَّبيِّ ﷺ : « يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ ؛ يَنْفُونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ ، وانتِحالَ المُبْطِلين ، وتأويلَ الجاهلين »[1].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ لي جُزءٌ مُفرَدٌ في تخريجهِ، عنوانه : « إتحاف ذوي الشَّرف، بطُرق حديث : يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلَف ... » .

وانظر تعليقي على كتاب « الحِطَّة » (ص ٧٠-٧١) لصدِّيق حسن خان .

وقال مُحمَّد بن أحمد بن يَعقوبَ بن شيبَة : رأيتُ رجلًا قدَّم رجلًا إلى إسماعيلَ بنِ إسحاقَ القاضي، فادَّعى عليه دَعوى، فسألَ المُدَّعى عليه ؟ فأنكرَ، فقال للمُدَّعي : ألكَ بيِّنَةٌ ؟ قال : نعم، فلانٌ وفلانٌ، قال : أمَّا فلانٌ فمِن شُهودي ، وأمَّا فلانٌ فليسَ من شُهودي ، قال : فيَعرفُهُ القاضي ؟ قال : نعم ، قال : بماذا ؟ قال : أعرفهُ بكَتْبِ الحديثِ، قال : فكيفَ تعرفهُ في كَتبِهِ الحديثَ ؟ قال : ما علمتُ إلّا خَيرًا، قال : فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « يحملُ هذا العلمَ من كُلِّ خلفٍ عدولهُ »، فمَن عدَّلَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ أَوْلى ممَّن عدَّلْتَهُ أنتَ، فقال : قُم فهاتِهِ، فقَد قَبِلْتُ شهادتَهُ[1].

وسيأتي - إن شاءَ اللَّهُ - الكلامُ على هذا الحديث في موضعِهِ .

الخامسُ : أنَّهُ وصَفَهُم بكونهم أُولي العلم، وهذا يدُلُّ على اختصاصِهم به، وأنَّهم أهلُهُ وأصحابُهُ ، ليسَ بمُستعارٍ لهم .

السَّادسُ : أنَّهُ سبحانهُ استشهدَ بنفسه وهو أجلُّ شاهدٍ، ثمَّ بخِيارِ خلقهِ وهم ملائكتُهُ والعلماءُ من عبادهِ، ويكفيهم بهذا فضلًا وشَرفًا .

السَّابعُ : أنَّهُ استَشهَدَ بهم على أجلِّ مشهودٍ به وأعظمِهِ وأَكبرِهِ ، وهو شهادَةُ أنْ لا إلهَ إلّا هُوَ، والعظيمُ القَدْرِ إنَّما يَستَشهدُ على الأمرِ العَظيمِ أكابرَ الخَلْقِ وساداتِهم .

الثَّامنُ : أنَّهُ سبحانهُ جعلَ شهادتَهُم حُجَّةً على المُنكِرينَ، فهُم بمنزلةِ أدلَّتِهِ وآياتهِ وبراهينهِ الدَّالَّةِ على توحيدِهِ .

التَّاسعُ : أنَّهُ سبحانهُ أفرَدَ الفِعلَ المُتضمِّنَ لهذه الشهادة الصَّادرَةِ منه ومن

(١) روى القصةَ الخطيبُ البغداديُّ في « شرف أصحاب الحديث » (رقم ٥٧) .

ملائكتِهِ ومنهم، ولم يَعطِفْ شهادتَهم بفعلٍ آخرَ على شهادتِهِ، وهذا يدُلُّ على شدَّةِ ارتِباطِ شهادتِهم بشهادتِهِ، فكأنَّهُ سبحانهُ شهدَ لنفسِهِ بالتَّوحيدِ على ألسنتِهِم، وأنطَقَهُم بهذه الشهادَةِ، فكانَ هو الشاهدَ بها لنفسِهِ إقامةً وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدونَ بها له إقرارًا واعترافًا وتَصديقًا وإيمانًا .

العاشرُ : أنَّهُ سبحانه جَعلهُم مُؤدِّينَ لحقِّهِ عندَ عبادِهِ بهذِهِ الشهادَةِ، فإذا أدَّوْها فَقد أدَّوا الحقَّ المشهودَ به، فثبتَ الحقُّ المشهودُ به، فوجَبَ على الخَلْقِ الإقرارُ به، وكان ذلك غايَةَ سعادتِهِم في معاشِهِم ومعادِهِم، وكُلُّ مَن نالَهُ الهُدى بشهادتهم، وأقرَّ بهذا الحقِّ بسببِ شهادتِهِم، فلَهُم من الأجرِ مثلُ أجرِهِ .

وهذا فَضلٌ عظيمٌ لا يَدري قَدْرَهُ إلّا اللَّهُ، وكذلكَ كُلُّ مَن شهِدَ بها عَن شهادتِهِم فلهُم من الأجرِ مثلُ أجرِهِ أيضًا .

فهذه عَشرَةُ أوجهٍ في هذه الآيَةِ .

○ **الوجهُ الثاني في تَفضيلِ العلم وأهلِهِ : [الجهل والعلمُ لا يستويان] :**

أنَّهُ سبحانهُ نَفى التَّسويَةَ بين أهلِهِ وبينَ غيرهم، كما نَفى التَّسويَةَ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّار، فقال تعالى : ﴿ **قُل هَل يَستَوي الَّذينَ يَعلَمونَ والَّذينَ لا يَعلَمون** ﴾ [الزمر : ٩]، كما قال تعالى : ﴿ **لا يَستَوي أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجنَّة** ﴾ [الحشر : ٢٠]، وهذا يدُلُّ على غايَةِ فضلِهِم وشَرَفهم .

○ **الوجهُ الثالث : [الجاهل بمنزلة الأعمى] :**

أنَّهُ سبحانهُ جعلَ أهلَ الجهلِ بمنزلةِ العُميان الذين لا يُبصِرون ، فقال

تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ الحقُّ كَمَن هو أعمى ﴾ [الرعد : ١٩]، فما ثَمَّ إلّا عالمٌ أو أعمى، وقد وصفَ سبحانهُ أهلَ الجهلِ بأنَّهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ في غيرِ موضعٍ من كتابهِ .

○ الوجه الرابع : [ظهور الحقّ لأَهلِ العلم] :

أنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ عن أُولي العلم بأنَّهُم يَرونَ ما أُنزِلَ إليه من ربِّهِ حقًّا، وجَعلَ هذا ثناءً عليهم واستشهادًا بهم ، فقال تعالى : ﴿ وَيَرى الَّذينَ أُوتوا العلمَ الذي أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ هو الحقُّ ﴾ [سبأ : ٦] .

○ الوجهُ الخامس : [أهل الذكر هم أَهل العلم]

أنَّهُ سبحانهُ أمَرَ بسؤالهم والرُّجوعِ إلى أقوالهم، وجعَلَ ذلكَ كالشهادَةِ منهم، فقال : ﴿ وما أرسَلْنا قَبلَكَ إلّا رجالًا نُوحي إليهم فاسْأَلوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُم لا تَعلَمون ﴾ [النحل : ٤٣]، وأهلُ الذِّكرِ هم أهلُ العلمِ بما أُنزِلَ على الأنبياءِ .

○ الوجهُ السادس : [الشهادةُ لهم والاستشهاد بهم] :

أنَّهُ سبحانهُ شهِدَ لأهلِ العلم شهادَةً في ضمنها الاستشهادُ بهم على صحَّةِ ما أنزَلَ اللّهُ على رسولهِ، فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيرَ اللهِ أبتَغي حَكَمًا وهو الَّذي أنزَلَ إليكُم الكتابَ مُفَصَّلًا والَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعلَمونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن ربِّكَ بالحقِّ فلا تكونَنَّ مِن المُمتَرين ﴾[الأنعام : ١١٤] .

○ الوجهُ السابع : [إيمانُ أَهل العلم] :

أنَّهُ سبحانهُ سلَّى نبيَّهُ بإيمانِ أهلِ العلمِ به، وأمرَهُ أنْ لا يَعبأَ بالجاهلين شيئًا، فقال تعالى : ﴿ وقُرآنًا فَرَقْناهُ لتَقرَأَهُ على النَّاسِ عَلى مُكْثٍ ونَزَّلناهُ تنزيلًا قُلْ

آمِنوا به أوْ لا تُؤمِنوا إنَّ الَّذينَ أُوتوا العلمَ مِن قَبلِهِ إذا يُتلى عَليهم يَخِرُّونَ إلى الأذقانِ سُجَّدًا ويَقولونَ سُبحانَ ربِّنا إنْ كانَ وَعدُ ربِّنا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦ - ١٠٨]، وهذا شرَفٌ عظيمٌ لأهلِ العلمِ، وتحتَهُ أنَّ أهلَهُ العالِمونَ قَد عَرفوهُ، وآمَنوا به، وصدَّقوا، فسَواءٌ آمَنَ به غيرُهُم أو لا !

○ الوجهُ الثامن : [الكتابُ آيات بيِّنات في صدور أَهل العلم] :

أنَّهُ سبحانهُ مَدَحَ أهلَ العلمِ، وأثنى عليهم، وشرَّفهُم بأنْ جعلَ كتابَهُ آياتٍ بيِّناتٍ في صُدورهم، وهذه خاصَّةٌ ومَنْقَبَةٌ لهم دونَ غيرِهِم، فقال تعالى : ﴿ وكذلكَ أنزَلْنا إليكَ الكتابَ فالَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يُؤمنونَ بِهِ ومِن هؤلاء مَن يؤمنُ بهِ وما يَجحَدُ بآياتِنا إلَّا الكَافِرون وما كنتَ تَتلو مِن قَبلِهِ مِن كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينِكَ إذًا لارتابَ المُبطِلون بَل هو آياتٌ بيِّناتٌ في صُدورِ الَّذينَ أُوتوا العلمَ وما يجحَدُ بآياتِنا إلَّا الظَّالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٧ - ٤٩]، وسواءٌ كان المعنى أنَّ القرآنَ مُستقرٌّ في صُدورِ الذين أُوتوا العلمَ، ثابتٌ فيها، محفوظٌ، وهو في نفسِهِ آياتٌ بيِّناتٌ، فيكونُ قد أخبرَ عنه بخَبَرَين :

أحدهما : أنَّهُ آياتٌ بيِّناتٌ .

الثَّاني : أنَّهُ محفوظٌ، مُستقِرٌّ ، ثابتٌ في صُدورِ الذين أُوتوا العلمَ .

أو كان المعنى: أنَّهُ آياتٌ بيِّناتٌ في صُدورِهِم، أي : كَونُهُ آياتٍ بيِّناتٍ معلومٌ لهم ، ثابتٌ في صُدورهم، والقولانِ مُتلازمان، ليسا بمختلِفين .

وعلى التَّقديرين: فهو مدحٌ لهم، وثناءٌ عليهم في ضِمنه الاستشهادُ بهم، فتأمَّلْهُ .

○ الوجهُ التاسع : [طَلَبُ المزيد من العلم] :

أنَّهُ سبحانهُ أمَرَ نبيَّهُ أن يسألَهُ مَزيدَ العلمِ، فقال تعالى: ﴿ فتَعالى الله المَلِكُ الحقُّ ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ من قَبلِ أن يُقضى إليك وَحيُهُ وقُل رَبِّ زِدني عِلمًا ﴾ [طه : ١١٤]، وكفى بهذا شَرَفًا للعلمِ أنْ أمَرَ نبيَّهُ أن يسألَهُ المزيدَ منه .

○ الوجهُ العاشر : [رِفعة درجات أَهل العلم] :

أنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ عن رِفعَةِ دَرَجاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ خاصَّةً، فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا قيلَ لكُم تَفَسَّحوا في المجالسِ فافْسَحُوا يَفسَحِ الله لكُم وإذا قيلَ انشُزوا فانشُزوا يَرفَعِ الله الَّذينَ آمَنوا منكُم والَّذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ والله بما تعمَلونَ خَبيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وقد أخبَرَ سبحانهُ في كتابهِ برَفعِ الدَّرجاتِ في أربعَةِ مواضع :

أحدها : هذا .

والثَّاني : قولُه : ﴿ إنَّما المُؤمِنونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ الله وَجِلَت قلوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زادَتْهُم إيمانًا وعلى ربِّهم يتوكَّلون الَّذين يُقيمون الصَّلاةَ وممَّا رَزَقْناهُم يُنفِقون أُولئكَ هم المؤمِنون حقًّا لهم دَرَجاتٌ عندَ ربِّهم ومَغفِرَةٌ ورِزقٌ كريمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

والثَّالث : قولُه تعالى : ﴿ ومَنْ يأْتِهِ مُؤمِنًا قَد عَمِلَ الصَّالحاتِ فأُولئكَ لهم الدَّرجاتُ العُلى ﴾ [طه : ٧٥] .

والرَّابع : قولُه تعالى : ﴿ وفضَّلَ الله المُجاهدينَ على القاعدينَ أجرًا عَظيمًا دَرَجاتٍ منهُ ومغفِرَةً ورَحمةً ﴾ [النساء : ٩٥ - ٩٦] .

فهذه أربعةُ مواضعَ، في ثلاثةٍ منها الرِّفعةُ بالدَّرجاتِ لأهلِ الإيمان، الذي هو العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ، والرَّابعُ الرِّفعَةُ بالجهادِ، فعادَت رِفعَةُ الدَّرجاتِ كلّها إلى العلمِ والجهادِ اللَّذينِ بهما قِوامُ الدِّين[1] .

○ الوجهُ الحادي عشر : [الاستشهاد بأقوال أهل العلم يوم القيامة] :

أنَّهُ سبحانهُ استشهَدَ بأهلِ العلمِ والإيمانِ يومَ القيامَةِ على بُطلانِ قولِ الكُفَّار، فقال تعالى : ﴿ وَيَومَ تَقومُ السَّاعةُ يُقسِمُ المُجرِمونَ ما لَبِثوا غَيرَ ساعَةٍ كذلكَ كانوا يُؤفَكون وقالَ الَّذينَ أُوتوا العلمَ والإيمانَ لقَد لَبِثتُم في كتابِ اللهِ إلى يومِ البَعثِ فهذا يومُ البَعثِ ولكنَّكُم كنتُم لا تَعلمون ﴾ [الروم : ٥٥ - ٥٦] .

○ الوجهُ الثاني عشر : [أهل العلم هم أهل الخشية] :

أنَّهُ سبحانهُ أخبرَ أنَّهُم أهلُ خَشيتِهِ، بل خَصَّهُم مِن بينِ النَّاسِ بذلك، فقال تعالى : ﴿ إنَّما يَخشى اللهَ من عبادِهِ العُلماءُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ غَفورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨]، وهذا حَصْرٌ لخشيتِهِ في أُولي العلم .

وقال تعالى : ﴿ جَزاؤُهُم عندَ ربِّهم جنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبَدًا رضيَ اللهُ عنهُم ورَضُوا عنهُ ذلكَ لِمَن خَشِيَ ربَّهُ ﴾ [البيِّنة : ٨] .

وقد أخبرَ أنَّ أهلَ خَشيتِهِ هم العُلماءُ، فَدلَّ على أنَّ هذا الجزاءَ المذكورَ للعلماءِ بمجموعِ النَّصَّين .

---

(١) والعِلْمُ هو الأَصلُ ، فتأمَّلْ .

وقال ابنُ مَسعودٍ رضيَ اللَّهُ عنه : « كفى بخشيةِ اللَّهِ علماً، وكفى بالاغترارِ باللَّهِ جهلًا »[1].

○ الوجهُ الثالث عشر : [أَهل العلم هم المنتفعون بضرب اللَّهِ الأَمثالَ] :

أَنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ عن أمثالِهِ التي يَضربُها لعبادِهِ ؛ يدلُّهم على صحَّةِ ما أخبَرَ به : أنَّ أهلَ العلمِ هم المُنتفِعون بها المُختَصُّونَ بعلمها، فقال تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ وما يَعقِلُها إلَّا العالِمون ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وفي القرآن بضعَةٌ وأربَعونَ مثلًا .[2]

وكان بَعضُ السَّلَفِ[3] إذا مرَّ بمَثَلٍ لا يَفهمُهُ ، يَبكي ويقول: لستُ من العالِمين .

○ الوجهُ الرابع عشر : [رفعة الدرجة بعلم الحُجَّة] :

أَنَّهُ سبحانهُ ذَكرَ مُناظرةَ إبراهيمَ لأبيهِ وقومِهِ، وغَلَبَتَهُ لهم بالحُجَّةِ ، وأخبَرَ عن تَفضيلِهِ بذلك ، ورَفعِهِ دَرَجَتَهُ بعلمِ الحُجَّةِ ، فقال تعالى عَقِيبَ مُناظرَتهِ لأبيهِ

(١) رواه ابنُ المبارك في « الزهد » (ص ١٥) ، وأحمد في « الزهد » (ص ١٥٨)، والطبراني في « الكبير » (٩ / ٢١١) .

وقد روى الدارميّ (١ / ١٠٦)، وأبو نُعيم في « الحلية » (٢ / ٩٥) هذه الكلمةَ عن مسروقٍ .

(٢) وقد جمعها المصنّفُ رحمه اللّه في كتابه الماتع « إعلام الموقّعين » (١ / ١٦٣ - ٢١١) .

(٣) هو عَمرو بن مُرّة ، فيما رواه ابنُ أبي حاتمٍ ، كما في « تفسير ابن كثير » (٣ / ٦٦٠) .

وقومِهِ في سورة الأنعامِ : ﴿ وتلكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نَرفَعُ دَرجاتٍ مَن نشاءُ إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ ﴾ [آية : ٨٣] .

قال زَيدُ بن أسلمَ رضيَ اللَّهُ عنه: نَرفَعُ دَرجاتٍ مَن نشاءٍ بعلمِ الحُجَّة(١).

○ **الوجهُ الخامس عشر : [علم العباد بربِّهم سبحانه] :**

أنَّهُ سبحانهُ أخبرَ أنَّهُ خَلَقَ الخَلْقَ، ووضَعَ بيتَهُ الحرامَ، والشهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقلائدَ، ليَعلَمَ عبادُهُ أنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليم، وعلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فقال تعالى : ﴿ الله الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَمواتٍ ومِنَ الأرضِ مثلَهُنَّ يَتَنزَّلُ الأمرُ بينَهُنَّ لتَعلَموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ الله قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلماً ﴾ [الطلاق : ١٢]، فدلَّ على أنَّ عِلمَ العباد بربِّهم وصفاتِهِ وعبادتِهِ وحدَهُ هو الغايَةُ المَطلوبَةُ من الخَلْقِ والأمرِ .

○ **الوجهُ السادس عشر : [فَرَحُ أهل العلم] :**

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أمَرَ أهلَ العلمِ بالفَرَحِ بما آتاهُم، وأخبرَ أنَّهُ خبيرٌ بما يَجمعُ النَّاسَ، فقال تعالى : ﴿ قُل بِفَضلِ اللهِ وبرحمَتِهِ فبذلكَ فَلْيَفرَحوا هو خَيرٌ ممَّا يَجمَعون ﴾ [يونس : ٥٨]، وفُسِّرَ فضلُ اللَّهِ بالإيمانِ، ورحمتُهُ بالقرآنِ، والإيمانُ والقرآنُ هما **العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ**، وهما الهُدى ودينُ الحقِّ، وهما أفضلُ علمٍ وأفضلُ عملٍ .

○ **الوجهُ السابع عشر : [الحكمة هي العلم] :**

أنَّهُ سبحانهُ شهِدَ لمَن آتاهُ العلمَ بأنَّهُ قَد آتاهُ خَيرًا كثيرًا، فقال تعالى : ﴿ يُؤتي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أُوتيَ خَيرًا كثيرًا ﴾ [البقرة :

(١) رواه أبو الشَّيخ ، كما في « الدُّر المنثور » (٣ / ٣١٠ - ط ٢) .

٢٦٩]، قال ابنُ قُتَيبَة والجمهورُ : الحِكمَةُ إصابَةُ الحقِّ[1] والعملُ به، وهيَ العلمُ النّافعُ والعَملُ الصَّالحُ .

○ **الوجهُ الثامن عشر : [العلم مِن أَجلِّ النِّعَم] :**

أنَّهُ سبحانهُ عَدَّدَ نِعَمَهُ وفَضْلَهُ على رسولِهِ، وجَعَلَ مِن أَجَلِّها أنْ آتاهُ الكتابَ والحِكمَةَ، وعلَّمهُ ما لم يكُن يَعلَم، فقال تعالى : ﴿ وأنزلَ الله عليكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تكُن تَعلَمْ وكانَ فَضلُ اللهِ عَلَيكَ عَظيما ﴾ [النساء : ١١٣] .

○ **الوجهُ التاسع عشر : [نعمة العلم واجبة الشكر] :**

أنَّهُ سبحانهُ ذكَّرَ عبادَهُ المؤمنينَ بهذه النِّعمَةِ، وأمَرَهُم بشُكرِها، وأن يذكروهُ على إسْدائها إليهم، فقال تعالى : ﴿ كما أَرسَلْنا فيكُم رَسولًا مِنكُم يَتلو عَلَيكُم آياتِنا ويُزَكِّيكُم ويُعلِّمُكُم الكتابَ والحِكمَةَ ويُعلِّمُكُم ما لَم تَكونوا تَعلمون فاذكُروني أذكُرْكُم واشكُروا لي ولا تَكفُرون ﴾ [البقرَة : ١٥١ - ١٥٢] .

○ **الوجهُ العشرون : [العلم مِنَّةٌ من الله] :**

أنَّهُ سبحانهُ لمَّا أخبرَ ملائكتَهُ بأنَّهُ يُريدُ أن يجعَلَ في الأرضِ خَليفَةً، قالوا لهُ : ﴿ أتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ ونَحنُ نُسبِّحُ بحَمدِكَ ونقدِّسُ لكَ قال إنِّي أعلمُ ما لا تَعلَمون وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم عَلى الملائكَةِ فقال أَنبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ إنْ كُنتُم صادِقين قالوا سُبحانَكَ لا علمَ لنا إلّا ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحَكيمُ ﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٢] ...

---

(١) وهي وَضْعُ الشيء في موضعِه ، ولا يكونُ هذا إلَّا بالعلمِ .

إلى آخر قصَّةِ آدمَ، وأمرَ الملائكَةَ بالسُّجودِ لهُ، فأبى إبليسُ، فلَعَنهُ وأخرجَهُ من السَّماء .

وبيانُ فَضلِ العلمِ من هذه القصَّةِ من وجوهٍ :

أحدها : أنَّهُ سبحانهُ ردَّ على الملائكَةِ لمّا سألوا: كيفَ يجعَلُ في الأرضِ مَن هم أطوَعُ له منه ؟ فقال : ﴿ إنِّي أعلمُ ما لا تعلَمون ﴾ ، فأجابَ سؤالَهم بأنَّهُ يعلمُ مِن بواطنِ الأُمور وحقائِقها ما لا يعلمونهُ، وهو العليمُ الحكيمُ، فظَهَرَ مِن هذا الخليفَةِ مِن خيارِ خَلقِهِ، ورُسلِهِ، وأنبيائِهِ، وصالحي عبادِهِ، والشهداء، والصِّدِّيقين، والعُلماءِ، وطَبقاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ مَن هو خَيرٌ من الملائكَةِ، وظَهَرَ مَن إبليسَ مَنْ هو شرُّ العالَمين، فأخرجَ سبحانهُ هذا وهذا، والملائكَةُ لم يكُن لها علمٌ لا بهذا، ولا بهذا، ولا بما في خَلْقِ آدمَ وإسكانِهِ الأرضَ من الحِكَمِ الباهرَةِ .

الثَّاني : أنَّهُ سبحانهُ لمَّا أرادَ إظهارَ تَفضيلِ آدمَ وتَمييزِه وفَضلِه ميَّزَهُ عليهم بالعلمِ، فعلَّمَهُ الأسماءَ كلَّها، ثمَّ عَرَضَهُم على الملائكَةِ ، فقال : ﴿ أنبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ إن كُنتُم صادقِين ﴾ [البقرة : ٣١]، جاءَ في التَّفسير(١) أنَّهُم قالوا : لَن يخلُقَ ربُّنا خَلقًا هو أكرَمُ عليهِ منَّا، فَظنُّوا أنَّهُم خيرٌ وأفضلُ من الخليفَةِ الذي يجعلُهُ اللَّهُ في الأرضِ، فلمَّا امتَحنَهُم بعلمِ ما علَّمهُ لهذا الخليفَةِ أقرُّوا بالعجزِ، وجَهْلِ ما لم يَعلَموهُ، فقالوا : ﴿ سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا إلّا ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢]، فحينئذٍ أظهَرَ لهُم فَضلَ آدَمَ بما خصَّهُ

---

(١) انظر « زاد المَسير » (١ / ٦٣) ، « تفسير ابن كثير » (١ / ١٣٣) ، و « تفسير الطَّبري » (١ / ٤٨٨) .

بهِ من العلمِ ، فقال : ﴿ يا آدمُ أَنْبِئْهُم بأسمائِهِم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم ﴾ [البقرة : ٣٣] ، أقرُّوا له بالفَضلِ .

الثَّالث : أنَّهُ سبحانهُ لمّا أنْ عرَّفهُم فَضلَ آدمَ بالعلمِ، وعَجْزَهم عن معرفَةِ ما علَّمَهُ، قال لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَكُم إنِّي أعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ وأعلمُ ما تُبدونَ وما كنتُم تَكتُمون ﴾ [البقرة : ٣٣]، فعرَّفهم سبحانهُ بالعلمِ، وأنَّهُ أحاطَ عِلماً بظاهِرهم وباطنِهم، وبغيبِ السَّمواتِ والأرضِ ،فتعرَّفَ إليهم بصفَة العلمِ، وعرَّفهُم فضلَ نبيِّه وكليمهِ بالعلمِ، وعَجزَهم عمَّا آتاهُ آدمَ من العلمِ ، وكفى بهذا شرفًا للعلم .

الرَّابع : أنَّهُ سبحانهُ جَعَلَ في آدمَ مِن صِفاتِ الكمالِ ما كانَ به أفضلَ من غَيرِهِ من المخلوقاتِ، وأرادَ سبحانهُ أن يُظهِرَ لملائكتِهِ فضلَهُ وشَرفَهُ، فأظهَرَ لهم أحسَنَ ما فيهِ وهو عِلمُهُ، فدلَّ على أنَّ العلمَ أشرَفُ ما في الإنسانِ، وأنَّ فَضلَهُ وشَرفَهُ إنَّما هو بالعلمِ .

ونَظيرُ ذلكَ ما فَعَلهُ بِنَبيِّهِ يوسُفَ عليه السَّلام لمَّا أرادَ إظهارَ فضلِهِ وشَرفِهِ على أهلِ زمانهِ كلِّهم ، أظهَرَ للمَلِكِ وأهلِ مصرَ مِن علمهِ بتأويلِ رُؤياهُ ما عَجَزَ عنه عُلماءُ التَّعبيرِ[1]، فحينئذٍ قدَّمَهُ ، ومكَّنَهُ ، وسلَّمَ إليهِ خَزائنَ الأرضِ ، وكانَ قبلَ ذلكَ قَد حَبَسَهُ على ما رآهُ من حُسنِ وَجهِهِ، وجمالِ صورَتِهِ، ولمَّا ظَهَرَ له حسنُ صُورَةِ علمهِ، وجمالُ معرفتِهِ ، أطلَقَهُ من الحَبسِ ،ومكَّنهُ في الأرضِ، فدلَّ على أنَّ صورَةَ العلمِ عندَ بني آدمَ أبهى وأحسنُ من الصُّورَةِ

(١) أي : تفسيرُ الرؤى والأَحلام .

الحِسيَّةِ، ولو كانت أجملَ صورَةٍ .

وهذا وجهٌ مُستقلٌ في تفضيلِ العلمِ، مُضافٌ إلى ما تَقدَّمَ .

○ **الوجهُ الحادي والعشرون : [ذمّ أَهل الجهل] :**

أنَّهُ سبحانهُ ذَمَّ أهلَ الجهلِ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابهِ :

فقال تعالى : ﴿ ولكنَّ أكثَرَهُم يَجهَلون ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقال : ﴿ ولكنَّ أكثَرَهُم لا يعلمون ﴾ [الأنعام : ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ أم تَحسَبُ أنَّ أكثَرَهُم يَسمَعونَ أو يَعقِلونَ إنْ هُم إلّا كالأنعامِ بل هُم أضلُّ سَبيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤]، فلم يقتصِر سبحانهُ على تشبيهِ الجُهَّال بالأنعامِ، حتى جَعلَهُم أضلَّ سبيلًا منهم .

وقال : ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللهِ الصُّمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يعقلون ﴾ [الأنفال : ٢٢]، أخبرَ أنَّ الجُهَّالَ شرُّ الدَّوابِّ عندهُ، على اختلافِ أصنافِها من الحميرِ ، والسِّباعِ، والكلابِ، والحشراتِ، وسائرِ الدَّوابِّ، فالجُهَّالُ شرٌّ منهم، **وليسَ على دينِ الرُّسل أضرُّ من الجهَّالِ، بل هم أعداؤهم على الحقيقةِ .**

وقال تعالى لنبيِّهِ وقد أعاذَهُ : ﴿ فلا تَكونَنَّ من الجاهلين ﴾ [الأنعام : ٣٥] .

وقال كليمُهُ موسى عليه السَّلام : ﴿ أعوذُ باللهِ أن أكونَ من الجاهلين ﴾ [البقرة : ٦٧] .

وقال لأوَّلِ رُسُلهِ نوحٍ عليه السَّلام : ﴿ إنِّي أَعِظُكَ أن تكونَ منَ الجاهلينَ ﴾ [هود : ٤٦] .

فهذه حالُ الجاهلين عندَهُ، والأوَّلُ حالُ أهلِ العلمِ عندهُ .

وأخبرَ سبحانهُ عن عُقوبتِه لأعدائهِ أنَّهُ مَنعَهُم عِلمَ كتابهِ ومعرفَتَهُ وفِقهَهُ،

فقال تعالى : ﴿ وإذا قَرأْتَ القُرآنَ جَعَلْنا بَينَكَ وبينَ الَّذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرَةِ حِجابًا مَستورًا وجَعَلنا على قُلوبِهِم أَكِنَّةً أن يَفقَهوهُ وفي آذانِهِم وَقرًا ﴾ [الإسراء : ٤٥ - ٤٦] .

وأمَرَ سبحانهُ نبيَّهُ بالإعْراضِ عنهُم ، فقال : ﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ .

وأثنى على عبادهِ بالإعراضِ عنهم ومُتارَكَتِهم، كما في قولِه تعالى : ﴿ وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعرَضوا عنهُ وقالوا لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُم سلامٌ عليكم لا نَبتَغي الجاهلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذا خاطَبهُم الجاهِلونَ قالوا سلاما ﴾[الفرقان:٦٣] .

وكلُّ هذا يَدُلُّ على قُبحِ الجَهلِ عندهُ، وبُغضِهِ للجهلِ وأهلِهِ، وكذلك هو عندَ النَّاسِ ،فإنَّ كلَّ أَحدٍ يتبرَّأُ منه وإنْ كان فيه .

○ **الوجهُ الثَّاني العشرون : [العلم حياةٌ ونورٌ] :**

أنَّ العلمَ حياةٌ ونورٌ، والجهلَ موتٌ وظُلْمَة، والشرُّ كلُّهُ سَبَبُهُ عَدَمُ الحياةِ والنُّور ، والخَيرُ كلُّهُ سببُهُ النُّور والحياةُ، فإنَّ النُّورَ يكشفُ عن حقائقِ الأشياءِ، ويُبيِّنُ مراتبَها، والحياةُ هي المُصَحِّحَةُ لصفاتِ الكمالِ، والمُوجِبَةُ لتَسديدِ الأقوالِ والأعمالِ، وكُلُّ ما تصرَّفَ من الحياةِ فهو خيرٌ كلُّه، كالحياءِ؛ الذي سَبَبُهُ كمالُ حياةِ القَلبِ وتصوُّرُه حقيقةَ القُبحِ ونَفرَتُهُ منه، وضدُّهُ الوقاحَةُ والفُحشُ ؛وسببُهُ موتُ القَلبِ وعدمُ نَفرَتِهِ من القبيحِ ، وكالحَياءِ[1]، الذي هو المَطَرُ الذي به حياةُ كُلِّ شيءٍ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كانَ مَيْتًا فأَحيَيناهُ وجَعَلنا لهُ نورًا يَمشي به في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾

(١) ويُقال : « الحَيَا » مقصورًا ، كما في « القاموس المحيط » (ص ١٦٤٩) .

[الأنعام : ١٢٢]، كانَ مَيّتًا بالجهلِ قلبُهُ، فأحياهُ بالعلمِ، وجعَلَ له من الإيمانِ نورًا يمشي به في النَّاس .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقوا الله وآمنوا برسولِهِ يُؤْتِكُم كِفلَينِ مِن رَحمتهِ ويجعَلْ لكُم نُورًا تَمشونَ بِهِ ويَغفِرْ لكُم والله غَفورٌ رَحيمٌ لئلّا يعلمَ أهلُ الكتابِ ألّا يَقدِرونَ على شيءٍ مِن فَضلِ الله وأنَّ الفَضلَ بيدِ الله يُؤتيهِ مَن يشاءُ والله ذو الفَضلِ العَظيم ﴾ [الحديد : ٢٨ - ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ الله وليُّ الَّذينَ آمَنوا يُخرِجُهُم من الظُّلماتِ إلى النُّور والَّذينَ كفَروا أولياؤُهم الطَّاغوتُ يُخرِجونَهُم مِن النُّورِ إلى الظُّلماتِ أُولئكَ أصحابُ النَّارِ هم فيها خالدونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ وكذلكَ أوحَينا إليكَ رُوحًا مِن أمرِنا ما كُنتَ تَدْري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جَعَلناهُ نورًا نَهدي به مَن نَشاءُ مِن عبادِنا وإنَّكَ لتَهدي إلى صِراطٍ مُستَقيم ﴾ [الشورى : ٥٢]؛ فأخبَرَ أنَّهُ رُوحٌ تَحصُلُ به الحياةُ، ونورٌ يَحصلُ به الإضاءَةُ والإشراقُ، فجمعَ بين الأصلين الحياةِ والنُّورِ .

وقال تعالى : ﴿ قَد جاءَكُم مِنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مُبينٌ يَهدي بِهِ الله مَن اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخرِجُهُم من الظُّلماتِ إلى النُّور بإذنهِ ويَهديهم إلى صراطٍ مُستقيم ﴾ [المائدة : ١٥ - ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ فآمِنوا باللهِ ورَسولِهِ والنُّورِ الَّذي أنزَلْنا والله بما تَعمَلونَ خبيرٌ ﴾ [التغابن : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ قَد جاءَكُم بُرهانٌ مِن ربِّكُم وأنزَلنا إليكُم نورًا مُبينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ قَد أنزَلَ الله إليكُم ذِكْرًا رسولًا يتلو عليكُم آياتِ اللهِ مُبيِّناتٍ ليُخرِجَ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ من الظُّلماتِ إلى النُّور ﴾ [الطلاق : ١١] .

وقال تعالى : ﴿ الله نورُ السَّمواتِ والأرضِ مَثَلُ نُورِهِ كمِشكاةٍ فيها مِصباحٌ المِصباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كأنَّها كوكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيتونَةٍ لا شرقيَّةٍ ولا غَربيَّةٍ يكادُ زَيتُها يُضيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ نارٌ نورٌ على نورٍ يَهدي الله لِنُورهِ مَن يشاءُ ويَضرِبُ الله الأمثالَ للنَّاسِ والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ [النور : ٣٥] ؛ فضرَبَ سبحانهُ مَثلًا لنورهِ الذي قَذَفَهُ في قَلبِ المؤمنِ ، كما قالَ أُبيٌّ بن كَعبٍ رضيَ اللَّهُ عنه : « مَثَلُ نورهِ في قَلبِ عبدِهِ المؤمنِ ... »(١)، وهو نورُ القُرآن والإيمانُ الذي أعطاهُ إيَّاهُ، كما قالَ في آخرِ الآيَةِ : ﴿ نورٌ على نُورٍ ﴾ يعني نُورَ الإيمانِ على نُورِ القُرآنِ ، كما قالَ بعضُ السَّلف : « يكادُ المؤمنُ ينطقُ بالحكمَةِ وإنْ لم يَسمَع فيها بالأثرِ، فإذا سمعَ فيها بالأثَرِ كان نُورًا على نورٍ » .

وقَد جمَعَ اللَّهُ سبحانهُ بينَ ذكرِ هذين النُّورَين - وهما الكتابُ والإيمانُ - في غيرِ موضعٍ من كتابهِ ، كقولِه : ﴿ ما كُنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جَعَلْناهُ نورًا نَهدي به مَن نشاءُ من عبادِنا ﴾ [الشورى : ٥٢]، وقولِه تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرحمَتِهِ فبذلكَ فَلْيَفرَحوا هو خيرٌ ممَّا يَجمَعون ﴾ [يونس : ٥٨]، فَفضلُ اللَّهِ: الإيمانُ، ورحمتهُ : القُرآن، وقولِه تعالى : ﴿ أوَمَن كانَ مَيتًا فأحيَيْناهُ وجَعَلْنا لهُ نُورًا يَمشي بهِ في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلماتِ

(١) انظر « تفسير الطَّبري » (١٨ / ١٣٦) و « الدُّر المنثور » (٦ / ١٩٧ - ط ٢) .

ليسَ بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وقال في آيةِ النُّور : ﴿ نورٌ على نورٍ ﴾، وهو نورُ القرآنِ على نور الإيمان .

وفي حديث النوَّاس بن سمعان رضيَ اللَّهُ عنه عن النَّبي ﷺ: « إنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثلًا صراطًا مُستقيمًا، وعلى كَتِفَي الصِّراطِ سُورانِ لهما أبوابٌ مُفتَّحةٌ، وعلى الأبوابِ سُتورٌ ، وداعٍ يَدعو على الصِّراطِ ، وداعٍ يَدعو فَوقَهُ ؛ ﴿ واللهُ يَدعُو إلى دارِ السَّلامِ ويَهدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم ﴾ [يونس : ٢٥]، والأبوابُ التي على كَتِفَي الصِّراطِ حدودُ اللَّهِ فلا يَقَع أحدٌ في حُدودِ اللَّهِ ، حتى يَكشِفَ السِّترَ ، والذي يَدعو من فَوقِهِ واعظُ ربِّهِ » ، رواه التِّرمذيُّ - وهذا لفظُهُ - ، والإمامُ أحمدُ[١] ، ولفظهُ : « ... والدَّاعي على رأسِ الصِّراطِ كتابُ اللَّهِ، والذي فوقَ الصِّراط واعظُ اللَّهِ في قلبِ كُلِّ مؤمنٍ » ، فَذكرَ الأصلَين ؛ وهما داعي القرآن وداعي الإيمان .

وقال حُذَيفَةُ : « حدَّثَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ أنَّ الأمانَة نَزلت في جَذْرِ قلوبِ الرِّجال، ثمَّ نزلَ القرآنُ، فَعَلِمُوا من الإيمان، ثمَّ عَلِموا من القرآن »[٢].

وفي « الصَّحيحين »[٣] من حديثِ أبي موسى الأشعَري رضيَ اللَّهُ عنهُ عن النَّبي ﷺ : « مَثَلُ المُؤمنِ الذي يقرأُ القُرآنَ كمثلِ الأُتْرُجَّةِ، طعمُها طيِّبٌ

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٥٩) ، وأحمد (٤ / ١٨٣) ، والحاكم (١ / ٧٣) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١٨ و ١٩) ، والرامَهُرمُزي في « الأمثال » (٣) ، وأبو الشيخ في « الأمثال » (٢٨٠) من طرق عن النوّاس بن سمعان بسند صحيح .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣) .

(٣) رواه البخاري (٥٠٢٠) ، ومسلم (٧٩٧) .

وريحُها طيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمن الذي لا يَقرأُ القرآنَ كَمثلِ التَّمرَةِ، طعمُها طَيِّب ولا ريحَ لها، ومَثل المنافقِ الذي يقرأُ القرآنَ كالرَّيحانَة، ريحُها طيِّبٌ وطعمُها مُرٌّ، ومَثلُ المُنافق الذي لا يَقرأ القُرآنَ كمثلِ الحنظَلَةِ، طعمُها مرٌّ ولا ريحَ لها » .

فجعلَ النَّاسَ أربَعَةَ أقسامٍ :

الأوَّل : أهلُ الإيمان والقرآنِ، وهم خيارُ النَّاس .

الثَّاني : أهلُ الإيمانِ الذين لا يقرؤونَ القرآن، وهم دونَهُم، فهؤلاء هم السُّعَداء .

والأشقياءُ قسمان :

أحدهما : مَن أُوتيَ قرآنًا بلا إيمانٍ، فهو منافقٌ .

والثَّاني : مَن لا أُوتيَ قرآنًا ولا إيمانًا .

والمقصودُ أنَّ القرآنَ والإيمانَ هما نورٌ يجعلُهُ اللَّهُ في قلبِ مَن يشاءُ مِن عبادِهِ، وأنَّهما أصلُ كُلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخِرَة، وعِلمُهُما أَجَلُّ العُلومِ وأفضلُها، بل لا عِلمَ في الحقيقةِ ينفعُ صاحبَهُ إلّا علمُهُما : ﴿ والله يَهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

○ **الوجهُ الثَّالث والعشرون : [الكلب المعلَّم أفضلُ من الجاهل !] :**

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعلَ صَيدَ الكلبِ الجاهلِ مَيتةً يَحرُمُ أكلُها، وأباحَ صَيدَ الكلبِ المُعلَّم[1]، وهذا أيضًا من شرَفِ العلمِ : أنَّهُ لا يُباحُ إلّا صَيدُ الكلبِ العالمِ، وأمَّا الكلبُ الجاهلُ فلا يَحِلُّ أكلُ صَيدِهِ، فدلَّ على شرَفِ العلمِ

(١) كما في « صحيح البخاري » (١٧٥) ، ومسلم (١٩٢٩) عن عديِّ بن حاتم .

وفضلِهِ، قال تعالى : ﴿ يَسألونَكَ ماذا أُحِلَّ لهم قُل أُحِلَّ لكُمُ الطيِّباتُ وما عَلَّمتُم من الجوارحِ مُكَلِّبين تُعَلِّمونَهنَّ ممَّا عَلَّمكُم الله فكُلُوا ممَّا أَمْسَكْنَ عليكُم واذْكُروا اسمَ اللهِ عليه واتَّقُوا الله إنَّ الله سريعُ الحِسابِ ﴾ [المائدة : ٤]، ولولا مَزيَّةُ العلمِ والتَّعليمِ وشَرَفُهما كان صَيدُ الكلبِ المعلَّمِ والجاهلِ سواءً .

○ **الوجهُ الرَّابعُ والعشرون : [سَفَرُ نبيٍّ طلبًا للعلم] :**

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبَرَنا عن صفيِّهِ وكليمهِ - الذي كَتَبَ له التَّوراةَ بيدِهِ[1]، وكلَّمهُ منه إليه - أنَّهُ رحلَ إلى رجلٍ عالمٍ يتعلَّمُ منه، ويزدادُ علمًا إلى علمهِ، فقال : ﴿ وإذْ قالَ موسى لفتاهُ لا أبرَحُ حتى أبْلُغَ مجمعَ البَحرين أو أمضيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠]، حِرصًا منه على لقاء هذا العالِم، وعلى التعلُّم منه، فلمَّا لَقيَهُ سلكَ معه مَسلَكَ المُتعلِّم مع مُعلِّمهِ ، وقال له : ﴿ هَل أتَّبِعُكَ على أن تُعلِّمَنِ ممَّا عُلِّمتَ رُشدًا ﴾[الكهف : ٦٦]، فبدأهُ بعدَ السَّلام بالاستئذانِ على مُتابعتِه ، وأنَّه لا يَتَّبِعُهُ إلّا بإذنـهِ ، وقال : ﴿ على أنْ تُعلِّمَنِ ممَّا عُلِّمتَ رُشدًا ﴾ فلم يَجِئْ مُمْتَحِنًا ولا مُتَعنِّتًا ، وإنَّما جاءَ مُتعلِّمًا مُستزيدًا علمًا إلى علمهِ ، وكفى بهذا فَضلًا وشَرفًا للعلم ، فإنَّ نبيَّ اللَّهِ وكليمَهُ سافرَ ورَحلَ حتى لقيَ النَّصَب من سَفرِهِ في تعلُّمِ ثلاثِ مسائلَ من رجلٍ عالمٍ، ولمّا سمعَ به لم يَقَرَّ له قرارٌ حتى لقيَهُ، وطلَبَ منـه مُتابعَتَهُ وتَعليمَهُ .

وفي قصَّتِهما عِبَرٌ وآياتٌ وحِكَمٌ ليسَ هذا موضعَ ذِكرِها .

---

(١) انظر تعليقي على « المِفتاح » (١ / ٢٣٦) ، و « صفة الجنّة » (١ / ٤٩) لأبي نُعَيم ، والتعليق عليه .

○ الوجهُ الخامسُ والعشرون : [فضل التَّفقُّه في الدين] :

قولُه تعالى : ﴿ وما كانَ المؤمنون ليَنفِروا كافَّةً فلولا نَفَرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليَتفَقَّهوا في الدِّين وليُنذِروا قَومَهُم إذا رَجَعوا إليهم لعلَّهُم يَحذَرون ﴾ [التَّوبَة : ١٢٢]، نَدَبَ تعالى المؤمنين إلى التَّفقُّهِ في الدِّين؛ وهو تعلُّمُهُ، وإنذارِ قومهم إذا رَجعوا إليهم؛ وهو التَّعليمُ .

وقَد اختُلِف في الآيَةِ، فقيلَ : المعنى : أنَّ المؤمنينَ لم يكونوا ليَنفِروا كلُّهُم للتَّفقُّه والتَّعلُّم، بل يَنبغي أن يَنفِروا من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ، تتفقَّه تلك الطَّائفةُ ثمَّ ترجع تُعلِّم القاعدينَ، فيكونُ النَّفيرُ على هذا نَفيرَ تعلُّم، والطَّائفةُ تقالُ على الواحدِ فما زادَ .

قالوا : فهو دليلٌ على قَبولِ خَبَرِ الواحدِ[١]، وعلى هذا حَمَلَها الشافعيُّ وجماعةٌ .

وقالت طائفةٌ أُخرى : المعنى : وما كان المُؤمنون لينْفِروا إلى الجهاد كلُّهم، بل يَنبغي أن تَنفِرَ طائفَةٌ للجهاد، وفرقةٌ تقعُدُ تتفقَّهُ في الدِّين، فإذا جاءَت الطَّائفَةُ التي نَفَرَتْ فقَّهَتْها القاعِدَةُ وعلَّمَتْها ما أُنزِلَ من الدِّينِ والحلالِ والحرامِ .

وعلى هذا فيكونُ قولهُ : ﴿ ليَتَفقَّهوا ﴾ و ﴿ ليُنذِروا ﴾ للفِرقَةِ التي نَفَرَت منها طائفةٌ، وهذا قولُ الأكثرين .

وعلى هذا فالنَّفيرُ نفيرُ جهادٍ على أصلِهِ[٢] فإنَّهُ حيثُ استُعملَ إنَّما يُفْهَمُ

---

(١) وأمّا ما يُشَنْشِنُ به بعضُ العقلانيِّين (الجهلة) مِن ردِّ خبَر الواحد ! فهو كلامٌ يُخالفُ العقلَ الصَّريحَ والنَّقلَ الصحيحَ ، فلا أُطيلُ .

(٢) فالعلمُ جهادٌ وأيُّ جهادٍ .

منه الجهادُ ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ انْفِروا خِفافًا وثِقالًا وجاهِدوا بأموالِكُم وأنفُسِكُم ﴾ [التوبَة : ٤١]، وقال النَّبيُّ ﷺ : « لا هِجرَة بعدَ الفتحِ، ولكنْ جهادٌ ونيَّة، وإذا استُنفِرتُم فانفِروا »(١)، هذا هو المَعروفُ من هذه اللَّفظَةِ .

وعلى القولين فهو تَرغيبٌ في التَّفقُّه في الدِّين، وتعلُّمِه، وتعليمِه؛ فإنَّ ذلكَ يعدِلُ الجهادَ ، بل رُبَّما يكونُ أفضَلَ منهُ، كما سيأتي تقريرهُ في الوجه الثَّامن والمئة إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

○ **الوجهُ السَّادسُ والعشرون : [صلاح القوّتين العِلميَّة والعَمليَّة] :**

قولُه تعالى : ﴿ والعَصرِ إنَّ الإنسانَ لفي خُسرٍ إلَّا الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وتَواصَوْا بالحَقِّ وتَواصَوْا بالصَّبر ﴾، قال الشافعي رضي اللَّهُ عنه: لو فكَّرَ النَّاسُ كلُّهم في هذه السُّورَةِ لكفَتهُم .

وبيانُ ذلك أنَّ المراتب أربعٌ، وباستكمالِها يحصُلُ للشخصِ غايةُ كمالِهِ :

إحداها : معرفةُ الحقِّ .

الثَّانية : عملُهُ به .

الثَّالثة : تعليمُهُ مَن لا يُحسِنُهُ .

الرَّابعَة : صَبرُهُ على تعلُّمِهِ، والعَملِ به، وتَعليمِهِ .

فَذَكَرَ تعالى المراتبَ الأربعَ في هذه السُّورَة، وأقسَمَ سُبحانهُ في هذه السُّورَةِ بالعَصرِ أنَّ كُلَّ أحدٍ في خُسرٍ، **إلَّا الَّذينَ آمَنوا** وعَملوا الصَّالحاتِ، وهم الذينَ عَرفوا الحقَّ، وصدَّقوا به .

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٧) ، ومسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس .

فهذه مرتبةٌ .

وعملوا الصَّالحات، وهم الذين عَمِلوا بما عَلِمُوه من الحقِّ .

فهذه مرتبةٌ أُخرى .

وتَواصَوْا بالحقِّ؛ وصَّى به بعضُهُم بعضًا؛ تعليمًا وإرشادًا .

فهذه مرتبةٌ ثالثةٌ .

وتَواصَوْا بالصَّبرِ؛ صَبَروا على الحقِّ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بالصَّبرِ عليه، والثَّباتِ .

فهذه مرتبةٌ رابعةٌ .

وهذا نهايَةُ الكمالِ؛ فإنَّ الكمالَ أنْ يكونَ الشخصُ كاملًا في نفسه، مُكمِّلًا لغيرِهِ، وكمالُه بإصلاحِ قُوَّتيهِ العِلميَّةِ والعَمليَّةِ، فصلاحُ القُوَّةِ العلميَّةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القوَّةِ العَمليَّة بعملِ الصَّالحاتِ، وتكميلهِ غَيرَهُ، وتعليمهِ إيَّاهُ، وصبرِهِ عليهِ، وتوصيتهِ بالصَّبرِ على العلمِ والعملِ .

فهذه السُّورَةُ على اختصارها هي من أجمعِ سُوَرِ القرآن للخيرِ بحذافيرِهِ، والحمدُ للَّهِ الذي جَعلَ كتابَهُ كافيًا عن كلِّ ما سواهُ، شافيًا من كلِّ داءٍ، هاديًا إلى كلِّ خيرٍ .

○ **الوجهُ السَّابعُ والعشرون : [العِلمُ بعدَ الجهلِ : مِنَّــةٌ] :**

أنَّهُ سبحانهُ ذكرَ فَضلَهُ ومِنَّتَهُ على أنبيائهِ، ورسلِهِ، وأوليائهِ، وعبادِهِ، بما آتاهُم من العلمِ؛ فَذَكَرَ نِعمتَهُ على خاتَمِ أنبيائهِ ورسلهِ بقوله: ﴿ **وأنزَلَ اللهُ عَلَيكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تَكُن تَعلَمُ وكانَ فَضلُ اللهِ عَلَيكَ عظيمًا** ﴾ [النساء : ١١٣]، وقَد تقدَّمتْ هذه الآيَةُ .

وقال في يوسُف: ﴿ ولـمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ آتيناهُ حُكمًا وعِلمًا وكذلكَ نَجزي المُحسِنين ﴾ [يوسف : ٢٢] .

وقال في كليمهِ موسى: ﴿ ولـمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ واستَوى آتيناهُ حُكمًا وعِلمًا وكذلكَ نَجزي المُحسنين ﴾ [القَصَص : ١٤] .

ولـمَّا كانَ الذي آتاهُ موسى مِن ذلك أمرًا عظيمًا؛ خصَّهُ به على غيرِهِ، - ولا يَثبُت له إلّا الأقوياءُ أُولو العَزمِ - هيَّأهُ له بعدَ أن بَلَغَ أشدَّهُ واستوى، يَعني : تمَّ وكمُلَت قوَّتهُ .

وقال في حقِّ المسيح : ﴿ يا عيسى ابنَ مريمَ اذكُرْ نِعمَتي عليكَ وعلى والدتكَ إذ أيَّدْتُكَ بِروحِ القُدُسِ تُكلِّمُ النَّاسَ في المَهدِ وكهلًا وإذ علَّمتكَ الكتابَ والحِكمَةَ والتَّوراةَ والإنجيلَ ﴾ [المائدَة : ١١٠] .

وقالَ في حقِّهِ: ﴿ ويُعَلِّمُهُ الكتابَ والحكمَةَ والتَّوراةَ والإنجيلَ ﴾ [آلِ عمران : ٤٨] ، فجعلَ تَعليمَهُ ممَّا بشَّرَ به أُمَّهُ، وأقرَّ عَينها به .

وقال في حقِّ داودَ: ﴿ وآتيناهُ الحِكمَةَ وفَصلَ الخِطابِ ﴾[ص:٢٠] .

وقال في حقِّ الخَضِرِ صاحبِ موسى وفتاه : ﴿ فَوجدا عَبدًا مِن عبادِنا آتَيناهُ رَحمةً من عندِنا وعلَّمناهُ من لَدُنَّا علمًا ﴾ [الكهف : ٦٥]؛ فَذكرَ من نِعَمِهِ عليه تَعليمَه، وما آتاهُ من رَحمةٍ .

وقال تعالى يَذكُرُ نِعمتَهُ على داودَ وسُليمانَ : ﴿ وداودَ وسُليمانَ إذ يَحكُمانِ في الحَرْثِ إذ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القَومِ وكنَّا لِحُكمِهم شاهدينَ فَفهَّمناها سُليمانَ وكُلًّا آتينا حُكمًا وعِلمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٩]، فذكرَ النَّبِيَّيْنِ الكريمَيْنِ، وأثنى عليهما بالحُكمِ والعلمِ، وخصَّ بفَهمِ القَضيَّةِ أحدَهما .

وقال تعالى : ﴿ قُل مَن أنزَلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى نُورًا وهُدًى للنَّاسِ تجعلونهُ قراطيسَ تُبدونَها وتُخفونَ كثيرًا وعُلِّمتُم ما لم تعلموا أنتُم ولا آباؤكُم قلِ الله ﴾ [الأنعام : ٩١]، يَعني : الذي أنزلَهُ، جعلَ سبحانهُ تعليمَهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلًا على صحَّةِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ؛ إذ لا يُنالُ هذا العلمُ إلّا من جهَةِ الرُّسلِ، فكيفَ يقولونَ : ما أنزَلَ اللَّهُ على بَشرٍ من شيءٍ ؟

وهذا مِن فَضلِ العلمِ وشرَفِهِ، وأنَّهُ دليلٌ على صحَّةِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ، واللَّهُ المُوفِّق للرَّشاد .

وقال تعالى : ﴿ لقَد منَّ الله على المؤمنينَ إذ بَعَثَ فيهم رَسولًا مِن أنفُسهِم يَتلو عليهم آياتهِ ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحكمَةَ وإنْ كانوا من قَبلُ لفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ هُو الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسولًا مِنهُم يَتلو عليهِم آياتِهِ ويُزكِّيهِم ويُعلِّمهُم الكتابَ والحِكمَةَ وإنْ كانوا من قَبلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ وآخَرينَ منهم لمَّا يَلْحَقُوا بِهِم وهو العَزيزُ الحكيمُ ذلك فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ من يشاءُ والله ذو الفَضلِ العظيم ﴾ [الجمعة : ٢ - ٤]، يعني : وبَعثَ في آخرينَ منهم لمَّا يَلحقوا بهم .

وقَد اختُلفَ في هذا اللَّحاقِ المَنفيِّ، فَقيلَ: هو اللَّحاقُ في الزَّمانِ، أي: يتأخَّر زمانُهُم عنهم، وقيلَ : هو اللَّحاقُ في الفَضلِ والسَّبقِ .

وعلى التَّقديرَين : فامتنَّ عليهم سبحانهُ بأنْ علَّمهُم بعدَ الجَهلِ، وهداهُم بعدَ الضَّلالَةِ، ويا لها من منَّةٍ عَظيمةٍ فاتَت المِنَنَ، وجلَّت أن يَقدِرَ العبادُ لها على ثَمنٍ !

○ الوجهُ الثَّامنُ والعشرون : [أوَّل سُوَر القرآن نزولاً تدُلُّ على فضل العلم] :

أنَّ أوَّل سورَةٍ أنزَلها اللَّهُ في كتابِهِ سورَةُ القَلَم؛ فَذَكَرَ فيها ما مَنَّ به على الإنسانِ من تعليمِهِ ما لم يَعلم، فَذكَر فيها فَضلَهُ بتَعليمِهِ، وتَفضيلَهُ الإنسانَ بما علَّمهُ إيَّاهُ، وذلكَ يدُلُّ على شرَفِ التَّعليمِ والعلمِ؛ فقال تعالى : ﴿ اقرَأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق اقرأ وربُّكَ الأكرَمُ الذي علَّمَ بالقَلَمِ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم ﴾ [العلق : ١-٥] ، فافتَتحَ السُّورَةَ بالأمرِ بالقراءَةِ النَّاشئةِ عن العلمِ، وذكَرَ خَلْقَهُ خُصوصًا وعُمومًا، فقال : ﴿ ... الَّذي خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ اقرأ وربُّكَ الأكرَمُ ﴾، وخصَّ الإنسانَ من بينِ المخلوقات؛ لِمَا أودَعهُ من عجائبِهِ وآياتِهِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّتِهِ وقُدرتِهِ، وعلمِهِ وحكمتِهِ، وكمالِ رَحمتِهِ، وأنَّهُ لا إلهَ غيرُهُ، ولا ربَّ سواهُ .

وذَكرَ هنا مبدأَ خَلقهِ مِن عَلَقٍ لكونِ العَلَقَةِ مبدأَ الأطوارِ التي انتقلتْ إليها النُّطفَةُ، فهي مبدأُ تعلُّقِ التَّخليق، ثمَّ أعادَ الأمرَ بالقراءةِ مُخْبِرًا عن نفسهِ بأنَّهُ الأكرَمُ؛ وهو الأفعلُ[1] من الكرم - وهو كثرةُ الخَيرِ - ولا أحدَ أولى بذلك منه سبحانهُ؛ فإنَّ الخَيرَ كلَّهُ بيدَيهِ، والخيرُ كلُّهُ منه، والنِّعمُ كلُّها هو مولاها، والكمالُ كلُّهُ والمجدُ كلُّه له، فهو الأكرَمُ حقًّا .

ثمَّ ذكرَ تعليمَهُ عُمومًا وخُصوصًا، فقال : ﴿ الذي علَّمَ بالقَلم ﴾، فهذا يدخُلُ فيه تعليم الملائكَةِ والنَّاسِ .

ثمَّ ذكرَ تعليمَ الإنسانِ خصوصًا ، فقال : ﴿ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم ﴾ ،

---

(١) يقصدُ المصنّفُ رحمه اللّه صيغَة (أَفْعَل) ، وهي من صيغ المبالغة .

فاشتملَتْ هذه الكلماتُ على أنَّهُ مُعطي المُوجوداتِ كلِّها بجميعِ أقسامها ، فإنَّ الوجودَ له مراتبُ أربَعٌ :

إحداها : مرتَبتُها الخارجيَّةُ، المَدلولُ عليها بقوله: ﴿ خَلَقَ ﴾ .

المرتبةُ الثَّانيةُ : الذِّهْنِيَّةُ المدلولُ عليها بقولِه : ﴿ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم ﴾ .

المرتبةُ الثَّالثةُ والرَّابعةُ : اللَّفظيَّةُ والخَطِّيَّةُ، فالخَطِّيَّةُ مُصرَّحٌ بها في قولِه : ﴿ الذي علَّمَ بالقَلَمِ ﴾، واللَّفظيَّةُ من لوازِمِ التَّعليم بالقَلَمِ، فإنَّ الكتابَةَ فرعُ النُّطقِ، والنُّطقُ فَرعُ التَّصوُّر .

فاشتملتْ هذه الكلماتُ على مراتبِ الوجودِ كلِّها ، وأنَّهُ سبحانهُ هو مُعطِيها بخلقهِ وتعليمهِ ، فهو الخالقُ المُعلِّمُ ، وكلُّ شيءٍ في الخارج فبِخَلقهِ وُجِدَ ، وكلُّ علمٍ في الذِّهن فبتعليمهِ حَصَلَ ، وكلُّ لَفظٍ في اللِّسانِ أو خَطٍّ في البنانِ فبأقدارِهِ وخَلقِهِ وتعليمهِ .

وهذا من آياتِ قُدرَتهِ ، وبراهين حكمتهِ ، لا إلهَ إلّا هو الرَّحمن الرَّحيم .

والمقصودُ أنَّهُ سبحانهُ تعرَّفَ إلى عبادهِ بما علَّمهُم إيَّاهُ بحكمتهِ من الخطِّ واللَّفظِ والمعنى، فكانَ العِلمُ أحَدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ عليه، بل مِن أعظمِها وأظهرِها ، وكفى بهذا شَرفًا وفَضلًا له .

○ **الوجهُ التَّاسعُ والعشرون : [سلطان العلم] :**

أنَّهُ سبحانهُ سمَّى الحُجَّةَ العلميَّةَ سُلطانًا، قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما : « كلُّ سُلطانٍ في القرآنِ فهو حُجَّةٌ »، وهذا كقولِه تعالى : ﴿ قالوا اتَّخَذَ الله ولَدًا سبحانهُ هو الغَنيُّ له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ إنْ عندكم

مِن سُلطانٍ بهذا أتَقولونَ على اللهِ ما لا تَعلمون ﴾ [يونس : ٦٨]، يعني : ما عندكُم مِن حُجَّةٍ بما قُلتُم ، إنْ هو إلّا قَولٌ على اللّه بلا علمٍ .

وقال تعالى : ﴿ إنْ هيَ إلّا أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتُم وآباؤكُم ما أنزَلَ اللهُ بها من سُلطانٍ ﴾ [النجم : ٢٣] ، يعني ما أنزَلَ اللّهُ بها حُجَّةً ولا بُرهانًا، بل هي مِن تِلقاءِ أنفسِكُم وآبائكُم .

وقال تعالى : ﴿ أم لكُم سُلطانٌ مُبينٌ فَأْتُوا بكتابِكُم إنْ كُنتُم صادقينَ ﴾ [الصافات : ١٥٦] ، يعني : حُجَّةٌ واضحةٌ، فَأْتُوا بها إن كُنتُم صادقينَ في دَعواكُم .

إلّا مَوضعًا واحدًا اختُلِفَ فيه ، وهو قولُه : ﴿ ما أَغنى عَنِّي مالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلطانيَه ﴾ [الحاقة : ٢٨ - ٢٩] ، فقيلَ : المُرادُ به القُدْرَةُ والمُلكُ ، أي : ذَهَبَ عنّي مالي ومُلكي ، فلا مالَ لي ولا سُلطانَ ، وقيلَ : هو على بابِهِ، أي : انقَطَعَت حُجَّتي ، وبَطَلَت ، فلا حاجَةَ لي .

والمقصودُ أنَّ اللّهَ سبحانهُ سمَّى عِلمَ الحُجَّة سُلطانًا؛ لأنَّها تُوجِبُ تسلُّطَ صاحِبها واقتدارَهُ ، فله بها سُلطانٌ على الجاهلين، **بل سُلطانُ العلمِ أعظمُ من سُلطانِ اليَدِ ، ولهذا يَنقادُ النّاسُ للحُجَّةِ ما لا يَنقادونَ لليَدِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ تنقادُ لها القلوبُ ، وأمَّا اليَدُ فإنَّما ينقادُ لها البَدَنُ ، فالحُجَّةُ تأسِرُ القَلبَ وتقودُهُ، وتُذِلُّ المُخالفَ، وإنْ أظهَرَ العنادَ والمُكابَرَة فَقَلبُهُ خاضعٌ لها، ذليلٌ مقهورٌ تحتَ سُلطانها**[1]، بل سُلطانُ الجاهِ إنْ لم يكُن معه علمٌ يُساسُ به ، فهو بمنزلَةِ سُلطانِ السِّباعِ والأُسُودِ ونحوِها ، قُدرةٌ بلا عِلمٍ ولا رَحمَةٍ ،

(١) وهذا كلامٌ علميٌّ عالٍ ؛ فَرَحِمَ اللّهُ الإمامَ ابنَ القيِّم ، ما أبلغَه وما أعلَمَه !

بخلافِ سُلطانِ الحُجَّةِ، فإنَّهُ قُدْرَةٌ بعلمٍ ورَحمَةٍ وحكمَةٍ، ومَن لم يكُن له اقتدارٌ في علمهِ ، فهو إمَّا لضَعفِ حُجَّتهِ وسلطانهِ ، وإمَّا بقَهرِ سلطانِ اليَدِ والسَّيفِ له ، وإلّا فالحُجَّةُ ناصرَةٌ نفسَها ، ظاهرَةٌ على الباطلِ قاهرةٌ له .

○ الوجهُ الثلاثون : [الجهل من صفات أَهل النار] :

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وَصَفَ أهلَ النَّارِ بالجهلِ ، وأخبرَ أنَّهُ سدَّ عليهم طُرُقَ العِلمِ ، فقال تعالى حكايَةً عنهُم : ﴿ وقالوا لَو كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعيرِ فاعترَفوا بذَنبهم فسُحقًا لأصحابِ السَّعيرِ ﴾ [الملك : ١٠ - ١١]، فأخبَروا أنَّهم كانو لا يَسمَعونَ ولا يَعقِلونَ .

والسَّمعُ والعقلُ هما أصلُ العلمِ وبهما يُنالُ، وقال تعالى : ﴿ ولَقَد ذَرَأْنا لجهنَّمَ كثيرًا من الجنِّ والإنسِ لهُم قلوبٌ لا يَفقَهونَ بها ولهُم أعيُنٌ لا يُبصِرونَ بها ولهُم آذانٌ لا يَسمَعُونَ بها أولئكَ كالأنعامِ بل هُم أَضَلُّ أولئكَ هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩]، فأخبَرَ سبحانهُ أنَّهُم لم يحصُل لهم علمٌ من جهَةٍ من جهاتِ العلمِ الثَّلاث ، وهي : العقلُ والسَّمعُ والبَصَرُ ، كما قالَ في موضعٍ آخَر : ﴿ صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يَعقِلون ﴾ [البقرة : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ أفَلَم يَسيروا في الأرضِ فتَكونَ لهُم قلوبٌ يَعقلونَ بها أو آذانٌ يَسمعونَ بها فإنَّها لا تَعمى الأبصارُ ولكنْ تَعمى القلوبُ التي في الصُّدورِ ﴾ [الحجّ : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ وجَعَلْنا لهُم سَمعًا وأبصارًا وأفئدَةً فما أغنى عنهُم سمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئدَتُهم مِن شيءٍ إذْ كانوا يَجحدونَ بآياتِ اللهِ وحاقَ بهم ما كانوا به يَستهزِءُون ﴾ [الأحقاف : ٢٦]، فقد وصفَ أهلَ الشقاءِ كما ترى بعَدَمِ العِلمِ وشبَّهَهُم بالأنعامِ تارَةً وتارَةً بالحمارِ الذي يحمِلُ

الأسفارَ ، وتارَةً جعلهم أضلَّ من الأنعامِ، وتارَةً جعلَهم شرَّ الدَّوابِّ عندهُ، وتارَةً جعلَهم أمواتًا غيرَ أحياءٍ، وتارَةً أخبرَ أنَّهُم في ظُلماتِ الجهلِ والضَّلالِ، وتارَةً أخبرَ أنَّ على قلوبهم أكنَّةً، وفي آذانهم وَقرًا، وعلى أبصارهم غشاوَةً .

وهذا كلُّهُ يدلُّ على قُبحِ الجهلِ، وذمِّ أهلِهِ وبُغضهِ لهم، كما أنَّهُ يُحِبُّ أهلَ العلمِ ويمدحُهُم ويُثني عليهم - كما تقدَّم - ، واللَّهُ المُستعان .

○ **الوجهُ الحادي والثلاثون : [الفقه في الدين من علامات الخير] :**

ما في « الصَّحيحين »[1] من حديثِ مُعاويَة رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ : « مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين » ، وهذا يدُلُّ على أنَّ من لم يُفقِّهه في دينهِ لم يُرِدْ به خَيرًا، كما أنَّ مَن أرادَ به خَيرًا فقَّهَهُ في دينهِ، ومن فقَّهَهُ في دينهِ فقَد أرادَ به خَيرًا ، إذا أُرِيدَ بالفقهِ العلمُ المستلزمُ للعَملِ .

وأمَّا إنْ أُرِيدَ به مُجرَّدُ العلمِ فلا يدُلُّ على أنَّ من فَقُهَ في الدِّينِ فقد أُريدَ به خَيرًا؛ فإنَّ الفقهَ حينئذٍ يكونُ شرطًا لإرادةِ الخَيرِ، وعلى الأوَّلِ يكونُ مُوجِبًا ، واللَّهُ أعلم .

○ **الوجهُ الثَّاني والثلاثون : [العلمُ كالغيث] :**

ما في « الصَّحيحين »[2] أيضًا من حديثِ أبي موسى رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ مَثلَ ما بعَثني اللَّهُ به من الهُدى والعلمِ، كمثلِ غَيثٍ أصابَ أرضًا، فكانَت منها طائفَةٌ طيِّبَةٌ قَبِلَت الماءَ فأنبتَت الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانَ منها أجادبُ أمسَكَت الماءَ، فنفعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فشربوا منها

---

(١) رواه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .

وسُقوا وزَرعوا، وأصابَ طائفةً منها أُخرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كلأً؛ فذلكَ مَثَلُ مِن فَقِهَ في دينِ اللَّهِ، ونفعهُ ما بعَثني اللَّهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومَثَلُ من لم يَرفَع بذلك رأسًا، ولم يقبَل هُدى اللَّهِ الذي أُرسلتُ به » :

شبَّهَ ﷺ العلمَ والهُدى الذي جاءَ به بالغَيثِ؛ لِمَا يحصُلُ بكلٍّ واحدٍ منهما مِن الحياةِ والمنافعِ والأغذيةِ والأدويةِ وسائرِ مصالحِ العبادِ، فإنَّها[1] بالعلمِ والمطرِ .

وشبَّه القُلوبَ بالأراضي التي يقعُ عليها المطرُ لأنَّها المَحَلُّ الذي يُمسِكُ الماءَ، فَيُنْبِتُ سائرَ أنواعِ النَّباتِ النَّافعِ، كما أنَّ القلوبَ تعي العلمَ فيُثمِرُ فيها ويزكو ، وتَظهرُ بركتُهُ وثمرتُهُ .

ثمَّ قسَّمَ النَّاسَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ بحسبِ قَبولهم واستعدادِهم لحفظِهِ، وفَهمِ معانيهِ، واستنباطِ أحكامهِ، واستخراجِ حِكَمهِ وفوائدِهِ:

أحدُها : أهلُ الحفظِ والفهمِ الذين حَفِظوهُ وعَقلوهُ، وفهموا معانيَه واستَنبطوا وجوهَ الأحكامِ والحِكَمِ والفوائدِ منه؛ فهؤلاء بمنزلةِ الأرضِ التي قَبِلت الماءَ - وهذا بمنزلَةِ الحفظِ - فأنبتَت الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ - وهذا هو الفَهمُ فيه والمعرفَةُ والاستنباطُ - فإنَّهُ بمنزلةِ إنباتِ الكلأِ والعُشبِ بالماء، فهذا مثلُ الحُفَّاظِ الفُقهاءِ ، وأهلِ الرِّوايَةِ والدِّرايَةِ .

القسمُ الثَّاني : أهل الحفظِ الذينَ رُزِقوا حفظَهُ ونقلَهُ وضَبطَهُ، ولم يُرزَقوا تفقُّهًا في معانيه ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوه الحِكَمِ والفوائدِ منه؛ فهم

---

(١) أي : هذه الأمور كلّها لا حياةَ لها ولا دوامَ إلّا بالعلمِ أو المَطر .
وسيأتي - بَعدُ - في كلامِ المصنّف ما يُبَيِّن ذلك .

بمنزلةِ مَن يقرأُ القرآنَ ويحفظُهُ ويُراعي حروفَه وإعرابَهُ ولم يُرزَق فيه فَهمًا خاصًّا عن اللَّه، كما قال عليٌّ بن أبي طالبٍ - رضيَ اللَّهُ عنه - : « إلّا فَهمًا يؤتيهِ اللَّهُ عَبدًا في كتابهِ »(١).

والنَّاسُ متفاوتونَ في الفَهمِ عَن اللَّهِ ورسولِهِ أعظمَ تفاوتٍ، فرُبَّ شخصٍ يفهمُ من النَّصِّ حُكمًا أو حكمَين، ويفهمُ منه الآخَرُ مئةً أو مئتَيْنِ .

فهؤلاء بمنزلةِ الأرضِ التي أمسكَت الماءَ للنَّاسِ فانتَفعوا به؛ هذا يشربُ منه، وهذا يَسقي منه، وهذا يزرعُ .

فهؤلاء القِسمانِ هم السُّعداءُ، والأوَّلون أرفعُ درجةً وأعلى قَدْرًا، ﴿ وذلك فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يشاءُ والله ذو الفَضلِ العظيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] .

القسم الثَّالث : الذين لا نَصيبَ لهم منه؛ لا حفظًا ولا فهمًا ولا روايةً ولا درايةً، بل هم بمنزلةِ الأرضِ التي هي قِيعانٌ؛ لا تُنبِتُ ولا تُمسِكُ الماءَ، وهؤلاء هم الأشقياءُ .

والقسمان الأوَّلانِ اشتركا في العلمِ والتَّعليم كلٌّ بحسبِ ما قَبِلَهُ ووَصلَ إليهِ؛ فهذا يعلِّمُ ألفاظَ القرآن ويحفظُها، وهذا يعلِّمُ معانيَه وأحكامَه وعلومَه .

والقسم الثَّالث : لا علمَ له ولا تَعليمَ ! فهُم الذينَ لم يَرفَعوا بهديِ اللَّهِ رأسًا، ولم يَقبلوهُ، وهؤلاء شرٌّ من الأنعامِ، وهم وقودُ النَّار .

فقَد اشتملَ هذا الحديثُ الشريفُ العظيمُ على التَّنبيهِ على شرفِ العلمِ والتَّعليمِ، وعِظَمِ موقعِهِ، وشقاءِ مَن لَيسَ من أهلِهِ .

وذَكرَ أقسامَ بني آدمَ بالنِّسبَةِ فيه إلى شقيِّهم وسعيدِهم، وتقسيم سعيدِهم

---

(١) رواه البخاري (١١١) .

إلى سابقٍ مُقرَّبٍ وصاحبِ يمينٍ مُقتَصِدٍ[١] .

وفيه دلالةٌ على أنَّ حاجَةَ العبادِ إلى العلمِ كحاجتهم إلى المَطر، بل أعظمُ، وأنَّهُم إذا فَقَدوا العلمَ فهم بمنزلَةِ الأرضِ التي فَقَدَت الغَيثَ .

قال الإمامُ أحمَد : النَّاسُ مُحتاجونَ إلى العلمِ أكثرَ من حاجتهم إلى الطَّعامِ والشرابِ؛ لأنَّ الطَّعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليومِ مرَّةً أو مرَّتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه بعدَد الأنفاسِ [٢] .

وقد قال تعالى : ﴿ أنزَلَ من السَّماءِ ماءً فسالَتْ أوديَةٌ بِقَدَرِها فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رابيًا ومـمَّا يُوقِدونَ عليه في النَّارِ ابتِغاءَ حِليَةٍ أو مَتاعٍ زَبَدٌ مثلُهُ كذلكَ يَضرِبُ الله الحقَّ والباطلَ ﴾ [الرعد : ١٧]؛ شبَّه سبحانهُ العلمَ الذي أنزلهُ على رسولِه بالماء الذي أنزلَهُ مِن السَّماءِ لِمَا يحصُلُ بكُلٍّ واحدٍ منهما من الحياةِ ومصالحِ العبادِ في معاشِهم ومعادِهم .

ثمَّ شبَّه القلوبَ بالأوديَةِ : فقلبٌ كبيرٌ يَسَعُ علمًا كثيرًا، كوادٍ عظيمٍ يسعُ ماءً كثيرًا ، وقلبٌ صغيرٌ إنَّما يسعُ علمًا قليلًا ، كوادٍ صَغيرٍ إنَّما يَسَعُ ماءً قليلًا؛ فقال اللَّهُ تعالى : ﴿ فسالَتْ أوديَةٌ بقَدَرِها فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رابيًا ﴾؛ هذا مَثَلٌ ضربهُ اللَّهُ تعالى للعلم حينَ تُخالِطُ القلوبَ بشاشتُهُ ؛ فإنَّهُ يَستخرجُ منها زَبَدَ الشبهاتِ الباطلةِ، فَيَطفو على وجهِ القَلبِ، كما يستخرجُ السَّيلُ من الوادي زَبدًا يعلو فوقَ الماءِ .

وأخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ رابٍ، أي: يَطفو ويعلو على الماء، لا يَستقرُّ في أرضِ الوادي ، **كذلك الشبهاتُ الباطلةُ إذا أخرجها العلـمُ رَبَتْ فوقَ القلوبِ**

---

(١) كما في الآية (٣٢) من سورة فاطِر .

(٢) انظر ما سيأتي (ص ٩١) .

وطَفَتْ، فلا تستقرُّ فيه بل تُجفى وتُرمى، ويستقرُّ في القلبِ ما ينفعُ صاحبَهُ والنَّاسَ من الـهُدى ودينِ الـحقِّ، كما يستقرُّ في الوادي الماءُ الصَّافي، ويذهبُ الزَّبدُ جَفاءً، وما يعقلُ عن اللَّهِ أمثالَهُ إلّا العالِمونَ .

ثمَّ ضربَ سبحانهُ لذلكَ مَثلًا آخرَ ، فقال : ﴿ **ومِمَّا يُوقِدونَ عليه في النَّارِ ابتغاءَ حِليَةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مثلهُ** ﴾ [الرعد : ١٧] ، **يعني أنَّ ممَّا يُوقِدُ عليه بنو** آدمَ من الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ والحديدِ يخرجُ منه خَبَثهُ وهو الزَّبدُ الذي تُلقيهِ النَّارُ وتُخرِجهُ من ذلك الجوهَر بسببِ مُخالطتها، فإنَّهُ يُقذَفُ ويُلقى به ويستقرُّ الجوهَرُ الخالصُ وحدَهُ .

وضَرَبَ سبحانهُ مَثلًا بالماءِ لِمَا فيهِ من الحياةِ والتَّبريدِ والمنفعَةِ، ومَثلًا بالنَّارِ لِما فيها من الإضاءَةِ والإشراقِ والإحراقِ، فآياتُ القرآنِ تُحيي القلوبَ كما تَحْيىٰ الأرضُ بالماءِ، وتُحرقُ خَبَثَها وشُبُهاتِـها وشهواتِها وسخائمَها كما تُحرقُ النَّارُ ما يُلقى فيها، وتُمَيِّزُ جيِّدَها من زَبَدِها كما تُميِّزُ النَّارُ الـخَبَثَ من الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ ونحوهِ منه .

فهذا بعضُ ما في هذا المَثلِ العظيمِ من العِبَرِ والعلم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضربُها للنَّاسِ وما يَعقلُها إلّا العالِمُون ﴾ [العنكبوت:٤٣] .

○ الوجهُ الثَّالثُ والثلاثون : [هداية العلم من أعظم الهداية] :

ما في « الصَّحيحين »[١]– أيضًا – من حديثِ سَهلِ بن سَعدٍ رضيَ اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال لعليٍّ رضيَ اللَّهُ عنه : « لَأَنْ يَهديَ بكَ اللَّهُ رجلًا واحدًا خيرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعَم »، وهذا يدُلُّ على فَضلِ العلمِ والتَّعليم، وشرفِ

(١) رواه البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

منزلةِ أهلهِ، بحيثُ إذا اهتَدى رجلٌ واحدٌ بالعالم كان ذلكَ خيرًا له من حُمْرِ النَّعَم - وهي خيارُها وأشرفُها عندَ أهلها - فما الظَّنُّ بمَن يَهتدي به كلَّ يومٍ طوائفُ من النَّاس !!

○ **الوجهُ الرَّابعُ والثلاثون : [الدعوة إلى السنَّة] :**

ما روى مُسلمٌ في « صحيحه »[1] من حديث أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : قال رسول اللَّهِ ﷺ : « مَن دَعا إلى هُدًى كانَ له من الأجرِ مثلُ أجورِ مَن تَبعَهُ لا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كانَ عليهِ من الإثمِ مثلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ لا يَنقُصُ ذلك من آثامهم شيئًا »؛ أخبرَ ﷺ أنَّ المُنتَسِبَ إلى الهُدى بَدعوتهِ له مثلُ أجرِ مَن اهتَدى به، والمتَسبِّبُ إلى الضَّلالةِ بدعوتهِ عليهِ مثلُ إثمِ مَن ضلَّ به؛ لأنَّ هذا بَذلَ قُدرَتَهُ في هدايَةِ النَّاس، وهذا بذلَ قُدرتَهُ في ضلالِهم ، فنزّلَ كلُّ واحدٍ منهما بمنزلةِ الفاعل التَّامّ .

وهذه قاعدَةُ الشريعَةِ - كما هو مذكورٌ في غيرِ هذا المَوضع - ؛ قال تعالى : ﴿ لِيَحمِلوا أوزارَهُم كامِلَةً يومَ القِيامَةِ وَمِن أَوزارِ الَّذينَ يُضِلُّونهم بغيرِ علمٍ ألَا ساءَ ما يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥]، وقال تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهُم وأثقالًا مَعَ أثقالِهِم ﴾ [العنكبوت : ١٣]؛ وهذا **يدُلُّ على أنَّ مَن دعا الأُمَّةَ إلى غَيرِ سنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فهو عَدوُّهُ حقًّا**؛ لأنَّهُ قَطَعَ وصولَ أجرِ مَن اهتَدى بسنَّتهِ إليه، وهذا من أعظَمِ معاداتهِ، نعوذُ باللَّهِ من الخِذلانِ .

○ **الوجهُ الخامسُ والثلاثون : [الغبطة في العلم] :**

ما خرَّجاهُ في « الصَّحيحين »[2] من حديثِ ابن مَسعودٍ رضيَ اللَّهُ عنه ،

---

(١) (برقم ٢٦٧٤) .

(٢) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) .

قال : قال رَسولُ اللَّهِ ﷺ : « لا حَسَدَ إلّا في اثنَتَين : رجلٌ آتاهُ اللَّهُ مالًا فسلَّطهُ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، ورجلٌ آتاهُ اللَّهُ الحِكمَةَ فهو يَقضي بها ويُعلِّمُها » ؛ فأخبَرَ ﷺ أنَّهُ لا يَنبَغي لأحَدٍ أن يَحسُدَ أحدًا - يعني حَسَدَ غِبطَةٍ - ويتمنَّى مثلَ حالِهِ من غيرِ أن يتمنَّى زوالَ نعمَةِ اللَّهِ عنهُ، إلّا في واحدَةٍ من هاتَين الخَصْلتَين؛ وهي الإحسانُ إلى النَّاس بعلمِهِ أو بمالِهِ، وما عَدا هذين فلا يَنبغي غِبطتُهُ ولا تمنِّي مثلِ حالِهِ ، لقلَّةِ منفعَةِ النَّاس به .

○ **الوجهُ السَّادسُ والثلاثون : [فضل العالم على العابد] :**

قال التِّرمذيُّ[١]: حدَّثنا محمَّد بن عبدِالأعلى : حدَّثنا سَلَمَةُ بنُ رجاءَ : حدَّثنا الوليدُ بن جميل[٢]: حدَّثنا القاسمُ ؛ عن أبي أُمامَةَ الباهليِّ قال : ذُكِرَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ رجلانِ أحدُهما عالمٌ ، والآخَرُ عابدٌ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « فَضلُ العالـمِ على العابدِ كَفَضلي عَلى أدناكُم »، ثمَّ قال رسولُ اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّهَ وملائكتَهُ وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ حتّى النَّملَةَ في جُحرِها، وحتّى الحوتَ في بحرِهِ ، لَيُصلُّونَ على مُعلِّمي النَّاس الخَيرَ » .

---

(١) في « سننه » (٢٦٨٥) .
ورواه تمّام في « فوائده » (٦٩) ، والطبراني في « الكبير » (٨ / ٢٧٨) ، وابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٣٨) من طريق الوليد بِهِ .
والوليد : ضعيفٌ .
وله شاهدٌ مرسلٌ : رواه الدَّارمي (١ / ٩٧ - ٩٨) عن الحسن بسند فيه انقطاعٌ .
ولطرفه الثاني شاهدٌ عن أبي الدرداء ، سيُورده المصنّف بَعد ...

(٢) انظر له « تهذيب الكمال » (٣١ / ٧ - ٩) و « تهذيب التهذيب » (١١ / ٦٣٢) .

قال التِّرمذيُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ، سمعتُ أبا عمَّار الحُسين بن حُريثٍ الخُزاعيَّ، قال: سمعتُ الفُضيلَ بن عِياضٍ يقول : عالمٌ عاملٌ مُعلِّمٌ يُدعى كبيرًا في ملكوتِ السَّمواتِ .

وهذا مرويٌّ عن الصَّحابَةِ ؛ قال ابنُ عبَّاسٍ : عُلماءُ هذه الأُمَّةِ رجلانِ : فرجلٌ أعطاهُ اللَّهُ علمًا فَبَذَلَهُ للنَّاسِ ولم يأخُذ عليهِ صَفَدًا،[1] ولم يَشْتَرِ به ثمنًا، أُولئكَ يُصلِّي عليهم طيرُ السَّماءِ وحيتانُ البَحرِ ودوابُّ الأرضِ والكرامُ الكاتبونَ، ورجلٌ آتاهُ اللَّهُ عِلمًا فضنَّ به عن عبادِهِ، وأخَذ به صَفَدًا واشترى به ثمنًا، فذلكَ يأتي يومَ القيامَةِ مُلْجَمًا بلجامٍ من نارٍ .

ذكرهُ ابنُ عَبدِالبرِّ [2] مرفوعًا ! وفي رَفعِهِ نظرٌ !!

وقولُه : « إنَّ اللَّهَ وملائكتَهُ وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ يُصَلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الخَيرَ » ؛ لـمّا كان تعليمُهُ للنَّاسِ الخَير سببًا لنجاتهم وسعادتهم وزكاةِ نُفوسهم ، **جازاهُ اللَّهُ من جنسِ عملِهِ** بأن جعلَ عليهِ مِن صلاتِهِ وصلاةِ ملائكتِهِ وأهلِ الأرضِ ما يكونُ سببًا لنجاتِهِ وسعادتِهِ وفلاحِهِ .

وأيضًا ؛ فإنَّ مُعلِّمَ النَّاسِ الخيرَ لـمّا كانَ مُظهِرًا لدينِ الرَّبِّ وأحكامِهِ ومُعرِّفًا لهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ، جعَلَ اللَّهُ مِن صلاتِهِ وصلاةِ أهلِ سمواتِهِ عليه ما

---

(١) أي : عطاءً .

(٢) في « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ٣٨) .

ورواه الطبراني في « الأوسط » (٢٠٧ – مجمع البحرين) .

وقال الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٢٤) – بعد عزوه لـ « الأوسط » – : « وفيه عبدُاللَّه ابن خِراش ؛ ضعفه البخاري وأبو زُرعة وأبو حاتم وابنُ عديّ ، ووثَّقه ابنُ حبّان ! » .

وجزم بضعفِهِ الحافظُ العراقيُّ في « تخريج الإحياء » (١ / ٦٠) .

يكونُ تنويهًا به، وتشريفًا له ، وإظهارًا للثَّناءِ عليه بينَ أهلِ السَّماءِ والأرضِ .

○ الوجه السَّابع والثلاثون : [رضا الملائكة بطالب العلم] :

ما رواهُ أبو داودَ والتِّرمذي [1] من حديثِ أبي الدَّرداء رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « مَن سَلَكَ طريقًا يبتَغي فيه عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ به طريقًا إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائكَة لَتَضَعُ أجنحتَها رِضًا لطالبِ العلمِ، وإنَّ العالمَ ليَستغفرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماء، وفضلُ العالمِ على العابدِ كفَضلِ القَمَرِ على سائرِ الكواكب، إنَّ العُلَماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العلمَ؛ فمَن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ » .

والطَّريقُ التي يَسلُكُها إلى الجنَّة جزاءً على سلوكِهِ في الدُّنيا طريقَ العلمِ الموصلَة إلى رضا ربِّهِ .

وَوضعُ الملائكَة أجنحَتها له تواضُعًا، وتوقيرًا، وإكرامًا لِمَا يَحملُهُ من

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١) - والترمذي (٢٦٨٢) ، وأحمد (٥ / ١٩٦) ، كلاهما بإسقاط داود بن جميل - وابنُ ماجه (٢٢٣) ، والدارمي (١ / ٩٨) ، وابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٣٩) من طريق عبدالله بن داود، عن عاصم بن رجاء، عن داود بن جميل، عن كثير بن قَيس ، عن أبي الدرداء .

قلتُ : وداود بن جميل ضعيفٌ .

ورواية الترمذي - بإسقاطه - أعلّها هو نفسه بأنها ليست مُتّصلة !

وللحديث عند أبي داود (٣٦٤٢) طريقٌ أُخرى يتقوّى بها .

وهو الذي جزم به الحافظ ابن حجَر في « فتح الباري » (١ / ١٦٠) ونقل تحسينَه عن حمزة الكِنَانيّ .

وطريقٌ ثالثٌ عند الخطيب في « تاريخِه » (١ / ٣٩٨) وفيه انقطاعٌ .

ميراثِ النبوَّةِ ويطلبُهُ، وهو يدلُّ على المحبَّةِ والتَّعظيمِ؛ فمن محبَّةِ الملائكَةِ له وتعظيمِه تَضَعُ أجنحَتَها له؛ لأنَّهُ طالبٌ لِمَا به حياةُ العالَمِ ونجاتُهُ، فَفيهِ شبَهٌ من الملائكَةِ، وبينَهُ وبينَهُم تناسُبٌ، فإنَّ الملائكةَ أنصحُ خَلقِ اللَّهِ وأنفعُهم لبني آدم، وعلى أيديهم حَصَلَ لهم كلُّ سعادَةٍ وعلمٍ وهدى، ومِنْ نفعِهم لبني آدم ، ونُصحِهم أنَّهُم يَستَغفرونَ لمُسيئهم، ويُثنونَ على مؤمنيهم، ويُعينونهم على أعدائهم من الشياطين ، ويحرِصونَ على مصالح العَبدِ أضعافَ حرصِهِ على مصلحَةِ نفسهِ، بل يُريدونَ له من خَيرِ الدُّنيا والآخرَةِ ما لا يُريدُ العَبدُ ولا يَخطُرُ له ببالٍ؛ كما قال بعضُ التَّابعين: وجَدنا الملائكَةَ أنصحَ خَلقِ اللَّهِ لعبادِهِ ، وَوَجَدنا الشياطين أغشَّ الخَلقِ للعباد .

وقال تعالى : ﴿ الَّذينَ يَحمِلُونَ العَرشَ ومَن حَولَهُ يُسَبِّحونَ بحمدِ ربِّهِم ويُؤمنونَ به ويَستَغفرونَ للذينَ آمَنوا ربَّنا وَسِعتَ كُلَّ شيءٍ رَحمَةً وعلماً فاغفِرْ للَّذينَ تابوا واتَّبعُوا سبيلَكَ وقِهِمْ عَذابَ الجَحيم ربَّنا وأدخِلْهُم جنَّاتِ عَدنٍ التي وعَدتَهُم ومَن صَلَحَ مِن آبائِهِم وأزواجِهِم وذُرِّيَّاتِهِم إنَّكَ أنتَ العَـزيزُ الحكيمُ وَقِهِم السَّيِّـئاتِ ومَن تَقِ السَّيِّـئاتِ يومَئذٍ فَقَد رَحِمتَهُ وذلكَ هو الفَوزُ العَظيمُ ﴾ [غافر : ٧ - ٩]، فأيُّ نُصحٍ للعبادِ مثلُ هذا إلّا نُصحُ الأنبياء !

فإذا طَلَبَ العَبدُ العلمَ فَقَد سَعى في أعظَمِ ما يَنصحُ به عبادَ اللَّهِ ، فلذلك تُحِبُّهُ الملائكَةُ وتُعظِّمُهُ، حتى تَضَعَ أجنحَتَها له رِضًا ومحبَّةً وتعظيماً .

قال أبو حاتم الرَّازي: سمعتُ ابنَ أبي أُوَيس يقول : سمعتُ مالكَ بن أنَس يقول: مَعنى قولِ رسولِ اللَّهِ ﷺ : « تضعُ أجنحَتها » يعني: تبسُطها بالدُّعاء لطالبِ العلمِ بَدَلًا من الأيدي .

وقال أحمدُ بن مَروان المالكي[1] في كتاب « المُجالَسة » له :

حدَّثنا زكريًّا بنُ عبدالرَّحمن البَصريّ، قال : سمعتُ أحمَدَ بن شُعيب يقولُ : كُنَّا عندَ بَعضِ المُحدِّثين بالبَصرَة فحدَّثَنا بحديثِ النَّبي ﷺ : « إنَّ الملائكَة لتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ ... »، وفي المجلسِ معنا رجلٌ من المعتزلَة ، فجعَلَ يَستهزِئُ بالحديث ، فقال : واللّهِ لأطرُقَنَّ غدًا نَعلي بمساميرَ، فأطأُ بها أجنحةَ الملائكَة ! فَفَعَلَ، ومشى في النَّعلين؛ فجفَّتْ رجلاهُ جميعًا ، ووقَعَتْ في رِجْلَيْهِ الآكِلَةُ .

وقال الطَّبرانيُّ : سمعتُ أبا يَحيى زكريًّا بن يَحيى السَّاجي قال : كُنَّا نمشي في بعضِ أزقَّةِ البَصرَة إلى بابِ بعضِ المُحدِّثين، فأسرَعنا المشيَ، وكانَ معنا رجلٌ ماجنٌ مُتَّهمُ في دينهِ، فقالَ : ارفَعوا أرجلكُم عن أجنحَةِ الملائكَة لا تَكسروها ! كالمُستَهزِئِ ؛ فما زالَ من موضعهِ حتَّى جفَّت رجلاهُ وسَقَطَ .

وفي « السُّنَن » و « المسانيد »[2] من حديثِ صَفوانَ بن عسَّالٍ، قال: قلتُ: يا رسولَ اللّه ﷺ إنِّي جئتُ أطلبُ العلمَ، قال : « مَرحبًا بطالبِ العلمَ؛ إنَّ

---

(١) هو الدِّينَوَرِيُّ ، المتوفى بعد سنة (٣٣٢ هـ) ، كما في « السِّيَر » (١٥ / ٤٢٨) ، وانظر - للفائدة أيضًا - « المجالسة » (ق ٥١٢) له .

والخبرُ في « المجالسة » (برقم : ٢١٥١ - نُسختي المخطوطة المرقَّمة) ، والحديثُ المذكورُ عنده سيأتي تخريجُهُ في التعليق التالي .

وانظر « مشيخة أبي عبدالله الرازي » (ص ٩٦) والتعليق عليها .

(٢) رواه أحمد (٤ / ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١) ، والنسائي (١ / ٩٨) ، وابن ماجه (٢٢٦) ، والطبراني (٧٣٥٢) ، وعبدالرزاق (٧٩٥) ، وصحّحه ابنُ خزيمة (١٩٣) ، وابن حبان (٨٦) بسند حسن .

وألفاظُهُ يَقرُبُ بعضُها مِن بعضٍ .

طالبَ العلم لَتَحُفُّ به الملائكَةُ وتُظِلُّهُ بأجنحتها، فيركبُ بعضُهم بعضًا حتى تبلغَ السَّماء الدُّنيا من حبِّهم لما يطلبُ ... »، وذكرَ حديثَ المَسحِ على الخُفَّين .

قال أبو عَبداللّهِ الحاكم : وإسنادهُ صحيحٌ .

وقال ابنُ عبدالبَر : هو حديثٌ صحيحٌ حَسَنٌ ثابتٌ محفوظٌ مَرفوعٌ، ومثلُهُ لا يُقالُ بالرَّأيِ .

ففي هذا الحديثِ حَفُّ الملائكَةِ له بأجنحتها إلى السَّماء، وفي الأوَّلِ وضعُها أجنحتَها له ؛ فالوضعُ تواضُعٌ وتوقيرٌ وتبجيلٌ ، والحَفُّ بالأجنحَةِ حِفظٌ وحمايَةٌ وصيانةٌ .

فتضمَّنَ الحديثانِ تَعظيمَ الملائكَة له ، وحُبَّها إيَّاهُ ، وحياطَتَهُ وحفظَهُ؛ فلو لم يكن لطالبِ العلمِ إلّا هذا الحظُّ الجزيلُ لكفى بِهِ شَرَفًا وفَضْلًا .

وقولُه ﷺ : « إنَّ العالمَ ليَستغفرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماء »؛ فإنَّهُ لمّا كانَ العالمُ سببًا في حُصولِ العلمِ الذي به نجاةُ النُّفوس من أنواعِ المُهلِكات، وكانَ سعيهُ مقصورًا على هذا ، وكانَت نجاةُ العبادِ على يَديهِ ؛ جُوزِيَ من جنسِ عملِهِ، وجُعِلَ مَن في السَّمواتِ والأرضِ ساعيًا في نجاتهِ من أسبابِ الهَلَكاتِ باستغفارهم له .

وإذا كانت الملائكَةُ تَستَغفرُ للمؤمنين ، فَكَيفَ لا تَستَغفرُ لخاصَّتهم وخُلاصتهم ؟!

وقد قيلَ : إنَّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ - المستغفرينَ للعالمِ - عامٌّ في الحيوانات ناطِقها وبهيمِها، طيرِها وغيره .

ويُؤكِّدُ هذا قولُهُ: « حتى الحيتانُ في الماء، وحتى النَّملَةُ في جُحرِها »،

فقيلَ : سَبَبُ هذا الاستغفار أنَّ العالـمَ يُعلِّمُ الخَلْقَ مُراعاةَ هذه الحيواناتِ ويُعرِّفُهم ما يَحِلُّ منها وما يَحرُمُ ، ويُعرِّفُهُم كيفيَّةَ تناولِها ، واستخدامِها ، وركوبِها، والانتفاعِ بها، وكيفيَّةَ ذبحِها على أحسنِ الوجوه وأرفقِها بالحيوان، والعالِمُ أشفَقُ النَّاس على الحيوان ، وأقومُهم ببيان ما خُلقَ له .

وبالجُملَة ؛ فالرَّحمَةُ والإحسانُ التي خُلِقَ بهما ولهما الحيوانُ ، وكُتِبَ لهما حظُّهما منه إنَّما يُعرفُ بالعلمِ، فالعالمُ مُعرِّفٌ لذلك ، فاستحقَّ أن تَستَغفرَ له البهائمُ، واللَّهُ أعلم .

وقولُه : « وَفَضلُ العالـمِ على العابدِ كفَضلِ القَمَرِ على سائرِ الكواكب » ، تَشبيهٌ مُطابقٌ لحالِ القَمَرِ والكواكب؛ فإنَّ القمرَ يُضيءُ الآفاقَ، ويمتدُّ نورُه إلى العالم، وهذه حالُ العالِم، وأمّا الكوكبُ فنورُهُ لا يُجاوزُ نَفسَهُ، أو ما قَرُبَ منه، وهذه حالُ العابدِ الذي يُضيءُ نورُ عبادَتِهِ عليه دونَ غَيرِهِ، وإنْ جاوَزَ نورُ عبادَتِهِ غَيرَهُ فإنَّما يُجاوِزُهُ غَيرَ بَعيدٍ ، كما يُجاوزُ ضوءُ الكوكب له مُجاوَزَةً يَسيرةً . الجنَّةَ؛ فإنَّما كانَت منفعتُكَ لنفسكَ، ويُقالُ للعالِم : اشفَعْ تُشفَّع؛ فإنَّما كانت مَنفعتُكَ للنَّاس » .

وروى ابن جُريج عَن عطاءٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما : « إذا كانَ يومُ القيامَة يُؤتى بالعابدِ والفقيهِ، فيُقال للعابد : ادخلِ الجنَّة، ويُقال للفقيه : اشفع تُشفَّع » .

وفي التَّشبيهِ المذكورِ لطيفةٌ أُخرى : وهو أنَّ الجَهلَ كالليلِ في ظُلمتهِ وحِندسهِ، والعلماءُ والعُبّادُ بمنزلَةِ القَمَرِ والكواكبِ الطَّالعةِ في تلكَ الظُّلمَة، وفَضلُ نورِ العالمِ فيها على نورِ العابدِ كفَضلِ نورِ القَمَرِ على الكواكب .

وأيضًا؛ فالدِّينُ قِوامُهُ وزينتُهُ وأمنَتُهُ بعُلمائِهِ وعُبَّادِهِ، فإذا ذَهَبَ عُلماؤهُ وعُبَّادهُ ذهَبَ الدِّينُ ، كما أنَّ السَّماءَ أَمَنَتُها وزينتُها بقمرها وكواكبها؛ فإذا خُسفَ قمرُها وانتَثَرَتْ كواكبُها أتاها ما تُوعَدُ، وفَضلُ عُلماء الدِّين على العبادِ كفَضلِ ما بينَ القَمَرِ والكواكب .

فإنْ قيلَ : كيفَ وقَعَ تَشبيهُ العالـِمِ بالقَمَرِ دونَ الشمسِ ، وهي أعظمُ نورًا ؟

قيل : فيه فائدتان :

إحداهـما : أنَّ نورَ القمَرِ لمّا كان مُستفادًا من غيرِهِ كانَ تَشبيهُ العالـِمِ الذي نورُهُ مُستفادٌ من شمسِ الرِّسالَةِ بالقَمَرِ أولى من تَشبيهِهِ بالشمسِ .

الثَّانية : أنَّ الشمسَ لا يختلفُ حالُها في نورها، ولا يلحقُها محاقٌ[1]، ولا تفاوُتٌ في الإضاءة ، وأمَّا القَمَرُ فإنَّهُ يَقلُّ نورهُ ويكثُرُ ، ويمتلىءُ ويَنقُصُ ؛ كما أنَّ العُلماءَ في العلمِ على مراتبِهِم مِن كثرتِه وقلَّتهِ ، فَيُفَضَّلُ كلٌّ منهم في علمِهِ بحسبِ كثرتِهِ وقلَّتِهِ وظهورِهِ وخفائِهِ ، كما يكونُ القمَرُ كذلك ، فعالمٌ كالبَدرِ ليلَةَ تَمامِهِ ، وآخَرُ دونَهُ بليلَةٍ ثانيَةٍ وثالثةٍ ، وما بَعدَها إلى آخرِ مراتبِهِ ، وهم دَرجاتٌ عندَ اللَّهِ .

ولهذا هي في تَعبيرِ الرُّؤيا عبارَةٌ عن العلماء، فكيفَ وقَعَ تَشبيهُهُم هنا بالقَمر ؟

قيلَ : أمَّا تَشبيهُ العُلَماء بالنُّجوم؛ فإنَّ النُّجومَ يُهتَدى بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ ، وكذلكَ العلماء، والنُّجومُ زينةٌ للسَّماء، فكذلكَ العلماءُ زينةٌ للأرضِ، وهي رجومٌ للشياطين حائلةٌ بينهم وبين استراقِ السَّمعِ لئلّا يُلَبِّسوا بما يَسترِقُونَهُ ،

(١) مُثلَّثة الميم، وهو أن يستترَ القمرُ ، فلا يُرى غدوةً ، ولا عشيةً ، سُمِّي بذلك لأنَّه طلع مع الشمس فَمَحقَتْهُ . « قاموس » (١١٩١) .

من الوَحي الواردِ إلى الرّسلِ من اللّهِ على أيدي ملائكتِهِ، وكذلك العلماءُ رجومٌ لشياطين الإنسِ والجنِّ، الذين يُوحِي بَعضُهم إلى بَعضٍ زُخرفَ القولِ غرورًا .

فالعُلماءُ رجومٌ لهذا الصّنفِ من الشياطين، **ولولاهم لَطُمِسَت معالمُ الدِّين بتَلبيسِ المضلّين** ، ولكنَّ اللّهَ سبحانهُ أقامَهُم حُرّاسًا وحَفَظَةً لدينِهِ وَرُجومًا لأعدائِهِ وأعداءِ رُسلِهِ .

فهذا وجهُ تَشبيهِهِم بالنُّجوم .

وأمَّا تَشبيهُهُم بالقَمَرِ ؛ فذلك إنَّما كانَ في مقامِ تَفضيلِهِم على أهلِ العبادَةِ المُجرَّدَةِ، ومُوازَنَةِ ما بينهما من الفَضلِ .

والمعنى : أنَّهم يَفضُلونَ العبادَ الذين ليسوا بعلماءَ ، كما يفضُلُ القَمَرُ سائرَ الكواكبِ ، فكلٌّ من التَّشبيهيْنِ لائقٌ بموضعِهِ، والحمدُ للّه .

وقولُه : « إنَّ العلماءَ ورثَةُ الأنبياء »؛ هذا من أعظمِ المناقبِ لأهلِ العلمِ ؛ فإنَّ الأنبياءَ خيرُ خلقِ اللّهِ، فوَرَثَتُهُم خيرُ الخَلْقِ بعدَهُم، ولمّا كان كلُّ موروثٍ ينتقلُ ميراثهُ إلى ورثتهِ - إذ هم الذينَ يقومون مقامَهُ مِن بَعدِهِ -، ولم يكن بعدَ الرّسلِ مَن يقومُ مقامَهُم في تبليغِ ما أُرسِلوا به إلّا العلماءُ كانوا أحقَّ النّاسِ بميراثهم .

وفي هذا تَنبيهٌ على أنَّهُم أقرَبُ النّاسِ إليهم؛ فإنَّ الميراثَ إنَّما يكونُ لأقرَبِ النّاسِ إلى مُوَرِّثٍ؛ وهذا كما أنَّهُ ثابتٌ في ميراثِ الدِّينار والدِّرهم، فكذلكَ هو في ميراث النبوَّة، واللّهُ يختصُّ برحمتهِ من يشاءُ .

وفيه - أيضًا - إرشادٌ وأمرٌ للأُمَّةِ بطاعتِهِم، واحترامِهِم، وتعزيرِهِم، وتوقيرِهِم، وإجلالِهِم؛ فإنَّهُم وَرَثَةُ مَن هذه بعضُ حُقوقِهِم على الأُمَّةِ، وخُلفاؤهم فيهم .

وفيه تنبيهٌ على أنَّ محبَّتَهُم من الدِّين، وبُغضَهم مُنافٍ للدِّين، كما هو ثابتٌ لموروثهم .

وكذلكَ مُعاداتُهُم وُمحاربتُهُم معاداةٌ ومحاربةٌ للَّهِ كما هو في موروثهم .

قال عليٌّ رضيَ اللَّه عنهُ : محبَّةُ العلماء دِينٌ يُدانُ اللَّهُ به .

وقال ﷺ فيما يَرويه عن ربِّهِ عزَّ وجلَّ : « مَن عادى لي وليًا فَقَد بارَزني بالمُحارَبةِ ... »[١]، ووَرَثةُ الأنبياء ساداتُ أولياءِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

وفيه تنبيهٌ للعلماء على سُلوكِ هَدي الأنبياء وطريقتِهم في التَّبليغ ؛ من الصَّبرِ، والاحتمالِ، ومُقابلةِ إساءَةِ النَّاسِ إليهم بالإحسانِ، والرِّفقِ بهم، واستجلابهم إلى اللَّهِ بأحسَنِ الطُّرق، وبَذلِ ما يُمكِنُ من النَّصيحَةِ لهم؛ فإنَّهُ بذلكَ يحصُلُ لهم نصيبُهُم من هذا الميراثِ العظيم قَدرُهُ ، الجليلِ خَطَرُهُ .

وفيه - أيضًا - تنبيهٌ لأهلِ العلمِ على تربيَةِ الأُمَّةِ كما يُربِّي الوالدُ وَلَدَهُ؛ فيربُّونهم بالتَّدريج والتَّرقِّي من صغارِ العلمِ إلى كبارِهِ[٢]، وتحميلِهم منه ما يُطيقونَ ، كما يفعلُ الأبُ بولدِهِ الطِّفل في إيصالهِ الغِذاءَ إليه؛ فإنَّ أرواحَ البَشرِ بالنِّسبَةِ إلى الأنبياء والرُّسل كالأطفالِ بالنِّسبَةِ إلى آبائهم، بل دونَ هذه النِّسبَةِ بكثيرٍ، ولهذا كلُّ روحٍ لم يُرَبِّها الرُّسلُ لم تُفلح ولم تَصلُح لصالحةٍ؛ كما قيل :

ومَن لا يُـرَبِّيـهِ الرَّسولُ ويَسقِـهِ ... لُبانًا له قَد دَرَّ مِن ثَدْيِ قُدسِهِ

فَـذاكَ لَقيطٌ ما لهُ نسبَةُ الْوَلَا ... ولا يَتَعدَّى طَـورَ أبناءِ جنسهِ

وقولُه : « إنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العلمَ »، هذا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) ، وانظر « جامع العُلوم والحِكَم » (ص ٣١٣) للحافظ ابن رجب ، و « السلسلة الصحيحة » (١٦٤٠) لشيخنا الألباني .

(٢) انظر كتابي « علم أصول البدع » (ص ٢٥١) .

من كمالِ الأنبياءِ وعِظَمِ نُصْحِهم للأُمَم ، وتمامِ نعمَة اللَّهِ عليهم وعلى أُمَمِهِم ، أَنْ أزاحَ جميعَ العِلَلِ، وحَسَمَ جميعَ الموادِّ التي تُوهِمُ بعضَ النُّفوسِ أنَّ الأنبياءَ من جنسِ الملوكِ الَّذينَ يُريدونَ الدُّنيا ومُلكَها ! فحماهُم سبحانهُ وتعالى من ذلكَ أتَمَّ الحمايَة .

ثمَّ لـمَّا كان الغالبُ على النَّاسِ أنَّ أحدَهم يريدُ الدُّنيا لولدِهِ مِن بعـدِهِ ويسعى ويتعبُ ويَحرِمُ نفسَهُ لولدِهِ، سدَّ هذه الذَّريعَة عن أنبيائهِ ورسلِهِ، وقطعَ هذا الوَهَم الذي عساهُ أن يُخالطَ كثيرًا من النُّفوس التي تقولُ : فلعلَّهُ إنْ لم يطلب الدُّنيا لنفسِهِ فهو يُحصِّلها لولده! فقال ﷺ : « نحنُ معاشرَ الأنبياء لا نُورَثُ، ما تَركنا فهو صَدَقَةٌ »[1] فلم تُورِّثِ الأنبياءُ دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورَّثوا العلمَ .

وأمَّا قولُه تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيمانُ داودَ ﴾ فهو ميراثُ العلمِ والنُّبوَّةِ ، لا غَير، وهذا باتِّفاقِ أهلِ العلمِ من المُفسِّرينَ وغيرهم، وهذا لأنَّ داودَ عليه السَّلام كان له أولادٌ كثيرٌ سوى سليمان، فلو كانَ المَوروثُ هو المالَ لم يكُن سُليمان مُختصًّا به .

وأيضًا؛ فإنَّ كلامَ اللَّهِ يُصانُ عن الإخبارِ بمثلِ هذا؛ فإنَّهُ بمنزلَةِ أن يُقال: ماتَ فلانٌ وَوَرِثَهُ ابنُهُ، ومنَ المَعلومِ أنَّ كلَّ أحدٍ يرثُهُ ابنُهُ، وليسَ في الإخبارِ بمثلِ هذا فائدةٌ !

وأيضًا؛ فإنَّ ما قَبْلَ الآيَةِ وما بَعدَها يُبيِّنُ أنَّ المُرادَ بهذه الوراثَةِ وراثَةُ العلمِ والنُّبوَّةِ، لا وراثَةُ المالِ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ولَقَد آتَينا داودَ وسُليمانَ عِلْمًا وقالا الحمدُ للهِ الَّذي فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عبادِهِ المُؤمنين وَوَرِثَ سليمانُ داوودَ ﴾ [النمل : ١٥]، وإنَّما سيقَ هذا لبيانِ فَضلِ سليمانَ وما خَصَّهُ اللَّهُ به

(١) رواه البخاري (٦٧٢٨) ، ومسلم (١٧٥٧) .

من كرامتهِ وميراثهِ ما كانَ لأبيهِ من أعلى المواهب، وهو العلمُ والنُّبوَّةُ ؛ ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ الفَضلُ المُبين ﴾ [النمل : ١٦] .

وكذلكَ قولُ زكريَّا ﷺ : ﴿ وإنِّي خِفْتُ المَواليَ مِن وَرائي وكانَت امرأَتي عاقِرًا فَهَبْ لي مِن لَدُنكَ وَليًّا يَرِثُني ويَرِثُ مِن آلِ يَعقوبَ واجعَلْهُ رَبِّ رَضيًّا ﴾ [مريم : ٥ - ٦]، فهذا ميراثُ العلمِ والنُّبوَّةِ والدَّعوَةِ إلى اللَّهِ ، وإلَّا فلا يُظَنُّ بنبيٍّ كريمٍ أنَّهُ يخافُ عُصبتَهُ أن يَرِثوهُ مالَهُ ، فيسألَ اللَّهَ العَظيمَ وَلَدًا يمنعُهم ميراثَهُ ، ويكونُ أحقَّ به منهم !

وقَد نزَّهَ اللَّهُ أنبياءَهُ ورسلَهُ عن هذا وأمثالِهِ .

فبُعدًا لمَن حرَّفَ كتابَ اللَّهِ وردَّ على رسولِهِ كلامَهُ، ونَسَبَ الأنبياءَ إلى ما هم أبرياءُ مُنَزَّهون عنهُ، والحَمدُ للَّهِ على تَوفيقهِ وهدايتهِ .

وقولُهُ : « فَمَن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ » : أعظمُ الحظوظِ وأجداها ما نفعَ العَبدَ ودامَ نفعُهُ له، وليسَ هذا إلَّا حظُّهُ من العلمِ والدِّينِ؛ فهو الحظُّ الدَّائمُ النَّافعُ ، الذي إذا انقَطَعَت الحظوظُ لأربابها فهو موصولٌ له أبدَ الآبدين؛ وذلكَ لأنَّهُ موصولٌ بالحَيِّ الذي لا يموتُ ، فلذلكَ لا يَنقطعُ ولا يفوتُ، وسائرُ الحُظوظ تُعدَم وتتلاشى بتلاشي مُتعلَّقاتها، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنثورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣]؛ فإنَّ الغايَةَ لمَّا كانتْ مُنقطعَةً زائلةً تبعَتْها أعمالُهُم، فانقَطَعَت عنهم أحوجَ ما يكونُ العاملُ إلى عملهِ !

وهذه هي المُصيبَةُ التي لا تُجبَرُ، عياذًا باللَّهِ، واستعانَةً به وافتقارًا، وتوكُّلَ عليه ، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا باللَّهِ .

وقولُهُ : « موتُ العالمِ مُصيبَةٌ لا تُجبَرُ، وثُلمَةٌ لا تُسَدُّ، ونَجمٌ طُمِسَ، ومَوتُ

قَبيلَةٍ أيسَرُ من موتِ عالمٍ » : لمَّا كانَ صلاحُ الوُجود بالعلماء، ولولاهم كانَ النَّاسُ كالبهائمِ بل أسوأَ حالًا، كانَ موتُ العالمِ مُصيبَةً لا يَجبُرها إلَّا خَلَفُ غيرِهِ له .

وأيضًا؛ **فإنَّ العلماءَ هم الَّذينَ يَسُوسونَ العبادَ والبلادَ والممالكَ**[1]، **فموتُهم فسادٌ لنظامِ العالمِ**؛ ولهذا لا يزالُ اللَّهُ يَغرِسُ في هذا الدِّين منهم خالفًا عن سالفٍ، يحفظُ بهم دينَهُ وكتابَهُ وعبادَهُ .

وتأمَّلْ إذا كانَ في الوجودِ رجلٌ قَد فاقَ العالِمَ في الغنى والكرم، وحاجتُهم إلى ما عندَهُ شديدةٌ، وهو مُحسِنٌ إليهم بكلِّ مُمكنٍ، ثمَّ ماتَ وانقَطَعَتْ عنهم تلكَ المادَّةُ ! فموتُ العالمِ أعظمُ مُصيبةً من موتِ مثلِ هذا بكثيرٍ .

ومثلُ هذا يموتُ بموتِهِ أُمَمٌ وخلائقُ ، كما قيل :

تَعَلَّمْ ما الرَّزِيَّةُ فَقْدَ مالٍ ولا شاةٌ تَموتُ ولا بَعيرُ
ولكنَّ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ حُرٍّ يموتُ بمَوتِهِ بَشرٌ كثيرُ

وقال آخرُ :

فما كانَ قَيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ ولكنَّــهُ بُنيــانُ قومٍ تَهَدَّما

○ **الوجهُ الثَّامنُ والثلاثون : [شدَّة الفقيه على الشَّيطان] :**

ما رَوى التِّرمذيُّ[2] من حديثِ الوَليدِ بن مُسلمٍ : حدَّثنا رَوحُ بن جَناحٍ ،

---

(١) أنَّى لهم هذا – اليوم – في ظلِّ هذا الواقعِ النَّكد الذي تعيشُه الأمَّة بعيدًا عن هدي الوَحيَين العظيمين ! فلا أقلَّ من أَنْ يَعِيَ ذلك الدُّعاةُ وطَلَبةُ العلمِ !

(٢) (برقم ٢٦٨١) .

ورواه ابن ماجه (٢٢٢) ، والطبراني في « الكبير » (١١ / ٧٨) ، وابن حبان في « المجروحين » (١ / ٢٩٥) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٢٦) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٢٤) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٩٢) .

وقولُ الترمذي : « غريبٌ » بمعنى : ضعيفٌ .

وهو حديثٌ ضعيفٌ جدًّا شبهُ موضوعٍ .

عن مُجاهدٍ ، عن ابن عبّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « فقيهٌ واحِدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ » ..

قال التِّرمذيُّ : غريبٌ لا نَعرفهُ إلّا من هذا الوجه من حديثِ الوَليد بن مُسلم .

وهذا معناهُ صحيحٌ؛ فإنَّ العالمَ يُفسِدُ على الشيطانِ ما يَسعى فيه ويَهدمُ ما يبنيهِ ، فكلَّما أرادَ إحياءَ بدعَةٍ وإماتَةَ سنَّةٍ حالَ العالِمُ بينَهُ وبينَ ذلكَ ، فلا شيءَ أشدُّ عليه من بقاءِ العالمِ بين ظَهرانَي الأُمَّةِ، ولا شيءَ أحبُّ إليه من زوالِهِ من بينَ أظهُرِهم ، ليتمكَّنَ من إفسادِ الدِّين وإغواءِ الأُمَّة، وأمَّا العابدُ فغايتهُ أن يُجاهدَ ليسلَمَ منه في خاصَّةِ نفسه، وهيهاتَ له ذلك !

○ **الوجهُ التَّاسعُ والثلاثون : [العلم يستثني صاحِبَه من اللَّعن] :**

ما روى التِّرمذيُّ[1] من حديثِ أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنه ، قال : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « الدُّنيا ملعونَةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلّا ذكرُ اللَّهِ وما والاه وعالمٌ ومتعلِّمٌ » .

قال التِّرمَذيُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ .

---

(١) (برقم ٢٣٢٣) .

ورواه - أيضًا - ابن ماجه (٤١١٢)، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨٠)، وابن أبي عاصم في « الزهد » (١٢٦)، والبغوي في « شرح السنة » (٤٠٢٨)، وابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٢٧ - ٢٨)، وابن الجوزي في « الواهيات » (١٣٣٠) من طريق سفيان عن عطاء بن قُرّة عن عبدالله بن ضَمرة عن أبي هريرة .

وحسَّنَهُ التِّرمِذيُّ .

وانظر « تهذيب الكمال » (١٥ / ١٢٩ - ١٣٠) .

وللحديث طُرُقٌ أخرى عن عَدَدٍ من الصحابة .

ولمّا كانت الدُّنيا حَقيرَةً عندَ اللَّهِ لا تُساوي لديهِ جناحَ بعوضَةٍ [1] كانَت – وما فيها – في غايَةِ البُعدِ منه، وهذا هو حقيقةُ اللَّعنَة، وهو سبحانهُ إنَّما خَلَقها مزرَعَةً للآخرَة [2] ومَعْبَرًا إليها يتزوَّدُ منها عبادُه إليه، فلم يكن يُقَرِّبُ منها إلّا ما كانَ مُتضمِّنًا لإقامَةِ ذكرِهِ ومُفْضِيًا إلى محابِّهِ ، وهو العلمُ الذي به يُعرَفُ اللَّهُ ، ويُعبَدُ ، ويُذكَر، ويُثنى عليه ، وبهِ يُمَجَّدُ، ولهذا خلقها وخلَقَ أهلها؛ كما قالَ تعالى : ﴿ وما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ إلّا ليَعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقال : ﴿ الله خَلَقَ سبعَ سمواتٍ ومنَ الأرضِ مثلَهُنَّ يتَنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لتعلموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ الله قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

فتضمَّنت هاتانِ الآيتانِ أنَّهُ سبحانهُ إنَّما خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما ليُعرَفَ بأسمائهِ وصفاتِهِ ، وليُعبَد .

فهذا المطلوبُ وما كانَ طريقًا إليه منَ العلمِ والتَّعليم لهو المُستثنى من اللَّعنَة ، واللَّعنةُ واقعةٌ على ما عَدَاهُ؛ إذ هو بَعيدٌ عن اللَّهِ وعَن محابِّه وعَن دينهِ .

وهذا هو مُتَعَلَّق العقاب في الآخرَة؛ فإنَّهُ كما كانَ مُتعلَّقَ اللَّعنَةِ التي

---

(١) كما صحَّ عنه ﷺ ، في الحديث الذي رواه الترمذي (٢٣٢١) وابنُ ماجه (٢٤١٠) وغيرُهما من طرقٍ ، وهو حديثٌ صحيحٌ ؛ انظر تخريجه في « الصحيحة » (٩٤٣) .

(٢) هذا تعبيرٌ جميلٌ في وَصفِ الدنيا .

وربّما نسبه (البعضُ) إلى النّبي ﷺ !

ولا يصحُّ ذلك عنه؛ فانظر « تخريج الإحياء » (١٩/٤)، و « الأسرار المرفوعة » (١٩٩) .

تتضمَّن الذَّمَّ والبُغضَ فهو مُتعلِّقُ العقاب، واللَّهُ سبحانهُ إنَّما يُحِبُّ من عبادِهِ ذكرَه وعبادتَهُ ومعرفتَهُ ومحبَّتَهُ ولوازمَ ذلكَ وما أفضى إليه ، وما عَداهُ فهو مبغوضٌ له ، مذمومٌ عندَهُ .

○ **الوجهُ الأربعون : [طلب العلم طريق الجنَّة] :**

ما رواهُ مسلمٌ في « صحيحة » [1] عن أبي هُرَيرَة، قال : قال رسول اللَّهِ ﷺ : « مَن سَلَكَ طريقًا يلتَمِسُ فيهِ علمًا سهَّلَ اللَّهُ له طريقًا إلى الجنَّة » .

وقَد تظاهَرَ الشرعُ والقَدَرُ على انَّ **الجزاء من جنسِ العملِ**، فكما سلكَ طريقًا يطلبُ فيه حياةَ قلبهِ ونجاته من الهلاكِ ، سلكَ اللَّهُ به طريقًا يُحصِّلُ له ذلك .

○ **الوجهُ الحادي والأربعون : [أَهل العلم دعا لهم النَّبيُّ ﷺ] :**

أنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا لِمَن سمعَ كلامَهُ ووَعاهُ وبلَّغَهُ بالنُّضرَةِ -وهي البَهجَةُ ونضارَةُ الوجهِ وتحسينُه-؛ ففي التِّرمذي[2]وغيره من حديث ابن مَسعودٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سمعَ مقالَتي فوَعاها ، وحَفِظَها وبلَّغها، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقَهُ منه، ثلاثٌ لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ : إخلاصُ العملِ للَّه ، ومناصحَةُ أئمَّةِ المسلمين، ولزومُ جماعتهم؛ فإنَّ دعوَتهُم تُحيطُ مِنْ

---

(١) (برقم ٢٦٩٩) .

ورواه أحمد (٢ / ٢٥٢ و ٣٢٥ و ٤٠٧)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذيّ (٢٦٤٦) والنَّسائي في « الكبرى » (٧٢٩٠) وابن ماجه (٢٢٥)، وأبو خيثمة في « العلم » (٢٥)، والبغوي في « شرح السنة » (١٣٠) والآجُرِّي في « أخلاق العُلماء » (٢٧) .

(٢) (برقم ٢٦٥٧) .

ورواه أحمد (١ / ٤٣٧)، والحُميدي (٨٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وابن حبان (٧٤)، والبغوي (٢٣٦/١)، والحاكم في « معرفة علوم الحديث » (ص ٢٦٠)، وابن عبدالبر (٤٠/١) . وسنده صحيحٌ .

ورائهم » .

وَرَوى هذا الأصلَ عن النَّبيِّ ﷺ ابنُ مَسعودٍ ومعاذُ بن جَبَلٍ وأبو الدَّرداء وجُبير بن مُطْعِم وأنسُ بن مالك وزَيدُ بن ثابت والنُّعمان بن بشير[١] .

قال التِّرمذي : حديثُ ابن مَسعودٍ حديثٌ حَسَنٌ، وحديثُ زَيد بن ثابتٍ حديثٌ حَسَنٌ .

وأخرَجَ الحاكمُ في « صحيحه »[٢] حديثَ جُبير بن مُطعِم والنُّعمان بن بشير .

وقال في حديث جُبير: على شرط البخاري ومسلم .

ولو لم يكُن في فَضلِ العلمِ إلّا هذا وَحدَهُ لكفى به شرفًا؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا لمَن سمعَ كلامَهُ ووعاهُ ، وحَفِظَهُ وبلَّغهُ .

وهذه هي مراتبُ العلمِ :

أوَّلها وثانيها : سماعهُ وعَقْلُهُ ؛ فإذا سمعهُ وعاهُ بقلبهِ؛ أي : عَقَلَهُ واستقرَّ في قلبهِ كما يَستقرُّ الشيءُ الذي يُوعى في وعائه ولا يَخرُجُ منه، وكذلكَ عَقْلُهُ هو بمنزلَةِ عَقْلِ البَعيرِ والدَّابَّة ونحوها حتى لا تَشرُدَ وتَذهَبَ، ولهذا كانَ الوَعيُ والعَقْلُ قَدْرًا زائدًا على مُجرَّد إدراكِ المعلوم .

المرتبَة الثَّالثة : تعاهُدُه وحِفظُهُ حتى لا ينساهُ فيَذهَبُ .

المرتبَة الرَّابعَة : تبليغهُ وبثُّهُ في الأُمَّة ليَحصلَ به ثمرتُهُ ومقصودُهُ؛ وهو بثُّهُ

---

(١) لولا خشيةُ الإطالةِ والتكرار لخرَّجتُها جميعًا ، وانظر التعليق التالي .

(٢) (١ / ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨) .

وهذا الحديثُ متواترٌ ؛ فهو مرويٌّ عن بضعةٍ وعشرين صحابيًّا ، كما في « نظم المُتناثر » (ص ٢٤-٢٥) للكتّاني .

ولأُستاذنا الفاضل الشيخ عبدالمحسن العبّاد - حفظه اللهُ تعالى - دراسةٌ مفصَّلةٌ لهذا الحديث روايةً ودرايةً، وهي مطبوعةٌ .

في الأُمَّةِ، فهو بمنزلةِ الكَنزِ المدفونِ في الأرضِ الذي لا يُنْفَقُ منه وهو مُعرَّضٌ لذهابه، فإنَّ العلمَ ما لم يُنفَقْ منه ويُعلَّم فإنَّهُ يُوشِكُ أن يَذهَبَ، فإذا أُنفقَ منه نما وزكا على الإنفاق .

فَمَن قامَ بهذه المراتب الأربع دخَلَ تحتَ هذه الدَّعوَةِ النَّبويَّةِ المتضمِّنَةِ لجمالِ الظَّاهرِ والباطنِ، فإنَّ النَّضرَةَ هي البَهجَةُ والحسنُ الذي يُكساهُ الوجهُ من آثارِ الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القَلبِ وسرورِهِ والتذاذِهِ به ، فتُظهِرُ هذه البَهجَةُ والسُّرورُ والفَرحَةُ نضارَةً على الوجهِ، ولهذا يجمعُ له سبحانهُ بينَ السُّرور والنَّضرَة، كما في قوله تعالى : ﴿ فَوقاهُم الله شرَّ ذلكَ اليوم ولقَّاهُم نَضرَةً وسُرورًا ﴾ [الإنسان : ١١] .

فالنَّضرَةُ في وُجوهِهم، والسُّرورُ في قُلوبِهم، فالنَّعيمُ وطِيبُ القلبِ يُظهِرُ نضارَةً في الوجهِ ، كما قالَ تعالى : ﴿ تَعرفُ فِي وُجوهِهم نَضرَةَ النَّعيم ﴾ [المُطفِّفين : ٢٤] .

والمقصودُ أنَّ هذه النَّضرَةَ في وجهِ مَن سَمِعَ سُنَّةَ رسولِ اللَّهِ ﷺ - وَوَعاها وحَفِظها وبلَّغها - هي أثَرُ تلكَ الحلاوَةِ والبَهجَةِ والسُّرورِ الذي في قلبِهِ وباطنِهِ .

وقولُه ﷺ: « رُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه » ، تنبيهٌ على فائدَة التَّبليغ ، وإنَّ المبلَّغَ قَد يكونُ أفهَمَ من المبلِّغ، فيحصُلُ له في تلكَ المقالَةِ ما لم يحصُل للمبلِّغِ .

أو يكونُ المعنى : أنَّ المبلَّغ قَد يكونُ أفقهَ من المبلِّغ ، فإذا سمعَ تلكَ المقالَةَ حملها على أحسَنِ وجوهِها واستَنبَطَ فِقهَها وعَلمَ المُرادَ منها .

وقولُه ﷺ : « ثلاثٌ لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ ... » إلى آخِرِهِ ؛ أي : لا

يحملُ الغِلَّ ولا يَبقى فيه معَ هذه الثَّلاثَة؛ فإنَّها تنفي الغِلَّ والغِشَّ وفَسادَ القَلبِ وسخائمهُ، فالمُخلِصُ للَّه إخلاصُهُ يمنعُ غِلَّ قلبه ، ويُخرِجُهُ ويُزيلُهُ جملَةً ؛ لأنَّهُ قد انصَرَفَتْ دواعي قلبهِ وإرادتهِ إلى مَرضاةِ ربِّهِ، فلم يَبْقَ فيه موضعٌ للغِلِّ والغش، كما قال تعالى : ﴿ كذلكَ لِنَصرِفَ عنهُ السُّوءَ والفحشاءَ إنَّهُ من عبادِنا المُخلَصين ﴾ [يوسف : ٢٤] ، فلمَّا أخلَصَ لربِّه صَرَفَ عنه دواعي السُّوءِ والفحشاءِ .

ولهذا لمَّا علمَ إبليسُ أنَّهُ لا سَبيلَ له على أهلِ الإخلاصِ استثناهُم من شرطِتِه التي اشترطها للغوايَةِ والإهلاكِ ، فقال : ﴿ فَبِعزَّتكَ لأُغوينَّهُم أجمعين إلَّا عبادَكَ مِنهُم المُخلَصين ﴾ [ص : ٨٣]، قال تعالى : ﴿ إنَّ عبادي لَيسَ لكَ عَلَيهِم سُلطانٌ إلَّا مَن اتَّبعَكَ مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] .

فالإخلاصُ هو سبيلُ الخلاصِ ،والإسلامُ مركبُ السَّلامَة، والإيمانُ خاتَمُ الأمان .

وقولُه : « ومناصَحةُ أئمَّة المسلمين » ؛ هذا أيضًا مُنافٍ للغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ النَّصيحَةَ لا تُجامِعُ الغِلَّ، إذ هي ضدُّهُ، فمَن نَصَحَ الأئمَّة والأُمَّة فقَد بَرِئَ من الغِلِّ .

وقولُه : « ولزومِ جماعتِهم » ؛ هذا أيضًا ممَّا يُطَهِّر القَلبَ منَ الغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ صاحبَهُ - لِلُزومِهِ جماعَةَ المسلمين - يُحِبُّ لهم ما يُحبُّ لنفسِهِ، ويكرهُ لهم ما يكرَهُ لها ، ويسوؤهُ ما يسوؤهُم ، ويسرُّهُ ما يسرُّهُم .

وهذا بخلاف مَن انحازَ عنهم واشتَغَل بالطَّعنِ عليهم والعَيبِ والذَّمِّ؛ كفِعلِ **الرَّافضَةِ والخوارجِ والمعتَزلَةِ وغيرهم** ؛ فإنَّ قلوبَهُم مُمتلئةٌ غِلًّا وغِشًّا، ولهذا تجدُ الرَّافضَة أبعَدَ النَّاسِ من الإخلاصِ ، وأغشَّهم للأئمَّةِ والأُمَّة،

وأشدُّهُم بُعدًا عَن جماعَةِ المُسلمين .

فهؤلاء أشدُّ النَّاسِ غِلًّا وغِشًّا بشهادَةِ الرَّسولِ والأُمَّةِ عليهم، وشهادتِهم على أنفسهم بذلك، فإنَّهُم لا يكونونَ قطُّ إلَّا أعوانًا وظَهرًا على أهلِ الإسلامِ ، فأيُّ عدوٍّ قامَ للمُسلمين كانوا أعوانَ ذلك العدوِّ وبطانَتَهُ !

وهذا أمرٌ قَد شاهَدَتْهُ الأُمَّةُ منهم، ومَن لـم يُشاهِدْهُ فَقَد سمعَ منه ما يُصِمُّ الآذانَ ويُشجي القلوب .

وقولُه : « فإنَّ دعوتَهُم تحيطُ من ورائهم »؛ هذا من أحسَنِ الكلامِ وأوجَزِهِ وأفخمِهِ معنًى؛ شبَّهَ دعوَةَ المسلمين بالسُّورِ والسِّياجِ المُحيطِ بهم، المانعِ مِن دخولِ عدوِّهم عليهم، فتلكَ الدّعوَةُ التي هي دعوَةُ الإسلامِ - وهم داخلوها - لمّا كانَت سُورًا وسياجًا عليهم أخبَرَ أنَّ مَن لَزِمَ جماعَةَ المسلمين أحاطَتْ به تلكَ الدّعوَةُ التي هي دعوَةُ الإسلام كما أحاطَتْ بهم، **فالدَّعوَةُ تجمَعُ شملَ الأُمَّةِ وَتَلُمُّ شَعَثَها وتحيطُ بها، فمن دَخَلَ في جماعتها أحاطَت به وشَمِلَتْهُ .**

○ **الوجهُ الثاني والأربعون : [الأمر النَّبوي بتبليغ العلم] :**

أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَ بتبليغِ العلمِ عنه؛ ففي « الصَّحيحين » [1] من حديثِ عبدالله بن عَمرو ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ :« بلِّغوا عنِّي ولَو آيَةً، وحدِّثوا عَن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ ، ومَن كذَبَ عليَّ متعمِّدًا فليتَبَوَّأْ مقعَدَهُ من النَّار » .

وقال : « ليبلِّغ الشاهدُ منكُم الغائبَ »[2]، روى ذلك أبو بَكرَة ، ووابصَةُ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) .

ولم أرَهُ في « صحيح مُسلم » .

وانظر تعليقي على « جزء مَن كذب عَلَيَّ » (رقم : ٦٠) للطبراني .

(٢) هو قطعةٌ مِن حديث خُطبة حجّة الوداع ؛ وقد رواه البخاري (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) .

وانظر - مُجملًا - مسانيدَ رواتِه في « مجمع الزوائد » (١ / ١٣٩ و ٢٢٦) =

ابن مَعبَد ، وعمَّارُ بن ياسِر ، وعبداللَّه بن عُمر ، وعبداللَّهِ بن عبَّاسٍ ، وأسماء بنتُ يَزيدَ بن السَّكَن ، وحُجَيرٌ ، وأبو قُرَيعَ، وسَرَّاء بنتُ نبهان ، ومُعاوِيَة بن حَيْدَةَ القُشَيري ، وعمُّ أبي حَرَّةَ ، وغيرُهم .

فأمَرَ ﷺ بالتَّبليغ عنه لِمَا في ذلكَ من حُصولِ الهُدى بالتَّبليغ ، وله ﷺ أجرُ من بَلَّغَ عنه وأجرُ من قَبِلَ ذلكَ البلاغَ .

وكلَّما كَثُرَ التَّبليغُ عنه تضاعَفَ له الثَّوابُ ، فلهُ مِن الأجرِ بعَدَدِ كلِّ مُبلِّغٍ وكلِّ مُهتَدٍ بذلك البلاغِ سوى ما له من أجرِ عَمَلهِ المختَصِّ به، فكلُّ مَن هُدِيَ واهتَدى بتبليغهِ فلهُ الأجرُ، لأنَّهُ هو الدَّاعي إليه، ولو لـم يكُن في تبيلغ العلمِ عنه إلَّا حصولُ ما يُحِبُّهُ ﷺ لكفى به فضلًا .

وعلامَةُ الـمُحبِّ الصَّادقِ أن يَسعى في حُصولِ محبوبِ محبوبهِ ، ويبذلَ جهدَهُ وطاقَتَهُ فيها .

ومعلومٌ أنَّهُ لا شيءَ أحبُّ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ من إيصالهِ الهُدى إلى جميع الأُمَّة، فالمُبلِّغُ عنه ساعٍ في حُصولِ محابِّهِ، فهو أقرَبُ النَّاسِ منه وأحبُّهُم إليه ، وهو نائبُهُ وخليفتُهُ في أُمَّتهِ، وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلمِ وأهلهِ .

○ الوجهُ الثالث والأربعون : [التقديمُ بالعلم الشرعيِّ] :

أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدَّم بالفضائلِ العلميَّةِ في أعلى الولاياتِ الدِّينيَّة وأشرفها ، وقدَّمَ بالعلمِ الأفضَلَ على غيرهِ .

= و (٣ / ٢٦٩)، و « الدر المنثور » (٢ / ١٣ ، ٤٥)، و « إتحاف السادة المتَّقين » (١٠ / ٤٦٩)، و « البداية والنهاية » (٥ / ٣٢) ، و « إرواء الغليل » (٢ / ٢٣٣) .

فرَوى مسلمٌ في « صحيحه » (١) حَديثَ أبي مَسعود البَدريِّ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « يؤمُّ القَومَ أقرؤُهُم لكتابِ اللَّهِ ، فإنْ كانوا في القراءَةِ سواءً فأعلمُهُم بالسُّنَّةِ ، فإنْ كانوا في السُّنَّةِ سواءً فأقدَمُهم إسلامًا أو سنًّا ... » وذكرَ الحديث .

فقدَّمَ في الإمامَة تَفضيلَهُ العلمَ على تقدُّمِ الإسلامِ والهجرَةِ، ولـمَّا كانَ العلمُ بالقرآنِ أفضلَ من العلمِ بالسُّنَّةِ لِشَرَفِ معلومهِ على معلومِ السُّنَّة قُدِّمَ العلمُ به ، ثمَّ قُدِّمَ العلمُ بالسُّنَّة على تَقدُّم الهجرَة، وفيه من زيادَةِ العملِ ما هو مُتميِّزٌ به، لكنْ إنَّما راعى التَّقديمَ بالعلمِ ثمَّ بالعمل ، وراعى التَّقديمَ بالعلمِ بالأفضَل على غيرِهِ وهذا يدُلُّ على شَرَفِ العلمِ وفَضلهِ ، وأنَّ أهلَهُ هم أهلُ التَّقدُّم إلى المراتب الدِّينيَّة .

○ **الوجهُ الرابع والأربعون : [تعلُّم القرآن وتعليمُه] :**

ما ثَبَتَ في « صحيح البخاري » (٢) من حديثِ عثمان بن عفَّان رضيَ اللَّهُ عنهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « خَيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآن وعلَّمهُ » ، وتعلُّمُ القرآنِ وتعليمُهُ يتناولُ تعلُّمَ حروفِهِ وتعليمَها ، وتعلُّمَ معانيهِ وتعليمَها ، وهو أشرَفُ قِسْمَيْ تعلُّمهِ وتعليمهِ؛ **فإنَّ المعنى هو المقصودُ ، واللفظُ وسيلةٌ إليه** ، فتعلُّمُ المعنى وتعليمُهُ تعلُّمُ الغايَةِ وتَعليمها ، وتعلُّمُ اللفظِ المُجرَّدِ وتعليمُهُ تعلُّمُ الوسائلِ وتعليمُها ، وبينهما كما بينَ الغاياتِ والوسائلِ !

---

(١) (برقم ٦٧٣) .
(٢) (برقم ٥٠٢٧) .

○ الوجهُ الخامس والأربعون : [طلب العلم حتّى الممات] :

ما رواهُ [الحاكم في « المستدرك » (١) – وقال : على شرط الشيخين – مِن حديث أَنس – رضي اللهُ عنه – عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : « مَنْهومانِ لا يشبعانِ : مَنْهومٌ في العلم لا يشبعُ منه ، ومَنْهُومٌ في الدنيا لا يشبعُ منها »] .

فجعَلَ النَّبيُّ ﷺ النَّهمَةَ في العلمِ وعَدمَ الشِّبَعِ منه من لوازِمِ الإيمانِ وأوصافِ المؤمنينَ، هذا لا يَزالُ دَأْبَ المؤمنِ حتى دخولِهِ الجنَّة، ولهذا كانَ أئمَّةُ الإسلامِ إذا قيلَ لأحدهم: إلى متى تطلب العلم ؟ فيقول : إلى المَمات !

قال نُعَيمُ بن حمَّادٍ : سمعتُ عبدَاللّه بن المُبارك رضيَ اللَّهُ عنه يقول – وقَد عابَهُ قومٌ في كثرَةِ طَلَبِهِ للحديث ؛ فقالوا له : إلى متى تسمع ؟ – قال : إلى المَمات !

وقال الحَسَنُ بن منصورٍ الجصَّاص(٢) : قلتُ لأحمَد بن حنبل رضيَ اللَّهُ عنه : إلى متى يكتُبُ الرَّجُلُ الحديثَ ؟ قال : إلى المَوت !

وقال عبدُاللّهِ بن محمَّد البَغوي : سمعتُ أحمَدَ بن حنبل رضيَ اللَّهُ عنهُ يقول : إنَّما أطلُبُ العلمَ إلى أن أدخلَ القبرَ .

وقال محمَّد بن إسماعيل الصَّائغُ : كنتُ أَصُوغُ معَ أبي بَبغداد، فمرَّ بنا أحمَدُ بن حنبل وهو يعدُو ، ونعلاه في يديه، فأَخَذَ أبي بمجامعِ ثوبِه، فقال : يا أبا عبداللّهِ ، ألا تَستَحي ! إلى متى تَعدو معَ هؤلاء ؟ قال : إلى المَوت !

---

(١) (١ / ٩٢) وفي سنده ضَعْفٌ ، لكنْ له طُرُقٌ وشواهدُ تُصَحِّحُهُ وتُقَوِّيه ، فانظر « مشكاة المصابيح » (٢٦٠) للتبريزي ، و « العلم » (١٤١) لأبي خيثمة ، كلاهما بتعليق شيخنا العلاّمة الألبانيّ وتحقيقهِ ، وسيأتي تخريجه مفصّلاً (ص ١٦٦) .

(٢) « طبقات الحنابلة » (١ / ١٤٠) ، وذَكَرَ هذا الخَبَرَ عنه .

وقال عبدُ اللَّهِ بن بِشرٍ الطَّالْقاني : أرجو أن يأتيَني أمرُ ربِّي والمِحبَرةُ في يدي، ولم يُفارِقْني القلمُ والمِحبَرَة !

وقال حُميدُ بن محمَّد بن يزيد البَصْري : جاءَ ابنُ بِسطام الحافظُ يسألُني عن الحديث ؟ فقلتُ له : ما أشدَّ حِرصَكَ على الحديث ! فقال : أَوَ ما أحِبُّ أن أكونَ في قِطارِ آلِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ ؟

وقيلَ لبعضِ العُلَماء : إلى متى يَحسُنُ بالمرءِ أن يتعلَّم ؟ قال : ما حسُنَت به الحياةُ .

وسُئِلَ الحَسَن عَن الرَّجُل له ثمانونَ سنةً : أَيَحسُنُ أن يطلبَ العلم ؟ قال : إن كان يَحسُنُ به أن يعيشَ[1].

○ الـــوجـــهُ السادس والأربعون : [الحكمة هي العلم] :

[روى ابنُ أَبي شيبة [2] عن أَبي بُردةَ ، قال : كانَ يُقالُ : « الحكمةُ ضالّة المؤمن ؛ يأخذُها إذا وجدها »] .

والحكمَةُ هي العلمُ؛ فإذا فَقَدَهُ المؤمنُ فهو بمنزلَةِ مَن فقَدَ ضالَّةً نفيسَةً مِن نفائسِهِ، فإذا وجَدَها قرَّ قلبُهُ وفَرِحَت نفسُهُ بِوِجدانها، كذلكَ المؤمنُ إذا وجَدَ ضالَّةَ قلبِهِ وروحِهِ التي هو دائمًا في طلبها ونِشدانها والتَّفتيش عليها .

وهذا من أحسَنِ الأمثلَةِ؛ فإنَّ قلبَ المؤمنِ يطلبُ العلمَ حيثُ وجَدَهُ أعظمَ

---

(١) فالعلمُ بالكتابِ والسُّنَّـةِ هو الحياةُ الحقَّةُ ، لا مُجرّد الحَرَكةِ والتنفُّسِ والكلامِ !!

(٢) في « المصنّف » (١٤ / ٥١) .

وانظر « جامع بيان العلم وفضله » (٦٢١) و « العلم » (١٥٧) لأَبي خيثمة ، و « الحلية » (٣ / ٣٥٤) .

مِن طَلَبِ صاحبِ الضَّالَّةِ لها .

○ الوجهُ السابع والأربعون : [العلم من علامات الإيمان] :

قال التِّرمذي [١]: حدَّثنا أبو كُرَيبٍ : حدَّثنا خَلَفُ بن أيوبَ ، عن عوفٍ ، عن ابنِ سيرينَ ، عن أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنه عن النَّبي ﷺ : « خَصلتانِ لا يجتمعان في مُنافقٍ : حُسْنُ سَمْتٍ وفِقهٌ في الدِّين ».

وهذه شهادَةٌ بأنَّ مَن اجتمعَ فيه حُسنُ السَّمتِ والفِقهُ في الدِّين فهو مؤمنٌ .

وأحرى بهذا الحديثِ أن يكونَ حقًّا [٢]، فإنَّ حُسنَ السَّمتِ والفِقهَ في الدِّين من أخصِّ علاماتِ الإيمانِ، ولن يجمعَهما اللَّهُ في مُنافق؛ فإنَّ النِّفاق يُنافيهما ويُنافيانِهِ .

○ الوجهُ الثامن والأربعون : [الوصيّة بطلَّابِ العلمِ] :

أنَّ النَّبيَّ ﷺ أوصى بطلبةِ العلمِ خيرًا وما ذاكَ إلّا لفَضلِ مطلوبهم وشرفِهِ :

قال التِّرمذي [٣]: حدَّثنا سفيانُ بن وكيعٍ : حدَّثنا أبو داود الحُفْري ، عن

---

(١) (برقم ٢٦٨٥) .
وقد خرَّجته مُنفَصِلًا إلى تحسينه في رسالتي « الأربعون حديثًا في الشخصيَّة الإسلامية » (رقم ٢٢) .

(٢) قارن بِـ « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (١ / ٥٠١) لشيخنا الألباني .

(٣) في « سننه » (برقم ٢٦٥٠)، وابن ماجه (٢٤٧) و (٢٤٩)، وعبدالرزاق (١١ / ٢٥٢) ، والبغوي (١٣٤)، وابن أبي حاتم في « تقدمة الجرح والتعديل » (٢ / ١٢) .
وفي إسنادِهِ أبو هارون العبدي، وهو متروكٌ .
وقد ثَبَتَتْ روايةٌ مختصرةٌ لهذا الحديثِ ، فانظرها في « سِلسلة الأَحاديث الصحيحة » (رقم : ٢٨٠) .

سُفيان ، عن أبي هارون ، قال : كنَّا نأتي أبا سعيدٍ فيقول : مرحبًا بوصيَّةِ رسولِ اللَّه ﷺ ، إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « إنَّ النَّاس لكُم تَبَعٌ، وإنَّ رجالًا يأتونَكُم من أقطارِ الأرضِ يتفقَّهون في الدِّين، فإذا أتَوْكُم فاستَوصوا بهم خيرًا » .

- حدَّثنا قتَيبَةُ : حدَّثنا روحُ بن قَيسٍ ، عَن أبي هارون العَبديِّ ، عن أبي سَعيد الخُدْريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : « يأتيكُم رجالٌ من قِبَلِ المشرق يتعلَّمونَ، فإذا جاؤوكُم فاستَوصوا بهم خَيرًا » .

فكانَ أبو سَعيدٍ إذا رآنا قال : مرحبًا بوصيَّةِ رسولِ اللَّه ﷺ .

○ **الوجه التاسع والأربعون : [طلبُ العلم من أفضل الحسنات] :**

فَطَلَبُ العلمِ من أفضَلِ الحَسناتِ، والحَسناتُ يُذهِبْنَ السيِّئات، فجديرٌ أن يكونَ طَلَبُ العلمِ ابتغاءَ وجه اللَّهِ يُكفِّرُ ما مَضى من السَّيِّئات، فَقَد دلَّتِ النُّصوصُ أنَّ إتْباعَ السَّيِّـئـةِ الحسنَةَ تَمْحوها ، فكيفَ بما هو من أفضَلِ الحَسناتِ وأجلِّ الطَّاعاتِ !

وقد رُوي عن عُمر بن الخطَّاب رضي اللَّهُ عنه : « إنَّ الرجلَ لَيخرجُ مِن منزلِهِ وعليه مِن الذنوبِ مثلُ جَبَل تِهامةَ ، فإذا سَمِعَ العلمَ خاف ورَجَعَ وتابَ ، فانْصَرَفَ إلى منزلِه وليس عليه ذَنْبٌ ، فلا تُفارقوا مجالسَ العُلَماءِ » .

○ **الوجهُ الخمسون : [مُباهاة الملائكة بطلبة العلم] :**

أنَّ اللَّهَ تبارَكَ وتعالى يُباهي ملائكتَهُ بالقَومِ الذينَ يتذاكرونَ العلمَ ويَذكرونَ اللَّهَ ويَحمَدُونهُ على ما منَّ عليهم به منه :

قال التِّرمذيُّ (١): حدَّثنا محمَّد بن بشارٍ : حدَّثنا مرحومُ بن عبدالعزيز

---

(١) (برقم ٣٣٧٩) .
وروى الحديثَ - أيضًا - الإمامُ مسلم في « صحيحه » (٢٧٠١) .

العطَّار : حدَّثنا أبو نَعَامَةَ ، عن أبي عثمان ، عن أبي سَعيد ، قال : خَرَجَ مُعاويَةُ إلى المسجد فقال : « ما يُجلِسكُم ؟ قالوا : جَلَسنا نذكُرُ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ، قال : آللَّهِ ما أجلَسَكُم إلّا ذلك ؟! قالوا : آللَّهِ ما أجلَسَنا إلّا ذلك، قال : أمَا إنِّي لم أستحلفكُم تُهمَةً لكُم، وما كانَ أحدٌ بمنزلتي من رسولِ اللَّهِ ﷺ أقلَّ حديثًا عنه منِّي؛ إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ على حَلْقةٍ من أصحابهِ ، قال: ما يُجلِسكُم ؟ قالوا : جلَسنا نَذكُرُ اللَّهَ ونحمَدُهُ لِمَا هدانا للإسلام ومنَّ علينا بك، قال : آللَّهِ ما أجلسَكُم إلّا ذلك ؟! قالوا : آللَّهِ ما أجلَسَنا إلّا ذلك، قال : أمَا إنِّي لم أستحلفْكُم تُهمَةً لكُم؛ إنَّهُ أتاني جبريلُ فأخبَرَني أنَّ اللّهَ تعالى يُباهي بكُم الملائكَة » .

فهؤلاء كانوا قَد جَلَسوا يحمَدونَ اللَّهَ بذكرِ أوصافهِ وآلائهِ، ويُثنونَ عليهِ بذلكَ، ويَذكُرونَ حُسنَ الإسلامِ، ويَعترفونَ للَّهِ بالفَضلِ العَظيمِ إذ هداهُم له ومنَّ عليهم برسولهِ .

وهذا أشرَفُ علمٍ على الإطْلاق ، ولا يُعنى به إلّا الرَّاسخونَ في العلمِ؛ فإنَّهُ يتضمَّنُ معرفَةَ اللَّهِ وصفاتهِ وأفعالهِ ودينِهِ ورسولِه، ومحبَّةَ ذلكَ وتعظيمَه والفَرحَ به، وأحرى بأصحابِ هذا العلمِ أن يُباهيَ اللَّهُ بهم الملائكَة .

وقد بشَّرَ النَّبيُّ ﷺ الرَّجلَ الذي كانَ يُحبُّ سورَةَ الإخلاص ، وقال : أُحبُّها لأنَّها صفَةُ الرَّحمن عَزَّ وجلَّ؛ فقال: « حُبُّكَ إيَّاها أدخَلَكَ الجنَّة »[1].

---

(١) علّقه البخاري (٧٧٤) ، ووصله أحمد (٣ / ١٤١ و ١٥٠) ، والترمذي (٢٩٠) ، والدارمي (٢ / ٤٦٠) ، وأبو يعلى (٣٣٣٦) ، وابن حبان (٧٩٢) عن أنس بسند حسن .

وفي لفظٍ آخَر : « أخبِروهُ أنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ » [(١)]؛ فدلَّ على أنَّ من أحبَّ صفاتِ اللَّهِ أحبَّهُ اللَّه وأدخَلَهُ الجنَّة .

والجهميَّةُ[(٢)] أشدُّ النَّاسِ نَفرَةً وتنفيرًا عن صفاتِهِ ونعوتِ كمالِهِ ، يُعاقِبونَ ويذُمُّونَ مَن يَذكرُها ويقرؤها ويجمعُها ويعتني بها، ولهذا لهم المَقْتُ والذَّمُّ عندَ الأئمَّة وعلى لسانِ كلِّ عالمٍ من علماءِ الإسلامِ ، واللَّهُ تعالى أشدُّ بُغضًا ومَقْتًا لهم ؛ جزاءً وفاقًا .

○ الوجهُ الحادي الخمسون : [البصيرةُ والعلمُ والاتّباع] :

أنَّ أفضلَ منازلِ الخلقِ عندَ اللَّهِ منزلَةُ الرِّسالَة والنُّبوَّة؛ فاللَّهُ يَصطفي من الملائكَة رُسلًا ومنَ النَّاسِ، وكيفَ لا يكونُ أفضلَ الخَلقِ عندَ اللَّهِ مَن جعلَهُم وسائطَ بينَهُ وبينَ عبادِهِ في تبليغِ رسالاتِهِ وتَعريفِ أسمائِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ ومراضيهِ ومساخطِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ !؟ وخصَّهُم بوَحيِهِ ، واختصَّهُم بتَفضيلِهِ ، وارتضاهُم لرسالتِهِ إلى عبادِهِ ، وجَعَلَهُم أزكى العالَمين نفوسًا، وأشرفَهم أخلاقًا، وأكملَهم علومًا وأعمالًا، وأحسنَهم خِلقَةً، وأعظمَهم محبَّةً وقَبولًا في قلوبِ النَّاسِ ، وبرَّأهُم من كلِّ وَصمٍ وعَيبٍ ، وكلِّ خُلُقٍ دَنيءٍ، وجَعَلَ أشرَفَ مراتبِ النَّاسِ بَعدَهُم مَرتَبَةَ خلافتِهم ونيابتِهم في أُمَمِهِم ؛ فإنَّهُم يخلُفونَهُم على منهاجِهم وطريقِهم ؛ من نصيحتهم للأُمَّة ، وإرشادِهم الضَّالَّ ، وتعليمهم الجاهلَ ، ونَصرهم المظلومَ ، وأَخْذِهم على يَدِ الظَّالم، وَأَمْرِهم بالمعروفِ وفعلِهِ ونَهيِهم عن المُنكَرِ وتَركِهِ، والدَّعوَةِ إلى اللَّهِ بالحِكمَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥) ، ومسلم (٨١٣) عن عائشة .

(٢) ومِثلُهم أفراخُهم مِن مُعَطِّلةِ العصرِ ومُؤَوِّلةِ آخِرِ الزَّمان !!

للمُستجِيبين، والموعظَةِ الحسَنَةِ للمُعرِضينَ والغافلينَ، والجدالِ بالتي هي أحسنُ للمُعاندينَ المُعارضينَ .

فهذه حالُ أتْباعِ المُرسَلين وَوَرَثَةِ النَّبيِّين ؛ قال تعالى : ﴿ قُل هذه سبيلي أدعو إلى اللهِ على بَصيرَةٍ أنا وَمَن اتَّبَعني ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وسواءٌ كانَ المعنى: أنا ومَن اتَّبعني على بَصيرَةٍ وأنا أدعو إلى اللَّهِ، أو المعنى : أدعو إلى اللَّهِ على بَصيرَةٍ، فالقولان مُتلازمان؛ فإنَّه لا يكون مِن أتباعه حقًّا إلّا مَن دعا على بصيرةٍ، كما كانَ متبوعُهُ يفعلُ .

فهؤلاء خُلَفاءُ الرُّسل حقًّا، ووَرَثَتُهُم دونَ النَّاس، وهم أُولو العلمِ الذينَ قاموا بما جاءَ به عِلْمًا وعَمَلًا وهدايةً وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، هؤلاء هم الصدِّيقون، وهم أفضَلُ أتباعِ الأنبياء، ورأسُهم وإمامُهُم الصِّدِّيق الأكبرُ أبو بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنه .

قال تعالى : ﴿ ومَن يُطِع اللهَ والرَّسولَ فأُولئكَ معَ الَّذينَ أنعَمَ اللهُ عَليهم مِنَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رَفيقًا ذلكَ الفَضلُ مِنَ اللهِ وكفى باللهِ عليمًا ﴾ [النساء : ٦٩]، فذكرَ مراتبَ السُّعداء وهي أربعةٌ، وبدأ بأعلاهم مرتبَةً، ثمَّ الذينَ يَلونَهُم، إلى آخرِ المراتبِ .

وهؤلاء الأربَعةُ هم أهلُ الجنَّةِ الذينَ هم أهلُها، جَعَلَنا اللَّهُ منهم بمَنِّهِ وكرمِهِ .

○ الوجهُ الثاني والخمسون : [التميُّز بالعلم] :

أنَّ الإنسانَ إنَّما يُمَيَّزُ على غيرِهِ من الحيواناتِ بفضيلَةِ العلمِ والبيانِ، وإلّا فَغيرُهُ مِن الدَّوابِّ والسِّباعِ أكثَرُ أكلًا منه، وأقوى بَطْشًا ، وأكثَرُ جِماعًا وأولادًا،

وأطولُ أعمارًا، وإنَّما مُيِّزَ على الدَّوابِّ والحيواناتِ بعلمهِ وبيانهِ، فإذا عُدِمَ العلمُ بقيَ معهُ القَدْرُ المُشتركُ بينه وبينَ سائرِ الدَّوابِّ؛ وهي الحيوانيَّة المَحْضَة، فلا يَبقى فيه فَضلٌ عليهم، بل قَد يبقى شرًّا منهم؛ كما قال تعالى في هذا الصِّنفِ من النَّاس : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عندَ اللهِ الصُّمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يَعقلونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢] ، فهؤلاء هم الجُهَّال ؛ ﴿ ولو علمَ الله فيهم خَيرًا لأسمعهم ﴾ [الأنفال : ٢٣]، أي: ليسَ عندهم محلٌّ قابلٌ للخَيرِ، ولو كان محلُّهم قابلًا للخَيرِ ﴿ لأسمعهم ﴾ أي : لأفهَمَهُم، فالسَّمعُ ههنا سَمْعُ فَهمٍ ، وإلَّا فَسَمْعُ الصَّوتِ حاصلٌ لهم ، وبه قامَتْ حُجَّةُ اللَّهِ عليهم؛ قال تعالى : ﴿ ولا تَكونوا كَالَّذينَ قالوا سَمِعْنا وهُم لا يَسْمَعون ﴾ [الأنفال : ٢١]، وقال تعالى : ﴿ ومَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الَّذي يَنعِقُ بِما لا يَسمَعُ إلَّا دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهُم لا يَعقِلون ﴾ [البقرة : ١٧١] .

وسواءٌ كانَ المعنى : ومَثَلُ داعي الذين كفروا كَمَثَلِ الذي ينعقُ بما لا يَسمعُ من الدواب إلَّا أصواتًا مجرَّدَةً، أو كانَ المعنى : وَمَثَلُ الذينَ كفروا حينَ يُنادَونَ كَمَثَلِ دوابٍّ الذي يَنعقُ بها فلا تسمعُ إلَّا صوتَ الدُّعاءِ والنِّداء، فالقَولان مُتلازمان ، بل هما واحدٌ، وإنْ كانَ التَّقديرُ الثَّاني أقربَ إلى اللَّفظِ وأبلغَ في المعنى؛ فعلى التَّقديرين لم يحصُل لهم من الدَّعوَة إلَّا الصَّوتُ الحاصلُ للأنعامِ .

فهؤلاء لم يحصُل لهم حقيقةُ الإنسانيَّة التي يُمَيَّزُ بها صاحبُها عن سائرِ الحيوانِ .

والسَّمعُ يرادُ به إدراكُ الصَّوت، ويُرادُ به فَهمُ المعنى، ويرادُ به القَبولُ

والإجابَةُ، والثَّلاثةُ في القرآن :

فَمِنَ الأوَّل : قوله : ﴿ قَد سَمِعَ الله قولَ التي تُجادِلُكَ في زَوجِها وتَشتكي إلى اللهِ واللهُ يَسمَعُ تحاوُرَكما إنَّ الله سميعٌ بَصيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] ، وهذا أصرَحُ ما يكونُ في إثباتِ صفَةِ السَّمعِ؛ ذَكَرَ الماضيَ والمُضارعَ واسمَ الفاعل : ﴿ سَمِعَ ﴾ و ﴿ يسمعُ ﴾، وهو ﴿ سميعٌ ﴾، وله السَّمْعُ ؛ كما قالت عائشَةُ رضيَ اللَّهُ عنها : الحمدُ للَّهِ الذي وَسِعَ سَمعُهُ الأصواتَ، لَقَد جاءَت المجادِلَة تشكو إلى رَسول اللَّهِ ﷺ وأنا في جانبِ البَيتِ ، وإنَّهُ ليَخفى عليَّ بعضُ كلامِها ، فأنزَلَ اللَّهُ[1]: ﴿ قَد سَمِعَ الله قولَ التي تُجادلُكَ في زَوجها ﴾ [المجادلة : ١] .

والثَّاني : سمعُ الفَهمِ؛ كقوله : ﴿ ولو عَلِمَ الله فيهم خَيرًا لأسمَعَهُم ﴾ [الأنفال : ٢٣]، أي : لأَفْهَمَهُم : ﴿ ولو أسْمَعَهُم لتَولَّوْا وهُم مُعرِضونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ؛ لِمَا في قلوبهم من الكِبرِ والإعْراضِ عَن قَبُولِ الحقِّ ، ففيهم آفتانِ :

إحداهما : أنَّهُم لا يَفهمونَ الحقَّ **لجهلهم**، ولو فَهموهُ لتولَّوا عنه وهم مُعرِضونَ عنه **لكِبْرِهم**[2]، وهذا غايةُ النَّقصِ والعَيبِ .

الثَّالث : سمعُ القَبولِ والإجابَةِ؛ كقولِه تعالى : ﴿ لو خَرَجوا فيكُم ما

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ٣٧٢) تعليقًا مجزومًا به .

وَوَصَلَهُ أحمد (٦ / ٤٦)، والنسائي (٦ / ١٣٧)، وابن ماجه (١٨٨) و (٢٠٦٣)، والواحدي (ص ٤٠٨)، وابن جرير (٢٨ / ٥) .

وسنده صحيح .

(٢) وهي الآفةُ الثانيةُ ، فالأُولى : الجهلُ ، والثانيةُ : الكِبرُ .

زادوكُم إلّا خَبالًا وَلَأَوْضَعوا خِلالَكُم يَبغونَكُم الفتنَةَ وفيكُم سمَّاعونَ لهُم ﴾ [التوبَة : ٤٧]، أي : قابِلونَ مُستجيبونَ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ سمَّاعونَ للكَذِبِ ﴾ [المائدة : ٤١] ، أي : قابلونَ له مُستجيبونَ لأهلِهِ ، ومنه قولُ المُصَلِّي : سمعَ اللّهُ لمنَ حَمِدَه ؛ أي : أجابَ اللّهُ حَمْدَ مَن حَمِدَه ، ودُعاءَ من دَعاهُ، وقولُ النَّبيِّ ﷺ : « إذا قالَ الإمامُ: سَمِعَ اللّهُ لِمَن حَمِدَه، فقولوا : ربَّنا ولكَ الحَمدُ ، يَسمعِ اللّهُ لكُم »(١) أي : يجيبكُم .

والمقصودُ أنَّ الإنسانَ إذا لم يكُن له علمٌ بما يُصلِحُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ كانَ الحيوانُ البَهيمُ خَيرًا منه لسلامَتِهِ في المعاد ممَّا يُهلِكُهُ دونَ الإنسان الجاهل .

○ الوجهُ الثالث والخمسون : [العلمُ حاكمٌ على ما سواه] :

أنَّ العلمَ حاكمٌ على ما سواهُ ، ولا يَحكُم عليه شيءٌ، فكلُّ شيءٍ اختُلِفَ في وجودِهِ وعَدمِهِ وصحَّتِهِ وفسادِهِ ومنفعتِهِ ومضرَّتِهِ ورُجحانِهِ ونُقصانِهِ وكمالِهِ ونَقصِهِ ومَدحِهِ وذمِّهِ ومرتبتِهِ في الخيرِ وَجَوْدَتِهِ ورداءَتِهِ وقُرْبِهِ وبُعْدِهِ وإفضائِهِ إلى مَطْلوبِ كذا، وعَدمِ إفْضائِهِ، وحُصولِ المقصودِ به، وعَدَمِ حُصولِهِ، إلى سائرِ جهاتِ المعلومات؛ فإنَّ العلمَ حاكمٌ على ذلكَ كُلِّهِ، **فإذا حَكَمَ العلمُ انقَطَعَ النِّزاعُ وَوَجَبَ الاتِّباعُ**، وهو الحاكمُ على الممالكِ والسِّياساتِ والأموالِ والأقلامِ ، فَمُلكٌ لا يتأيَّدُ بعلمٍ لا يقومُ، وسيفٌ بلا علمٍ مِخراقُ لاعِبٍ، وقَلَمٌ بلا علمٍ حركةُ عابثٍ، والعلمُ مُسلَّطٌ حاكمٌ على ذلكَ كلِّهِ ، ولا يحكُم شيءٌ من ذلكَ على العلم .

---

(١) رواه مسلم (٤٠٤) عن أبي موسى الأشعري .

وقد اختُلِفَ في تفضيلِ مِدادِ العلماء على دمِ الشهداء وعكسهِ [1]، وذُكِرَ لكلٍّ قولٍ وجوهٌ من التراجيح والأدلَّة !!

ونفسُ هذا النِّزاعِ دليلٌ على تفضيلِ العلمِ ومرتبتِهِ؛ فإنَّ الحاكمَ في هذه المسألة هو العلمُ، فبهِ وإليهِ وعندَهُ يقعُ التَّحاكُم والتَّخاصُم، والمُفَضَّلُ منهما مَن حُكِمَ له بالفَضل .

فإنْ قيلَ : فكيفَ يُقبَلُ حُكمُهُ لنَفسِهِ ؟

قيلَ : وهذا أيضًا دليلٌ على تفضيلِهِ وَعُلُوِّ مرتبتِهِ وشرفِهِ؛ فإنَّ الحاكمَ إنَّما لم يسُغ أن يحكُمَ لنفسِهِ لأجلِ مَظِنَّةِ التُّهمَة، والعلمُ لا تلحقُهُ تُهمةٌ في حُكمِهِ لنفسِهِ، فإنَّهُ إذا حكمَ حكمَ بما تَشهَدُ العقولُ والنَّظرُ بصحَّتهِ، وتتلقَّاهُ بالقَبولِ، ويستحيلُ حُكمُهُ لتهمَةٍ ، فإنَّهُ إذا حكمَ بها انعزَلَ عن مرتبتِهِ، وانحطَّ عن درجتِهِ ، فهو الشاهدُ المُزكِّي المُعَدِّل، والحاكمُ الذي لا يجورُ ولا يُعزَلُ .

فإنْ قيلَ : فماذا حُكمُه في هذه المسألةِ التي ذكرتموها ؟

قيل : هذه المسألةُ كثُرَ فيها الجِدالُ واتَّسعَ المجالُ، وأدلى كلٌّ منهما بحُجَّتِهِ واستَعلى بمرتبتِهِ، والذي يَفصلُ النِّزاعَ ويعيدُ المسألَةَ إلى مواقع الإجماع الكلامُ في أنواعِ مراتبِ الكمالِ ، وذِكْرُ الأفضلِ منها ، والنَّظرُ في أيِّ هذين الأمرين أولى به وأقربُ إليه ؟!

فهذه الأُصولُ الثَّلاثَةُ تُبيِّنُ الصَّواب ، ويقعُ بها فَصلُ الخطاب .

فأمَّا مراتبُ الكمالِ فأربعٌ : النُّبوَّةُ ، والصِّدِّيقيَّةُ ، والشَّهادَةُ ، والوِلايَةُ، وقَد

---

(١) وفي ذلك أحاديث ؛ لكنّها لا تصحّ ، فانظر « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ٣٦)، و « العلل المتناهية » (١ / ٧٢) ، و « إتحاف السادة المتقين » (١ / ٤١) .

ذكرها اللَّهُ سبحانهُ في قولِه تعالى : ﴿ ومَن يُطِع الله والرَّسولَ فأولئكَ معَ الَّذينَ أنعَمَ الله علَيهِم من النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقًا ذلكَ الفَضلُ منَ اللهِ وكفى باللهِ عليمًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وَذَكَرَ تعالى هؤلاء الأربعَ في سورَة الحديدِ ؛ فذكَرَ تعالى الإيمانَ به وبرسولِهِ ، ثمَّ نَدَبَ المؤمنينَ إلى أن تخشعَ قلوبُهُم لكتابِهِ ووَحيِهِ ، ثمَّ ذكرَ مراتبَ الخلائقِ شقيِّهم وسعيدِهم ؛ فقال : ﴿ إنَّ المُصَّدِّقينَ والمُصَّدِّقاتِ وأقرَضوا الله قَرْضًا حَسَنًا يُضاعَفُ لهُم ولَهُم أجرٌ كريمٌ والَّذينَ آمَنوا باللهِ ورُسُلهِ أُولئكَ همُ الصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ عندَ ربِّهِم لهُم أجرُهُم ونورُهُم والَّذينَ كفَروا وكذَّبوا بآياتنا أولئكَ أصحابُ الجحيم ﴾ [الحديد : ١٨ - ١٩]، وذكرَ المُنافقينَ قبلَ ذلكَ .

فاستَوعَبَتْ هذه الآيَةُ أقسامَ العبادِ شقيِّهم وسعيدِهم .

والمقصودُ أنَّهُ ذكرَ فيها المراتبَ الأربعَةَ : الرِّسالَةَ والصِّدِّيقيَّةَ والشَّهادَةَ والوِلايَةَ :

فأعلى هذه المراتبِ النُّبوَّةُ والرِّسالَةُ، ويليها الصِّدِّيقيَّةُ، فالصِّدِّيقون هم أئمَّةُ أتْباعِ الرُّسل، ودرجتُهم أعلى الدَّرجاتِ بَعدَ النبوَّة، فإنْ جرَى قَلَمُ العالِمِ بالصدِّيقيَّة، وسالَ مِدادُهُ بها كانَ أفضَلَ من دَمِ الشَّهيد الذي لَم يلحقْهُ في رُتبَةِ الصِّدِّيقيَّة ، وإنْ سال دَمُ الشَّهيد بالصِّدِّيقيَّة وقَطَرَ عليها كان أفضلَ من مِدادِ العالِمِ الذي قصَّرَ عنها، فأفضلهُما صِدِّيقُهما، فإنِ استَويا في الصِّدِّيقيَّة استويا في المرتَبَةِ، واللَّهُ أعلم .

والصِّدِّيقيَّة : هي كمالُ الإيمان بما جاءَ به الرَّسولُ عِلْمًا وتَصديقًا وقيامًا

به، فهي راجعةٌ إلى نَفسِ العِلْمِ، فكلُّ مَن كانَ أعلمَ بما جاءَ به الرَّسولُ وأكملَ تَصديقًا لهُ كانَ أتمَّ صدِّيقيَّةً ، **فالصِّدِّيقيَّةُ شجرَةٌ أصولُها العلمُ ، وفروعُها التَّصديقُ، وثمرتُها العَملُ** .

فهذه كلماتٌ جامعةٌ في مسألةِ العالمِ والشَّهيد ، وأيُّهما أفضَل ؟!

○ **الوجهُ الرابع والخمسون : [الإيمان لا يكون إلّا بالعلم] :**

أنَّ النُّصوصَ النَّبويَّةَ قد تواتَرَتْ بأنَّ أفضَلَ الأعمالِ إيمانٌ باللّهِ[1]، فهو رأسُ الأمرِ، والأعمالُ بَعدَهُ على مراتبها ومنازلها .

والإيمان له رُكنانِ :

أحدُهما : معرفَةُ ما جاءَ به الرَّسولُ ، والعلمُ به .

والثَّاني : تَصديقُهُ بالقَولِ والعَمَلِ، والتَّصديقُ بدونِ العلمِ والمعرفَةِ مُحالٌ، فإنَّهُ فَرعُ العِلمِ بالشيءِ المُصَدَّقِ به، فإذًا ؛ العلمُ من الإيمانِ بمنزلَةِ الرُّوح من الجَسَدِ ، **ولا تَقومُ شجرَةُ الإيمانِ إلّا على ساقِ العلمِ والمَعرفَةِ**، فالعلمُ - إذًا - أجلُّ المطالبِ وأسنى المواهب .

○ **الوجهُ الخامس والخمسون : [صِفاتُ الكمال راجعةٌ إلى العلم] :**

أنَّ صفاتِ الكمالِ كلَّها تَرجعُ إلى العلمِ والقُدرَةِ والإرادةِ، والإرادَةُ فَرعُ العلمِ ؛ فإنَّها تستلزمُ الشعورَ بالمرادِ ، فهي مُفتَقِرَةٌ إلى العلمِ في ذاتِها وحَقيقتِها، والقُدرَةُ لا تؤثِّرُ إلّا بواسطَةِ الإرادَةِ، والعلمُ لا يَفتَقِر في تعلُّقهِ بالمعلوم إلى واحدَةٍ منهما، وأمَّا القُدرَة والإرادةُ فكلٌّ منهما يفتَقرُ في تعلُّقهِ بالمُرادِ والمَقدورِ إلى العلم ، وذلك يدُلُّ على فَضيلتهِ وشرفِ منزلتهِ .

---

(١) سيأتي - قريبًا - تخريجُ الحديثِ الواردِ في ذلك .

○ الوجهُ السادس والخمسون : [عموم العلم تعلُّقًا بالصِّفاتِ] :

أنَّ العلمَ أعمُّ الصِّفاتِ تعلُّقًا بمتعلَّقِهِ وأوسعها، فإنَّهُ يتعلَّقُ بالواجبِ والمُمْكِنِ والمُستحيلِ والجائزِ والموجودِ والمعدوم، فذاتُ الرَّبِّ سبحانهُ وصفاتُهُ وأسماؤهُ معلومةٌ له، ويَعْلَمُ العبادُ من ذلكَ ما علَّمهم العليمُ الخبيرُ .

وأمَّا القُدرَةُ والإرادَةُ فكلٌّ منهما خاصُّ التَّعلُّق؛ أمَّا القُدرَةُ فإنَّما تَتعلَّقُ بالمُمْكِنِ خاصَّةً ، لا بالمُستحيل ولا بالواجب، فهي أخصُّ من العلمِ من هذا الوجه، وأعمُّ من الإرادَةِ؛ فإنَّ الإرادَة لا تَتعلَّقُ إلّا ببعضِ المُمْكِناتِ وهو ما أُريدَ وجودُهُ، فالعلمُ أوسَعُ وأعمُّ وأشملُ في ذاتِهِ ومتعلَّقِهِ .

○ الوجهُ السابع والخمسون : [العُلماءُ هم الأَئِمَّة] :

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبرَ عن أهلِ العلمِ بأنَّهُ جَعَلَهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بأمرِهِ، ويأتمُّ بهم مَن بعدهم، فقال تعالى : ﴿ وجَعَلْنا مِنهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بأمرِنا لمَّا صَبَروا وكانوا بآياتنا يُوقِنون ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وقال في موضعٍ آخَرَ : ﴿ والَّذينَ يقولونَ ربَّنا هَبْ لنا مِن أزواجِنا وذُرِّيَّاتنا قُرَّةَ أعيُنٍ واجعَلْنا للمُتَّقينَ إمامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤]، أي : أئمَّةً يَقتدي بنا مَن بَعدَنا .

فأخبرَ سبحانهُ أنَّ بالصَّبرِ واليَقينِ تُنالُ الإمامَةُ في الدِّين[1] وهي أرفَعُ مراتبِ الصِّدِّيقين .

واليَقينُ هو كمالُ العلمِ وغايتُهُ، فبتكميلِ مرتبةِ العلمِ تحصُلُ إمامَةُ الدِّين ،

---

(١) وهذه كلمةٌ مِن مُهمّات كلمات شيخ الإسلام ابن تيمية، ينقلها عنه - ويُشهرها - تلميذُه المصنِّف رحمه الله ، وهي - بحدِّ ذاتها - منهجٌ علميٌّ دعويٌّ عظيمٌ .

وهي ولايةٌ آلتُها العلمُ، يختَصُّ اللَّهُ بها من يشاءُ من عبادهِ .

○ **الوجهُ الثامن والخمسون : [حاجة العباد إلى العلم] :**

أنَّ حاجَةَ العبادِ إلى العلمِ ضَروريَّةٌ فَوقَ حاجَةِ الجسم إلى الغذاء، لأنَّ الجسمَ يحتاجُ إلى الغذاء في اليومِ مرَّةً أو مرَّتين، **وحاجَةُ الإنسانِ إلى العلمِ بعَدَد الأنفاسِ**، لأنَّ كلَّ نَفَسٍ من أنفاسهِ فهو مُحتاجٌ فيه إلى أن يكونَ مُصاحِبًا لإيمانٍ أو حِكمَةٍ، فإنْ فارَقَهُ الإيمانُ أو الحكمَةُ في نَفَسٍ من أنفاسهِ فَقَد عَطِبَ، وقَرُبَ هلاكُهُ، وليسَ إلى حُصولِ ذلكَ سبيلٌ إلّا بالعلمِ، فالحاجَةُ إليه فوقَ الحاجَةِ إلى الطَّعام والشرابِ .

وقَد ذكَرَ الإمامُ أحمَد هذا المعنى بعَينهِ ، فقال : النَّاسُ أحوَجُ إلى العلمِ منهم إلى الطَّعام والشرابِ؛ لأنَّ الطَّعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليومِ مرَّةً أو مرَّتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كُلِّ وقتٍ[١] .

○ **الوجهُ التاسع والخمسون : [العلم قلّة عمل وكثرة أَجر] :**

أنَّ صاحبَ العلمِ أقلُّ تَعَبًا وعملًا وأكثرُ أجرًا .

واعتبِرْ هذا بالشاهد؛ فإنَّ الصُّنَّاعَ والأُجَراءَ يُعانونَ الأعمالَ الشاقَّةَ بأنفسِهم، والأُستاذُ المُعلِّمُ يجلسُ ، ويأمرُهُم وينهاهُم ويُريهم كيفيَّةَ العملِ ، ويأخذُ أضعافَ ما يأخذونَهُ .

وقد أشارَ النَّبيُّ ﷺ إلى هذا المعنى حيثُ قال : « **أفضلُ الأعمالِ إيمانٌ باللَّهِ، ثمَّ الجهادُ** »[٢].

---

(١) انظر « طبقات الحنابلة » (١ / ١٤٦) .

(٢) رواه مسلم (٨٤) عن أبي ذرّ .

وهو في « صحيح البخاري » (٢٥١٨) - عنه - بنحوه .

فالجهاد فيه بذلُ النفس وغايةُ المشقَّةِ ، والإيمانُ علمُ القَلبِ وعمَلُهُ وتَصديقُهُ، وهو أفضلُ الأعمالِ ، مع أنَّ مشقَّةَ الجهادِ فوقَ مشقَّتِهِ بأضعافٍ مُضاعَفَة ، وهذا لأنَّ العلمَ يُعَرِّفُ مقاديرَ الأعمال ومراتبَهَا ، فاضِلَها من مفضولِها ، وراجحَها من مرجوحِها ، فصاحبُهُ لا يختارُ لنفسهِ إلّا أفضلَ الأعمالِ، **والعاملُ بلا علمٍ يَظُنُّ أنَّ الفَضيلَةَ في كثرَةِ المشقَّة**، فهو يتحمَّلُ المشاقَّ وإنْ كانَ ما يُعانيه مفضولًا، ورُبَّ عملٍ فاضلٍ والمفضولُ أكثرُ مشقَّةً منه .

واعتَبِرْ هذا بحالِ الصِّدِّيق رضي اللَّه عنه فإنَّهُ أفضلُ الأُمَّة[1]، ومعلومٌ أنَّ فيهم مَنْ هو أكثرُ عملًا وحجًّا وصَومًا وصلاةً وقراءَةً منه، قال أبو بكر بن عيَّاش : ما سبقكُم أبو بكرٍ بكَثرَةِ صَومٍ ولا صَلاةٍ ، ولكنْ بشيءٍ وَقَرَ في قَلبِهِ[2].

وهذا مَوضعُ المثَلِ المشهور :

مَن لي بِمِثلِ سَيرِكَ المُدَلَّلِ   تَمشي رُوَيدًا وَتَجي في الأوَّلِ

○ **الوجهُ الستُّون** : [**العلم إمام العَمَل**] :

أنَّ العلمَ إمامُ العَمَلِ، وقائدٌ له، والعَمَلُ تابعٌ لهُ ومُؤتَمٌّ به ، فكلُّ عملٍ لا يكونُ خَلْفَ العلمِ مُقتديًا به فهو غَيرُ نافعٍ لصاحبِهِ، بل مَضَرَّةٌ عليه ، كما قالَ

---

(١) وهذه هي عقيدةُ أهل السنَّة والجماعة ، وأمَّا الشيعة الشنيعة ، فيأبى عليها (رَفْضُها) إلَّا نقضَ ذلك وردَّه !!

(٢) عزاه العراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ٢٣) للحكيم الترمذي من قول بكر بن عبداللّه المُزَني .

ثم قال : « ولم أجده مرفوعًا » .

وأشارَ الزَّبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (١ / ١٨٧) إلى عزو ابنِ القيّم الخَبَر لأبي بكر ابن عيّاش .

وانظر « الأسرار المرفوعة » (ص ٤٥٤) لعلي القاري .

بعضُ السَّلفِ : مَن عَبَدَ اللَّه بغَيرِ علمٍ كانَ ما يُفسِدُ أكثَرَ ممَّا يُصلحُ .

والأعمالُ إنَّما تتفاوَتُ في القَبولِ والرَّدِّ بحسَبِ مُوافقتها للعلمِ وَمُخالفتها له ، فالعملُ الموافقُ للعلمِ هو المقبولُ ، والمخالفُ له هو المردودُ .

فالعلمُ هو الميزانُ وهو المِحَكُّ؛ قال تعالى : ﴿ الَّذي خَلَقَ المَوتَ والحياةَ لِيَبلُوَكُم أيُّكم أحسَنُ عَمَلًا وهو العَزيزُ الغَفورُ ﴾ [المُلك : ٢] ؛ قال الفُضَيلُ بن عِياض : هو أخلَصُ العَمَل وأصوَبُهُ ، قالوا : يا أبا عليٍّ ، ما أخلصُهُ وأصوَبُهُ ؟ قال : إنَّ العمَلَ إذا كانَ خالصًا ولم يكُن صوابًا لم يُقبَلْ، وإذا كانَ صَوابًا ولم يكُن خالصًا لم يُقبَلْ حتى يكونَ خالصًا صَوابًا، **فالخالصُ أن يكونَ للَّهِ، والصَّوابُ أن يكونَ على السُّنَّة** [1]، وقَد قال تعالى : ﴿ فَمَن كانَ يَرجو لقاءَ ربِّهِ فَلْيَعمَلْ عملًا صالحًا ولا يُشرِكْ بعبادَةِ ربِّهِ أحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فهذا هو العَملُ المقبولُ الذي لا يقبَلُ اللَّهُ من الأعمالِ سواهُ؛ وهو أن يكونَ موافقًا لسنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، مُرادًا به وجهُ اللَّهِ .

ولا يتمكَّن العاملُ من الإتيانِ بعَمَلٍ يَجمَعُ هذين الوَصفَينِ إلّا بالعلمِ، فإنَّهُ إنْ لم يعلم ما جاءَ به الرَّسولُ لم يُمْكِنْهُ قَصدُهُ، وإنْ لم يعرفْ معبودَهُ لم يُمْكِنْهُ إرادتُهُ وحدَهُ ، فلولا العلمُ لَمَا كان عملُهُ مقبولًا ، **فالعلمُ هو الدَّليلُ على الإخلاص، وهو الدَّليلُ على المُتابَعَةِ**[2] .

وقَد قال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّما يَتَقبَّلُ الله مِنَ المُتَّقين ﴾ [المائدة : ٢٧] ،

---

(١) رواه أبو نُعَيم في « الحلية » (٨ / ٩٥) .

وانظر كتابي « علمِ أصول البدع » (ص ٦١) .

(٢) في غالب الأمر وعُظْمِه ، وقد يتخلّفُ هذا لِتَخَلُّفِ استواءِ العلمِ على قاعدة الكتاب والسُّنَّة ، فتنبَّهْ .

وأحسنُ ما قيلَ في تفسيرِ الآيَةِ ، أنَّهُ : إنَّما يتقبَّلُ عَمَلَ مَن اتَّقاهُ في ذلكَ العَمَلِ، وتَقواهُ فيه أن يكونَ لوجهِهِ على مُوافَقَةِ أمرِهِ، وهذا إنَّما يحصُلُ بالعلمِ .

وإذا كانَ هذا مَنزِلَ العلمِ وموقعَهُ عُلمَ أنَّهُ أشرَفُ شيءٍ وأجلُّهُ وأفضلُهُ، واللَّهُ أعلم .

○ **الوجهُ الحادي والستون : [العمل بِلا علم ، كالسير بلا دليلٍ] :**

أنَّ العاملَ بلا علمٍ كالسَّائرِ بلا دَليلٍ، ومعلومٌ أنَّ عَطَبَ مثلِ هذا أقرَبُ من سلامتِهِ، وإنْ قُدِّرَ سلامَتُهُ اتِّفاقًا نادرًا فهو غيرُ محمودٍ ، بل مذمومٌ عندَ العقلاء .

وكانَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّة يقول : **مَن فارَقَ الدَّليلَ ضلَّ السَّبيلَ**، ولا دَليلَ إلّا بما جاءَ به الرَّسولُ .

قال الحَسَنُ : العاملُ على غيرِ علمٍ كالسَّالكِ على غيرِ طريقٍ، والعاملُ على غيرِ علمٍ يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِحُ، فاطلبوا العلمَ طلبًا لا تضرُّوا بالعبادَة، واطلبوا العبادَةَ طلبًا لا تضرُّوا بالعلمِ؛ فإنَّ قومًا طلبوا العبادَة وتركوا العلمَ حتى خَرجوا بأسيافهم على أُمَّةِ محمَّد ﷺ، ولو طلبوا العلمَ لم يدُلَّهُم على ما فَعَلوا .

والفَرْقُ بينَ هذا الوجه وبينَ ما قبلَهُ : أنَّ العِلمَ مَرتَبتُهُ في الوجه الأول مرتبةُ المُطاعِ المتبوعِ المقتدى به المُتَّبعِ لحكمِهِ المُطاع أمرُهُ، ومرتبتُه في هذا الوجهِ مرتبةُ الدَّليل المُرشدِ إلى المَطلوبِ المُوصلِ إلى الغايَةِ .

○ **الوجهُ الثاني والستون : [الهداية هي العلم بالحقِّ] :**

أنَّ النَّبيَّ ﷺ ثَبَتَ في « الصَّحيح »[1] عنه أنَّهُ كانَ يقولُ : « اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السمواتِ والأرض، عالمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنتَ

---

(١) « صحيح مسلم » (برقم : ٧٧٠) .

تحكُمُ بينَ عِبادكَ فيما كانوا فيهِ يَختلفون، اهْدِني لِمَا اختُلِفَ فيهِ مِنَ الحقِّ بإذْنِكَ، إنَّكَ تَهدي مَن تشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم » .

وفي بعض « السُّنَن »[1] أنَّهُ كان يكبِّر تكبيرَةَ الإحرام في صلاةِ اللَّيل ، ثمَّ يَدعو بهذا الدُّعاء .

والهدايَةُ هي العِلْمُ بالحقِّ مع قَصدهِ وإيثارهِ على غيرِهِ، فالمُهتَدي هو العاملُ بالحقِّ المريدُ له، وهي أعظمُ نعمَةٍ للَّهِ على العَبدِ، ولهذا أمَرَنا سبحانهُ أن نسألَهُ هدايَةَ الصِّراطِ المُستقيمِ كُلَّ يومٍ وليلَةٍ في صلواتنا الخمس؛ فإنَّ العبدَ مُحتاجٌ إلى معرفَةِ الحقِّ الذي يُرضي اللَّهَ في كُلِّ حَرَكةٍ ظاهرَةٍ وباطنَةٍ، فإذا عَرَفها فهو مُحتاجٌ إلى من يُلهِمُهُ قَصدَ الحقِّ ، فيجعَلُ إرادتَهُ في قلبه، ثمَّ إلى مَن يُقدِّرُهُ على فعلهِ .

ومعلومٌ أنَّ ما يجهلُهُ العَبدُ أضعافُ أضعافِ ما يعلمُهُ، وأنَّ كلَّ ما يعلمُه أنَّهُ حقٌّ لا تُطاوِعُهُ نفسُهُ على إرادتهِ، ولولا إرادتُهُ لَعَجِزَ عن كثيرٍ منه ، فهو مُضْطرٌّ كلَّ وقتٍ إلى هدايَةٍ تتعلَّقُ بالماضي وبالحالِ والمُستقبل :

أمَّا **الماضي** فهو مُحتاجٌ إلى محاسبةِ نفسهِ عليه، وهل وَقَعَ على السَّدادِ؛ فيشكُرَ اللَّهَ عليه ويَستديمَهُ ؟ أم خَرَجَ فيه عن الحقِّ فيَتوبَ إلى اللَّهِ تعالى منه ، ويَستغفرَهُ ، ويَعزمَ على أن لا يَعودَ ؟

وأمَّا الهدايَةُ في **الحالِ** فهيَ مطلوبةٌ منه؛ فإنَّهُ ابنُ وقتِهِ ، فيحتاجُ أن يعلمَ حُكمَ ما هو مُتلبِّسٌ به من الأفعالِ؛ هل هو صَوابٌ أم خطأٌ ؟

وأمَّا **المُستقبلُ** فحاجتهُ فيه إلى الهدايَةِ أظهَرُ، ليكونَ سَيْرُهُ على الطَّريقِ .

---

(١) « سنن أبي داود » (٧٦٧) ، و « سنن الترمذي » (٣٤٢٠) ، و « سنن النسائي » (٣ / ٢١٢) ، و « سنن ابن ماجه » (١٣٥٧) وسندُه صحيحٌ .

○ الوجهُ الثالث والستون : [العلم حياة القلب والروح] :

أنَّ فضيلَةَ الشيءِ وشرفَهُ يظهَرُ تارةً من عُمومِ منفعتِهِ، وتارَةً من شدَّةِ الحاجَةِ إليه وعَدَمِ الاستغناءِ عنهُ، وتارَةً من ظهورِ النَّقصِ والشرِّ بفَقدِهِ، وتارةً من حُصولِ اللذَّةِ والسُّرورِ والبَهجَةِ بوجودِهِ، لكونهِ محبوبًا ملائمًا - فإدْراكُهُ يُعقِبُ غايَةَ اللذَّةِ - ، وتارةً من كمالِ الثَّمَرَةِ المترتِّبَةِ عليه وشرفِ علَّتِهِ الغائيَّةِ[1] وإفضائهِ إلى أجلِّ المطالبِ .

وهذه الوجوهُ ونحوُها تنشأُ وتظهرُ من مُتعلَّقِهِ؛ فإذا كانَ في نفسهِ كمالًا وشرفًا - بقطعِ النَّظرِ عن متعلَّقاته - جمعَ جهاتِ الشرفِ والفَضلِ في نفسهِ ومُتعلَّقاتِهِ .

ومعلومٌ أنَّ هذه الجهاتِ بأسْرِها حاصلَةٌ للعلمِ؛ فإنَّهُ أعمُّ شيءٍ نفعًا، وأكثرُهُ وأدوَمُهُ، والحاجَةُ إليهِ فوقَ الحاجَةِ إلى الغذاءِ، بل فوقَ الحاجَةِ إلى التَّنفُّسِ ؛ إذ غايَةُ ما يُتصوَّرُ من فَقْدِهما فَقْدُ حياة الجسم ، **وأمَّا فَقدُ العلمِ فَفيهِ فَقدُ حياةِ القَلبِ والرُّوحِ**؛ فلا غَناءَ للعَبدِ عنه طرفَةَ عَينٍ، ولهذا إذا فُقِدَ من الشخصِ كان شرًّا من الحمير، بل كانَ شرًّا من الدَّوابِّ عندَ اللَّهِ، ولا شيءَ أنقَصُ منه حينئذٍ .

وأمَّا حُصولُ اللذَّةِ والبَهجَةِ بوجودهِ؛ فلأنَّهُ كمالٌ في نفسهِ، وهو ملائمٌ غايَةَ الملاءَمَةِ للنُّفوسِ ؛ فإنَّ الجَهلَ مرضٌ ونَقصٌ ،وهو في غايَةِ الإيذاءِ والإيلامِ للنَّفسِ، ومَن لم يَشعُرْ بهذه المُلاءَمَةِ والمُنافَرَةِ فهو لِفَقدِ حِسِّهِ وموتِ نَفسِهِ :

.... وما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

---

(١) انظر شرحَها في تعليقي على كتاب « العُبوديّة » (ص ١١٠) لشيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله .

فحُصولُهُ للنَّفسِ إدراكٌ منها لغايَةِ محبوبها، واتِّصالٌ به، وذلك غايَةُ لذَّتِها وفَرحتِها، وهذا بحَسَبِ المعلومِ في نفسهِ، ومحبَّةِ النَّفسِ له ولذَّتِها بقُربهِ .

والعلومُ والمعلوماتُ مُتفاوتَةٌ في ذلكَ أعظمَ التَّفاوُتِ وأبيَنَهُ ، فليسَ علمُ النُّفوسِ بفاطرِها وباريها ومُبدِعها ومحبَّتهُ والتَّقرُّبُ إليه كعلمها بالطَّبيعَةِ وأحوالِها وعوارِضها وصحَّتِها وفسادِها وحركاتِها .

وهذا يتبيَّنُ بالوجه التَّالي :

○ **الوجهُ الرابع والستون : [شرف العلم تابعٌ لشرف المعلوم] :**

وهو أنَّ شرَفَ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومهِ ، ولوثوقِ النَّفسِ بأدلَّةِ وجودهِ وبراهينهِ، ولشدَّةِ الحاجَةِ إلى مَعرفَتهِ، وعِظَمِ النَّفعِ بها .

ولا رَيْبَ أنَّ أجلَّ معلومٍ وأعظَمَهُ وأكبَرَهُ فهو اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو ربُّ العالمين ، وقيُّومُ السَّمواتِ والأرضين ، المَلِكُ الحقُّ المُبين ، الموصوفُ بالكمالِ كلِّهِ، **المُنزَّهُ عن كلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، وعن كلِّ تَمثيلٍ وتَشبيهٍ في كمالِهِ .**

ولا رَيْبَ أنَّ العلمَ به وبأسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ أَجَلُّ العلومِ وأفضلُها، ونسبتُهُ إلى سائرِ العلومِ كنسبَةِ معلومهِ إلى سائرِ المعلوماتِ، وكما أنَّ العلمَ به أَجلُّ العلوم وأشرفُها فهو أصلُها كلِّها، كما أنَّ كلَّ موجودٍ فهو مُستَنِدٌ في وجودهِ إلى المَلِكِ الحقِّ المُبين ومُفتَقرٌ إليه في تحقُّقِ ذاتهِ وأينيَّتهِ ، وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلمِ به مفتقرٌ في تحقيقِ ذاته إليه، فالعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ، كما أنَّهُ سبحانهُ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ ومُوجِدُهُ .

ولا رَيبَ أنَّ كمالَ العلم بالسَّبَبِ التَّامِّ ، وكونَه سببًا يستلزمُ العلمَ بمُسبَّبه ، كما أنَّ العلمَ بالعلَّةِ التَّامَّةِ ومعرفَةَ كونِها علَّةً يستلزمُ العلمَ بمعلولِهِ، وكلُّ موجودٍ

سوى اللَّهِ فهو مُستنِدٌ في وجودِهِ إليهِ استنادَ المصنوعِ إلى صانعِهِ، والمفعولِ إلى فاعلِهِ .

فالعلمُ بذاتِهِ سبحانهُ وصفاتِهِ وأفعالِهِ يستلزمُ العلمَ بما سواه، فهو في ذاتِهِ ربُّ كُلِّ شيءٍ ومليكُهُ، والعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ ومنشؤهُ؛ **فَمَن عَرَفَ اللَّهَ عَرَفَ ما سواهُ، ومَن جَهِلَ ربَّهُ فهو لِمَا سواهُ أجهَل**[1]، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ **ولا تَكونوا كَالَّذينَ نَسُوا الله فأنساهُم أنفسَهُم** ﴾ [الحشر:١٩]، فتأمَّلْ هذه الآيَةَ تجدْ تحتها معنًى شريفًا عظيمًا وهو أنَّ من نَسيَ ربَّهُ أنساهُ ذاتَهُ ونَفسَهُ ، فلم يَعرِف حَقيقَتَهُ ولا مصالحَه ، بل نَسيَ ما به صلاحُهُ وفلاحُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ ، فصارَ مُعطَّلًا مُهمَلًا بمنزلةِ الأنعام السَّائمَة ، بل ربَّما كانَت الأنعامُ أخبَرَ بمصالحها منه لبقائها على هداها التامِّ الَّذي أعطاها إيَّاه خالقُها ، وأمَّا هذا فخرجَ عن فطرتِهِ التي خُلِقَ عليها، فنَسيَ ربَّهُ، فأنساهُ نَفسَهُ وصفاتِها، وما تَكْمُلُ به وتَزكو به وتسعَدُ به في معاشها ومعادها؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ **ولا تُطِعْ مَن أغفَلْنا قَلبَهُ عَن ذِكْرِنا واتَّبعَ هواهُ وكانَ أمرُهُ فُرُطًا** ﴾ [الكهف:٢٨]، فغفِلَ عن ذكرِ ربِّهِ فانفرطَ عليهِ أمرُهُ وقلبُهُ، فلا التفاتَ له إلى مصالحِهِ وكمالِهِ وما تَزكو به نفسُهُ وقلبُهُ، بل هو مُشتَّتُ القلبِ مُضيَّعُهُ ، مُنفَرِطُ الأمرِ حَيرانُ، لا يَهتَدي سبيلًا .

والمقصودُ أنَّ العلمَ باللَّهِ أصلُ كلِّ علمٍ، وهو أصلُ علمِ العَبدِ بسعادتِهِ وكمالِهِ ومصالحِ دنياهُ وآخرتِهِ، والجهلُ به مستلزمٌ للجهلِ بنفسِهِ ومصالِحها وكمالِها، وما تَزكو به وتفلحُ به، فالعلمُ به سعادَةُ العَبدِ، والجَهلُ به أصلُ شقاوتِهِ .

---

(١) ويُروى : « مَن عرف نفسَه فقد عرف ربَّه » ! ولكنَّه حديثٌ لا أصلَ له ؛ كما قال السخاوي في « المقاصد الحسَنَة » (ص ١٩٨) .

ويزيدُهُ إيضاحًا :

○ **الوجهُ الخامس والستون : [العلمُ والتوحيد] :**

أنَّهُ لا شيءَ أطيبُ للعَبدِ، ولا ألذُّ، ولا أهنأُ ، ولا أنعمُ لقلبِهِ وعيشِهِ، مِن محبَّةِ فاطرِهِ وباريهِ، ودوامِ ذكرِهِ، والسَّعي في مَرضاتِهِ.

وهذا هو الكمالُ الذي لا كمالَ للعَبدِ بدونِهِ، وله خُلِقَ الخَلقُ، ولأجلِهِ نزَلَ الوَحيُ، وأُرسِلَت الرُّسل، وقامَت السَّمواتُ والأرضُ ،وَوُجِدَت الجنَّةُ والنَّارُ، ولأجلِهِ شُرِعَت الشرائعُ، ووُضِعَ البيتُ الحرامُ، ووَجَبَ حجُّهُ على النَّاس إقامةً لذِكرِهِ الذي هو من توابعِ محبَّتِهِ والرِّضا به وعنهُ، ولأجلِ هذا أُمِرَ بالجهادِ، وضُرِبَت أعناقُ من أباهُ وآثَرَ غَيرَهُ عليه، وجُعِلَ لهُ في الآخرَةِ دارُ الهَوانِ خالدًا مُخلَّدًا .

وعلى هذا الأثرِ العظيمِ أُسِّسَت الملَّةُ، ونُصِبَت القِبلةُ، وهو قُطبُ رحى الخَلْقِ والأمرِ ، الذي مدارُهما عليه، ولا سبيلَ إلى الدُّخولِ إلى ذلكَ إلّا من بابِ العلمِ؛ فإنَّ محبَّةَ الشيءِ فرعٌ عن الشعور به، وأعرفُ الخَلْقِ باللَّهِ أشدُّهُم حُبًّا له، فكلُّ من عَرَفَ اللَّهَ أحبَّهُ، ومَن عَرَفَ الدُّنيا زَهِدَ فيهم .

فالعلمُ يفتح البابَ العظيمَ الذي هو سرُّ الخَلْقِ والأمرِ .

○ **الوجهُ السادس والستون : [العلم أقرب الطرق إلى أعظم اللَّذات] :**

أنَّ اللَّذَّةَ بالمحبوبِ تَضْعُفُ وتَقوى بحَسَبِ قوَّةِ الحبِّ وضَعفِهِ، فكلَّما كان الحُبُّ أقوى كانت اللذَّةُ أعظمَ، ولهذا تَعْظُمُ لذَّةُ الظَّمآنِ بشربِ الماءِ البارِدِ بحسَبِ شدَّةِ طلبِهِ للماء ، وكذلكَ الجائعُ، وكذلَك مَن أحبَّ شيئًا كانت لذَّتُهُ على قَدْرِ حُبِّهِ إيَّاهُ، والحُبُّ تابعٌ للعلمِ بالمحبوبِ ومعرفَةِ جمالِهِ الظَّاهِرِ

والباطنِ، فلذَّةُ النَّظرِ إلى اللَّهِ بعدَ لقائهِ بحَسَبِ قُوَّةِ حُبِّهِ وإرادتِهِ، وذلكَ بحَسَبِ العلمِ به وبصفاتِ كمالِهِ، فإذًا: العلمُ هو أقرَبُ الطُّرقِ إلى أعظمِ اللذَّاتِ .

○ **الوجهُ السابعُ والستون : [افتقار الموجودات إلى العلم] :**

أنَّ كلَّ ما سوى اللَّهَ مُفتَقِرٌ إلى العلمِ، لا قِوامَ له بدونِهفإنَّ الوجودَ وجودان :

- وجودُ الخَلْقِ .
- ووجودُ الأمرِ .

والخَلْقُ والأمرُ مصدرُهُما علمُ الرَّبِّ وحكمتُهُ، فكلُّ ما ضمَّهُ الوجودُ مِن خلقِهِ وأمرِهِ صادرٌ عن علمِهِ وحكمتِهِ، فما قامَت السَّمواتُ والأرضُ وما بينَهُما إلّا **بالعلمِ**، ولا بُعِثَت الرُّسُلُ وأُنزِلَت الكُتُبُ إلّا **بالعلمِ**، ولا عُبِدَ اللَّهُ وحدَهُ وحُمِدَ وأُثنيَ عليه ومُجِّدَ إلّا **بالعلمِ** ، ولا عُرِفَ الحلالُ من الحرامِ إلّا **بالعلمِ**، ولا عُرِفَ فَضلُ الإسلامِ على غيرِهِ إلّا **بالعلمِ** .

واختُلِفَ هنا في مسألةٍ؛ وهي أنَّ العلمَ صفةٌ فعليَّةٌ أو انفعاليَّةٌ ؟

فقالت طائفَةٌ : هو صفَةٌ فعليَّةٌ ؛ لأنَّهُ شرطٌ أو جزءٌ ، سببٌ في وجودِ المفعولِ؛ فإنَّ الفعلَ الاختياريَّ يَستَدعي حياةَ الفاعلِ وعلمَه وقُدرتَه وإرادتَه، ولا يُتَصوَّرُ وجودُهُ بدونِ هذه الصِّفات .

وقالت طائفَةٌ : هو انفعاليٌّ؛ فإنَّهُ تابعٌ للمعلومِ، مُتَعلِّقٌ به على ما هو ، فإنَّ العالِمَ يُدرِكُ المعلومَ على ما هو به، فإدراكُهُ تابعٌ له، فكيفَ يكونُ مُتقدِّمًا عليه ؟!

والصَّوابُ أنَّ العِلمَ قسمانِ :

علمٌ فعليٌّ : وهو علمُ الفاعلِ المُختارِ بما يُريدُ أن يَفعلَهُ، فإنَّهُ مَوقوفٌ على إرادتهِ الموقوفَةِ على تصوُّرهِ المرادِ وعلمهِ به .

فهذا علمٌ قَبلَ الفعلِ مُتقدِّمٌ عليه مُؤثِّرٌ فيه .

وعلمٌ انفعاليٌّ : وهو العلمُ التَّابعُ للمعلومِ الذي لا تأثيرَ له فيه؛ كعلمِنا بوجود الأنبياءِ والأُمَمِ والملوكِ وسائرِ الموجودات؛ فإنَّ هذا العلمَ لا يُؤثِّرُ في المعلومِ، ولا هو شرطٌ فيه .

فكلٌّ من الطَّائفتَين نظَرتْ جُزئيًّا وحَكَمَت كليًّا .

وهذا موضعٌ يغلطُ فيه كثيرٌ من النَّاسِ، وكلا القِسمَين من العلمِ صفةُ كمالٍ، وعَدَمُهُ من أعظمِ النَّقصِ .

يُوضِّحُهُ :

○ **الوجهُ الثامن والستون** : [**العلمُ وفضله وبيان مداركه**] :

أنَّ فضيلَةَ الشيءِ تُعرَفُ بضدِّه[1] :

فالضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ ... وبِضدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ

... ولا رَيبَ أنَّ الجهلَ أصلُ كلِّ فَسادٍ، وكلُّ ضَرَرٍ يلحقُ العَبدَ في دنياهُ وأُخراهُ فهو نتيجَةُ الجَهلِ، وإلَّا فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ هذا الطَّعامَ - مثلًا - مَسمومٌ؛ مَن أكلَهُ قطَّعَ أمعاءهُ في وقتٍ معيَّنٍ؛ لا يُقدِمُ على أكلِهِ، وإنْ قُدِّرَ أنَّهُ أقْدَمَ عليه لغَلَبَةِ جوعٍ أو استعجالِ وفاةٍ فهو لعِلمهِ بموافَقَةِ آكلِهِ لمَقصودهِ الذي هو أحبُّ إليه من العَذابِ بالجُوعِ أو بغَيرهِ .

(١) انظر كتابي « علم أصول البدع » (ص ٣٧-٣٩) .

○ **الوجهُ التاسع والستون : [تفاوت الدرجات في العلم] :**

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى فاوَتَ بينَ النَّوعِ الإنسانيِّ أعظَمَ تفاوُتٍ يكونُ بين المخلوقين، فلا يُعرَفُ اثنانِ من نوعٍ واحدٍ بينهما من التَّفاوُتِ ما بينَ خَيرِ البَشرِ وشرِّهم، واللَّهُ سبحانهُ خَلَقَ الملائكَةَ عقولًا بلا شهواتٍ، وخَلَقَ الحيواناتِ ذواتِ شهواتٍ بلا عقولٍ، وخَلَقَ الإنسانَ مُركَّبًا من عَقلٍ وشهوَةٍ، **فمَن غَلَبَ عقلُهُ شهوتَهُ كانَ خيرًا من الملائكَةِ، ومَن غَلَبَت شهوتُهُ عقلَهُ كانَ شرًّا من الحيوانات .**

وفاوَتَ سبحانهُ بينهم في العلمِ، فجعَلَ عالِمَهم مُعلِّمَ الملائكَةِ، كما قال تعالى : ﴿ يا آدمُ أَنبِئهم بأسمائهم ﴾ [البقرة : ٣٣]، وتلكَ مرتبةٌ لا مَرتبةَ فوقها، وجَعَلَ جاهلَهم بحيثُ لا يَرضى الشيطانُ به ولا يصلُحُ له، كما قال الشيطانُ لجاهلهم الذي أطاعهُ في الكُفرِ : ﴿ إنِّي بَريءٌ مِنك ﴾[1]، وقال لِجَهَلَتِهِم الذين عَصَوُا رسولَهُ : ﴿ إنِّي بَريءٌ منكُم ﴾[2].

فللَّهِ ما أشدَّ هذا التَّفاوتَ بين شخصينِ ؛ أحدِهما : تسجُدُ له الملائكةُ ويُعلِّمُها ممَّا اللَّهُ علَّمَهُ، والآخرِ : لا يَرضى الشيطانُ به وليًّا !

وهذا التَّفاوُتُ العظيمُ إنَّما حَصَلَ بالعلمِ وثمرتِهِ ، ولو لم يكُن في العلمِ إلّا القُربُ من ربِّ العالمين والالتحاقُ بعالَمِ الملائكَة ، وصُحبةُ الملأ الأعلى ، لكفى به فَضلًا وشرفًا ، فكيفَ وعِزُّ الدُّنيا والآخرَةِ مَنوطٌ به ومشروطٌ بحصولهِ !؟

(١) الحشر : ١٦ .

(٢) الأنفال : ٤٨ .

○ الوجهُ السبعون : [شرف العلم وأهلــهِ] :

أنَّ شرَفَ ما في الإنسانِ مَحَلُّ العلمِ منهُ ، وهو قلبُهُ وسمعُهُ وبَصَرُهُ .

ولمَّا كانَ القلبُ هو محلُّ العلمِ والسَّمعِ ورسولَه الذي يأتيهِ به، والعَينُ طليعتُهُ ، كانَ مَلِكًا على سائرِ الأعضاءِ؛ يأمُرها فتأْتَمِرُ لأمرِهِ، ويَصرِفُها فتنقادُ لهُ طائعَةً بما خُصَّ به من العلمِ دونَها، فلذلكَ كانَ مَلِكَها والمطاعَ فيها، **وهكذا العالِمُ في النَّاسِ كالقَلبِ في الأعضاء .**

ولمّا كانَ صلاحُ الأعضاءِ بصلاحِ مَلِكِها ومُطاعِها ، وفَسادُها بفسادِهِ؛ كانَت هذه حالَ النَّاسِ مع عُلمائهم وملوكهم، كما قال بعضُ السَّلفِ : صِنفانِ إذا صَلَحا صَلَحَ سائرُ النَّاسِ ، وإذا فَسَدَا فَسَدَ سائرُ النَّاسِ : العلماءُ والأُمراءُ [١].

قال عبداللَّهِ بن المُبارك :

وَهَلَ أفسَدَ الدِّينَ إلّا المُلو ... كُ وأحبارُ سُوءٍ ورُهبانُها

ولمَّا كانَ للسَّمعِ والبَصرِ من الإدراكِ ما ليسَ لغَيرهما من الأعضاءِ، كانا في أشرَفِ جُزءٍ من الإنسانِ وهو وجهُهُ، وكانا من أفضَلِ ما في الإنسانِ من الأجزاءِ والأعضاءِ والمنافعِ .

---

(١) ويُروى مرفوعًا، رواه ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ١٨٤) ، وأبو نُعيم في « الحلية » (٤ / ٩٦) عن ابن عباس .

وقال العراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ٦) : سنده ضعيفٌ .

قلت : بل هو أشدُّ من ذلك ؛ فإنَّ محمد بن زياد اليَشكُري؛ وضَّاع .

واختلفَ الناسُ في الأفضَلِ منهما : فقالَت طائفةٌ - منهم أبو المعالي[١] وغيرُهُ - : السَّمعُ أفضَلُ؛ قالوا : لأنَّ به تُنالُ سعادَةُ الدُّنيا والآخرَةِ، فإنَّها إنَّما تحصُلُ بِمُتابَعةِ الرُّسلِ، وقَبُولِ رسالاتهم، وبالسَّمعِ عُرِفَ ذلكَ ، فإنَّ مَن لا سَمْعَ له لا يَعلمُ ما جاءُوا به .

وأيضًا؛ فإنَّ السَّمعَ يُدْرَكُ به أجلُّ شيءٍ وأفضلُهُ، وهو كلامُ اللَّهِ تعالى الذي فَضلُهُ على الكلام كفَضلِ اللَّهِ على خَلقِهِ .

وأيضًا؛ فإنَّ العلومَ إنَّما تُنالُ بالتَّفاهُم والتَّخاطُبِ، ولا يحصُلُ ذلكَ إلَّا بالسَّمعِ .

وأيضًا؛ فإنَّ مَدْرَكَهُ أعمُّ مِن مَدْرَكِ البَصرِ؛ فإنَّهُ يُدْرِكُ الكلِّيَّاتِ والجُزئيَّاتِ والشاهدَ والغائبَ والموجودَ والمعدومَ، والبَصرُ لا يُدرِكُ إلَّا بَعضَ المشاهَداتِ، والسَّمعُ يسمعُ كلَّ علمٍ، فأينَ أحدُهما من الآخَرِ ؟

ولو فَرَضْنا شخصَينِ أحدَهما يسمعُ كلامَ الرَّسولِ، ولا يَرى شخصَهُ، والآخرَ بَصيرٌ يَراهُ ولا يسمعُ كلامَهُ لصَممِهِ ، هل كانا سواءً ؟!

وأيضًا؛ ففاقدُ البَصرِ إنَّما يفقدُ إدراكَ بعضِ الأُمورِ الجُزئيَّةِ المُشاهَدَةِ، ويُمكِنُهُ معرفتُها بالصِّفَةِ ولو تَقريبًا، وأمَّا فاقدُ السَّمعِ فالذي فاتَهُ من العلمِ لا يُمكِنُ حصولُهُ بحاسَّةِ البَصَرِ ولا قريبًا .

وأيضًا؛ فإنَّ ذمَّ اللَّهِ للكفَّارِ بعَدمِ السَّمعِ في القرآنِ أكثَرُ من ذمِّهِ لهم بعَدَمِ البَصرِ، بل إنَّما يذمُّهُم بعَدمِ البَصَرِ تَبعًا لعَدَمِ العَقلِ والسَّمعِ .

---

(١) هو عبدُالملك بن عبدالله بن يوسُف ، توفِّي سنة (٤٧٨ هـ) ، انظر ترجمتَه في « المُنتظم » (٩ / ١٨ - ٢٠) لابن الجوزيِّ .

وأيضًا؛ فإنَّ الذي يُورِدُهُ السَّمعُ على القَلبِ من العلومِ لا يَلحقُهَ فيه كَلالٌ ولا سآمَةٌ ولا تَعَبٌ من كثرتِهِ وعِظَمِهِ، والذي يُورِدُهُ البَصرُ عليه يلحقُهُ فيه الكَلالُ والضَّعفُ والنَّقصُ، وربَّما خَشِيَ صاحبُهُ على ذهابِهِ مع قلَّتِهِ ونَزارتِهِ بالنِّسبَةِ إلى السَّمعِ .

وقالت طائفَةٌ - منهم ابنُ قُتَيبَة - : بل البَصرُ أفضَلُ ؛ فإنَّ أعلى النَّعيم وأفضلَه وأعظمَه لذَّةً هو النَّظرُ إلى اللّهِ في الدَّارِ الآخرَةِ، وهذا إنَّما يُنالُ بالبَصَرِ، وهذه وحدَها كافيَةٌ في تفضيلهِ .

قالوا : وهو مُقدِّمَةُ القَلبِ وطليعتُه ورائدُه، فمنزلتُهُ أقربُ من منزلةِ السَّمعِ، ولهذا كثيرًا ما يَقرِنُ [اللهُ] بينهما في الذِّكرِ بقوله : ﴿ فاعتَبِروا يا أُولي الابصار ﴾ فالاعتبارُ بالقَلبِ ، والبَصرُ بالعَينِ، وقال تعالى : ﴿ ونُقَلِّبُ أفئدَتَهُم وأبصارَهُم كما لم يُؤمنوا بِهِ أوَّلَ مرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠]، ولم يقُل تعالى : وأسماعَهُم، وقال تعالى : ﴿ فإنَّها لا تعمى الأَبصارُ ولكنْ تَعمى القلوبُ التي في الصُّدور ﴾ [الحج : ٤٦]، وقال : ﴿ يخافونَ يَومًا تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصارُ ﴾ [النور : ٣٧]، وقال تعالى : ﴿ يَعلَمُ خائنَةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدورُ ﴾ [غافر : ١٩] ، وقال في حقِّ رسولِهِ : ﴿ ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رأى ﴾ [النجم : ١١] ثمَّ قال : ﴿ ما زاغَ البَصَرُ وما طَغى ﴾ [النجم : ١٧] .

وهذا يَدُلُّ على شدَّةِ الوَصلَةِ والارتباطِ بينَ القلبِ والبَصرِ، ولهذا يقرأُ الإنسانُ ما في قلبِ الآخَرِ من عينِهِ، وهذا كثيرٌ في كلامِ النَّاسِ؛ نظمِهِ ونثرِهِ، وهو أكثَرُ مِن أن نَذكُرَهُ هنا .

ولـمَّا كانَ القلبُ أشرَفَ الأعضاءِ ؛ كانَ أشدَّها ارتباطًا به وأشرَفَ من غيرِهِ .

قالوا : ولهذا يأتمِنُهُ القَلبُ ما لا يأتمنُ السَّمعَ عليه، بل إذا ارتابَ من جهَةِ السمع عَرَضَ ما يأتيهِ به على البَصَرِ ليُزَكِّيَهُ أم يردُّهُ ! فالبَصَرُ حاكمٌ عليهِ مُؤتَمَنٌ عليه .

قالوا : ومن هذا : الحديثُ الذي رواهُ أحمد في « مسنَدِهِ » (١) مرفوعًا : « ليسَ المُخبَرُ كالمُعايِن » .

قالوا : ولهذا أخبَرَ اللَّهُ سبحانهُ موسىأنَّ قومَهُ افتَتَنوا مِن بَعدِهِ، وعَبَدوا العِجلَ، فلم يَلحقْهُ في ذلكَ ما لَحِقَهُ عند رؤيَةِ ذلكَ ومُعايَنَتِهِ من إلقاءِ الألواحِ، وكَسْرِها لفَوتِ المُعايَنَةِ على الخَبَر .

قالوا : وهذا إبراهيمُ خليلُ اللَّهِ يسألُ ربَّهُ أن يُرِيَهُ كيفَ يُحيي المَوتى، وقَد علمَ ذلكَ بخَبَرِ اللَّهِ له، ولكنْ طَلَبَ أفضَلَ المنازلِ وهي طمأنينَةُ القَلبِ .

قالوا : ولليَقينِ مراتبَ :

أوَّلها : السَّمع .

---

(١) (١ / ٢١٥ ، ٢١٧) .

ورواه ابن حبان (٦٢١٣)، والحاكم (٢ / ٣٢١)، والخطيب (٦ / ٥٦) من طريق هُشيم، عن أبي بِشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، كلُّهم بلفظ : « ليس الخَبَرُ كالمعاينة » .

وتابع هُشيمًا : أبو عوانة ؛ فيما رواه ابن حبان (٦٢١٤) ، والبزَّار (٢٠٠) ، والطبراني (١٢٤٥١) والحاكم (٢ / ٣٨٠) والقُضاعي في « مسند الشهاب » (١١٨٢) ، بلفظ : « ليس المُعاين كالمُخبر » .

وسنده صحيحٌ .

وفي الباب عن أَنس ، وعن أَبي هُريرة .

والثَّاني : العَين ؛ وهي المُسمَّاةُ بعَين اليَقين، وهي أفضلُ من المرتبَةِ الأُولى وأكملُ .

قالوا : وأيضًا؛ فالبَصَرُ يُؤدِّي إلى القَلبِ، ويُؤدِّي عنه، فإِنَّ العَينَ مِرآةُ القَلبِ، يَظهرُ فيها ما يُجِنُّهُ من المحبَّةِ والبُغضِ والمُوالاةِ والمُعاداةِ والسُّرورِ والحُزنِ وغيرِها .

وأمَّا الأُذنُ فلا تُؤدِّي عن القلبِ شيئًا البتَّة، وإنَّما مرتبتُها الإيصالُ إليه حَسْبُ، فالعَين أشدُّ تعلُّقًا به .

والصَّوابُ أنَّ كلًّا منهما به خاصِّيَّةٌ فُضِّلَ بها على الآخرَ؛ فالمُدرَكُ بالسَّمعِ أعمُّ وأشملُ، والمُدرَكُ بالبَصَرِ أتمُّ وأكملُ؛ فالسَّمعُ له العمومُ والشمولُ، والبَصَرُ له الظُّهورُ والتَّمامُ وكمالُ الإدراكِ .

وأمَّا نعيمُ أهلِ الجنَّةِ فشيئان :

أحدُهما : النَّظرُ إلى اللَّهِ .

والثَّاني : سماعُ خِطابِهِ وكلامِهِ .

ومعلومٌ أنَّ سلامَهُ عليهم وخِطابَهُ لهم ومُحاضَرتَهُ إيَّاهُم لا يُشبهها شيءٌ قطُّ، ولا يكونُ أطيبَ عندهم منها .

ولهذا يذكرُ سبحانهُ في وعيدِ أعدائهِ أنَّهُ لا يُكلِّمُهُم، كما يَذكرُ احتجابَهُ عنهُم، ولا يَرونهُ، فكلامُهُ ورؤيتُهُ نعيمُ أهلِ الجنَّةِ ، واللَّهُ أعلم .

○ **الوجهُ الحادي والسبعون : [أدوات نَيْل العِلم] :**

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ في القرآنِ يُعدِّدُ على عبادهِ من نعمِهِ عليهم أنْ أعطاهُم آلاتِ العلمِ، فيذكرُ الفؤادَ والسَّمعَ والأبصارَ، ومرَّةً يذكرُ اللسانَ الذي يُترجَمُ به

عن القَلبِ، فقال تعالى في سورَةِ النِّعَم - وهي سورَة النَّحلِ - التي ذكرَ فيها أُصولَ النِّعَم، وفروعَها، ومُتمَّاتِها، ومُكمِّلاتِها، فعدَّدَ نِعمَهُ فيها على عبادِهِ، وتعرَّفَ بها إليهم، واقتضاهم شُكرَها، وأخبَرَ أنَّهُ يُتِمُّها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأوَّلُها في أُصولِ النِّعَم، وآخِرُها في مكمِّلاتها، وقال تعالى : ﴿ واللهُ أخرَجَكُم من بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعلَمونَ شيئًا وجَعَلَ لكمُ السَّمعَ والأبصارَ والأفئدَةَ لعلَّكُم تشكرون ﴾ [النحل : ٧٨]، فَذَكَرَ سبحانهُ نِعمَتَهُ عليهم بأنْ أخرجَهم لا علمَ لهم، ثمَّ أعطاهُم الأسماعَ والأبصارَ والأفئدَةَ التي نالوا بها من العلمِ ما نالوهُ ، وأنَّهُ فَعَلَ بهم ذلكَ ليَشكروهُ، وقال تعالى : ﴿ وجَعَلْنا لهُم سمعًا وأبصارًا وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئدتُهُم من شيءٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٦]، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نجعَلْ له عَينَين ولسانًا وشفتَين وهَديناهُ النَّجدَين ﴾ [البلد : ٨ - ١٠]، فَذَكَرَ هنا العَينين اللَّتين يُبصرُ بهما فيعلم المشاهَداتِ، وذكرَ هدايةَ النَّجدَين؛ وهما طريقا الخَيرِ والشرِّ وهو قولُ أكثرِ المُفسِّرين (١) ، وتدلُّ عليه الآيَةُ الأُخرى : ﴿ إنَّا هَدَيناهُ السَّبيلَ إمَّا شاكرًا وإمَّا كَفورًا ﴾ [الإنسان : ٣] .

والهدايَةُ تكونُ بالقَلبِ والسَّمعِ ، فَقَد دَخَلَ السمعُ في ذلكَ لُزومًا ، وذَكَرَ اللسانَ والشفتَينِ اللتينِ هما آلةُ التَّعليم ، فَذَكَرَ آلاتِ العلمِ والتَّعليمِ وجَعلَها من آياتِهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعلى قُدرتِهِ ووحدانيَّتِهِ ونِعَمِهِ، التي تعرَّف بها إلى عبادِهِ .

ولمَّا كانت هذه الأعضاءُ الثَّلاثَةُ هي أشرفَ الأعضاءِ ومُلوكَها والمتَصرِّفَةَ

---

(١) انظر « الدر المنثور » (٨ / ٥٢٢) .

فيها والحاكمةَ عليها خصَّها سبحانهُ وتعالى بالذِّكرِ في السُّؤالِ عنها، فقال : ﴿ إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفؤادَ كُلُّ أُولئكَ كانَ عنهُ مسؤولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦]، فسعادَةُ الإنسانِ بصحَّةِ هذه الأعضاء الثَّلاثة، وشقاوتهُ بفسادها .

قال ابنُ عبَّاسٍ : يسألُ اللَّهُ العبادَ فيما استَعملوا هذه الثَّلاثةَ ؛ السمعَ والبَصرَ والفؤادَ ؟ [١] واللَّهُ تعالى أعطى العَبدَ **السَّمعَ** ليَسمعَ بهِ أوامرَ ربِّهِ ونواهيَه وعهودَه، **والقَلبَ** ليَعقلَها ويفقَهَها ، **والبَصَرَ** ليرى آياتهِ فيستدلَّ بها على وحدانيَّتهِ وربوبيَّتهِ، فالمقصودُ بإعطائهِ هذه الآلاتِ العلمُ وثمرتُهُ ومُقتضاهُ .

○ **الوجهُ الثاني والسبعون : [السعاداتُ كلُّها في العلم] :**

إنَّ أنواعَ السَّعاداتِ التي تُؤثِرُها النُّفوسُ ثلاثةٌ :

سعادَةٌ خارجيَّةٌ عن ذاتِ الإنسانِ، بل هي مُستعارَةٌ له من غيرهِ، تزولُ باستردادِ العاريَّةِ، وهي سعادَةُ المالِ والجاه، وتوابِعهما، فبينا المرءُ بها سعيدًا، ملحوظًا بالعنايَةِ، مرموقًا بالأبصارِ، إذ أصبحَ في اليومِ الواحدِ أذلَّ من وتدٍ بِقاعٍ يُشَجُّ رأسُهُ بالفِهرواجي[٢]، فالسَّعادَةُ والفَرحُ بهذه كفَرحِ الأقرعِ بجُمَّةِ ابن عمِّهِ ! والجمالُ بها كجمالِ المرءِ بثيابهِ وبزينتهِ، فإذا جاوَزَ بَصرُكَ كسوتَهُ فليسَ وراءَ عبّادانَ قريةٌ[٣] .

ويُحكى عن بعضِ العلماءِ أنَّهُ رَكِبَ مع تُجَّارٍ في مركبٍ، فانكسَرَتْ

---

(١) قارن بـ « الدر المنثور » (٥ / ٢٨٦) .

(٢) لعلَّه أَداةٌ حجريّة تُدَقُّ بها بعضُ الأشياء ؛ وفي « القاموس » (ص ٥٨٩) : « الفِهر : الحجر » ، واللّه أعلم .

(٣) عبّادانُ جزيرةٌ بين نهرين ، تحت البصرة ، كما في « مُعجم البلدان » (٤ / ٧٤) ، وكلامُ المصنِّف هنا كَمَثلٍ يُضرَبُ .

بهم السَّفينَةُ ، فأصبحوا بَعدَ عزِّ الغنى في ذُلِّ الفَقرِ ، وَوَصَلَ العالِمُ إلى البَلدِ، فأُكرِمَ وقُصِدَ بأنواعِ التُّحَفِ والكراماتِ، فلمَّا أرادوا الرُّجوعَ إلى بلادهم قالوا : هل لكَ إلى قومِكَ كتابٌ أو حاجةٌ ؟ فقالَ : نعم، تقولونَ لهُم : إذا اتَّخذتُم مالًا فاتَّخذوا مالًا لا يَغرَقُ إذا انكسَرَت السَّفينَة ،فاتَّخِذوا العلمَ تجارةً .

واجتمعَ رجلٌ ذو هَيئةٍ حَسَنةٍ ولباسٍ جميلٍ وَرَوَاءٍ برجلٍ عالمٍ ، فجسَّ المَخَاضَةَ[1] فلم يَرَ شيئًا، فقالوا : كيفَ رأيتَهُ ؟ فقال : رأيتُ دارًا حسنةً مزخرفةً ولكن ليسَ بها ساكنٌ !

السَّعادَةُ الثَّانيةُ : سعادَةٌ في جسمهِ وبَدنهِ؛ كصحَّتهِ، واعتدالِ مزاجِهِ، وتناسُبِ أعضائهِ، وحُسنِ تركيبِهِ، وصفاءِ لونهِ، وقُوَّةِ أعضائهِ، فهذه ألصقُ به من الأُولى ، ولكنْ هي في الحقيقةِ خارجةٌ عن ذاتهِ وحقيقتهِ، فإنَّ الإنسانَ إنسانٌ بروحهِ وقلبهِ لا بجسمهِ وبدنهِ ، كما قيل :

يا خادمَ الجسمِ كَم تَشقى بِخِدمَتِهِ
فأنتَ بالرُّوحِ لا بالجِسمِ إِنسانُ

فنسبةُ هذه إلى روحهِ وقلبهِ كنسبةِ ثيابهِ ولباسهِ إلى بَدنهِ؛ فإنَّ البَدَنَ أيضًا عارِيَّةٌ للرُّوحِ، وآلةٌ لها، ومركبٌ من مراكبها، فسعادتُها بصحَّتهِ ، وجمالُهِ وحُسنُه سعادَةٌ خارجةٌ عن ذاتها وحقيقتها .

السَّعادَةُ الثَّالثَةُ : هي السَّعادَةُ الحقيقيَّةُ؛ وهي سعادَةٌ نَفسانيَّةٌ روحيَّةٌ قلبيَّةٌ، وهي سعادَةُ العلمِ النَّافعِ ثمرتُهُ، فإنَّها هي الباقيَةُ على تَقَلُّبِ الأحوالِ ،

---

(١) أي : اختَبَرهُ وامتَحَنَهُ .

والمُصاحِبَةُ للعَبدِ في جميعِ أسفارِهِ وفي دُورِهِ الثَّلاثَةِ - أعني : دارَ الدُّنيا ودارَ البرزَخ ودارَ القَرار - وبها يترقَّى في معارجَ الفَضلِ ودرجاتِ الكمالِ .

أمَّا الأولى : فإنَّها تصحبُهُ في البُقعَةِ التي فيها مالُهُ وجاهُهُ .

والثَّانيَة : فَعُرضةٌ للزَّوالِ والتَّبدُّل بنَكْسِ الخَلْقِ والرَّدِّ إلى الضَّعفِ، فلا سعادَةَ في الحقيقة إلّا في هذه الثَّالثَة، التي كلَّما طالَ عليها الأمَدُ ازدادَت قوَّةً وعُلُوًّا، وإذا عُدِمَ المالُ والجاهُ فهي مالُ العَبدِ وجاهُهُ، وتَظهَرُ قوَّتُها وأثرُها بعدَ مُفارَقةِ الرُّوحِ البدنَ إذا انقطَعَتِ السَّعادَتانِ الأُولتانِ .

وهذه السَّعادَةُ لا يَعرِفُ قَدْرَها، ويَبعَثُ على طَلبها إلّا العلمُ بها، **فعادَت السَّعادَةُ كلُّها إلى العلمِ وما يَقتَضيهِ**، واللَّهُ يوفِّقُ من يشاءُ، لا مانعَ لما أعطى ولا مُعطي لما منَعَ .

وإنَّما رَغِبَ أكثرُ الخَلْق عن اكتسابِ هذه السَّعادَةِ وتحصيلها لِوُعورَةِ طريقها ومرارَةِ مباديها وتَعَبِ تحصيلها، وأنَّها لا تُنالُ إلّا على جسرٍ من التَّعبِ؛ فإنَّها لا تُحصَّلُ إلّا بالجدِّ المحضِ، بخلافِ الأُولَتين؛ فإنَّهما حظٌّ قَد يحوزُهُ غيرُ طالبِهِ، وبختٌ قَد يحوزهُ غيرُ جالبِهِ من ميراثٍ أو هِبَةٍ أو غَيرِ ذلكَ .

وأمَّا سعادَةُ العلمِ فلا يُورثُكَ إيَّاها إلّا بذلُ الوُسعِ، وصِدقُ الطَّلبِ، وصِحَّةُ النيَّة .

وقَد أحسَنَ القائلُ في ذلك :

فقُل لِمُرجِّي مَعالي الأُمورِ　　بغَيرِ اجتهادٍ رَجَوتَ المُحالا

وقال الآخَرُ :

لولا المَشقَّةُ سادَ النَّاسُ كلُّهُمُ　　الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتَّالُ

ومَن طَمَحَتْ همَّتُهُ إلى الأُمورِ العاليَةِ فَأَوْجَبُ عليه أن يَشُدَّ على محبَّتِه الطُّرقَ الدَّنيَّةَ .

وهي السَّعادَةُ ؛ وإنْ كانَت في ابتدائها لا تنفَكُّ عَن ضربٍ من المشقَّة والكُرهِ والتَّأذِّي فإنَّها متى أُكرِهتَ النَّفسُ عليها، وسيقَت طائعَةً وكارهةً إليها، وصَبَرَتْ على لأوائها وشدَّتها، أفضَتْ منها إلى رياضٍ مُؤنِّقةٍ، ومقاعدِ صدقٍ، ومقامٍ كريمٍ يجدُ كُلَّ لذَّةٍ دونها كلذَّة لَعِبِ الصَّبيّ بالعُصْفورِ بالنِّسبَةِ إلى لذَّةِ الملوكِ، فحينئذٍ حالُ صاحبها كما قيلَ :

وكنتُ أرى أنْ قَد تناهى بيَ الهَوى
إلى غايَةٍ ما بَعدَها لي مَذهَبُ
فلمَّا تَلاَقَيْنا وعايَنتُ حُسنَها
تيقَّنتُ أنِّيَ إنَّما كنتُ ألعبُ

فالمكارمُ مَنُوطَةٌ بالمكارهِ، والسَّعادَةُ لا يُعبَرُ إليها إلَّا على جسرِ المشقَّةِ ، ولا تُقطعُ مسافَتُها إلَّا في سفينَةِ الجدِّ والاجتهاد، قالَ مسلمٌ في « صحيحه »[1]: قال يحيى بنُ أبي كثيرٍ : لا يُنالُ العلمُ براحَةِ الجسم .

وقَد قيلَ : مَن طَلَبَ الرَّاحَةَ تركَ الرَّاحَةَ .

فيا وصلَ الحبيبِ أمَا إليهِ بغَيرِ مشقَّةٍ أبدًا طريقُ

ولولا جهلُ الأكثرينَ بحلاوَةِ هذه اللَّذَّةِ وعِظمِ قَدرِها لَتجالَدوا عليها

---

(١) (٦١٢) (١٧٥) .
وفي « شرح النووي » (١١٣/٥) فائدةٌ لطيفةٌ حول سبب إيراد مسلمٍ له في هذا الموضعِ .

بالسُّيوف، ولكنْ حُفَّت بحجابٍ من المكارِه، وحُجبوا عنها بحجابٍ من الجهلِ، ليختصَّ اللَّهُ بها من يشاءُ مَن عبادِه، واللَّهُ ذو الفَضلِ العظيم .

○ **الوجهُ الثالث والسبعون : [الكمالُ يُنالُ بالعلم] :**

إنَّ اللَّهَ سبحانه خَلَقَ الموجوداتِ، وجَعَلَ لكلِّ شيءٍ منها كمالًا يَختَصُّ به هو غايَةُ شرفِهِ، فإذا عُدِمَ كمالُهُ انتَقَلَ إلى الرُّتبَةِ التي دونهُ، واستُعمِلَ فيها، فكانَ استعمالُهُ فيها كمالَ أمثالِهِ، فإذا عَدِمَ تلكَ أيضًا نُقِلَ إلى ما دونَها ولا تُعَطَّلُ، وهكذا أبدًا حتى إذا عَدِمَ كلَّ فَضيلَةٍ صارَ كالشوكِ، وكالحَطَب الذي لا يَصلُحُ إلّا للوقودِ، فالفَرَسُ إذا كانَت فيهِ فروسيَّتُهُ التَّامَّةُ أُعِدَّ لمراكبِ الملوكِ، وأُكرِمَ إكرامَ مثلِهِ، فإذا نَزَلَ عنها قليلًا أُعدَّ لمَن دونَ الملكِ، فإن ازدادَ تَقصيرُهُ فيها أُعِدَّ لآحادِ الأجنادِ، فإنْ تقاصَرَ عنها جملَةً استُعمِلَ استعمالَ الحمارِ؛ إمَّا حَولَ المدارِ، وإمَّا لنقلِ الزِّبْلِ ونحوِهِ، فإنْ عَدِمَ ذلكَ استُعملَ استعمالَ الأغنامِ للذبحِ والإعدام .

كما يُقال في المَثَل : إنّ فَرَسَين التَقيا، أحدُهما تحتَ ملكٍ والآخَرُ يحملُ الرّوايا [١]، فقالَ فرسُ الملكِ : أمَا أنتَ صاحبي وكنتُ أنا وأنتَ في مكانٍ واحدٍ ، فما الَّذي نَزَلَ بكَ إلى هذه المرتبَة ؟ فقال : ما ذاكَ إلّا أنَّكَ هَمْلَجْتَ قليلًا وتسكَّعْتُ أنا !!

وهكذا السَّيفُ إذا نَبا عمَّا هُيِّىءَ له ولم يصلُحْ له ، ضُرِبَ منه فأسٌ أو مِنشارٌ أو نحوهُ، وهكذا الدُّورُ العِظامُ الحِسانُ إذا خَبَتْ وتهدَّمَت اتُّخِذَتْ حظائرَ للغَنمِ أو الإبلِ وغيرهما .

(١) مفردها (راوِية) ؛ وهي المزادة فيها الماء .

وهكذا الآدميُّ إذا كانَ صالحًا لاصطفاء اللَّه له برسالتِهِ ونُبوَّتِهِ اتَّخَذَهُ رسولًا ونبيًّا، كما قالَ تعالى : ﴿ الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]، فإذا كانَ جوهرُهُ قاصرًا عن هذه الدَّرجَة، صالحًا لخلافَة النُّبوَّة وميراثها، رشَّحهُ لذلكَ، وبلَّغهُ إيَّاهُ، فإذا كانَ قاصرًا عن ذلكَ، قابلًا لدرجَةِ الولايَةِ رُشِّحَ لها، وإنْ كانَ ممَّن يَصلُحُ للعَمَلِ والعبادَةِ، دونَ المعرفَةِ والعلمِ، جُعِلَ من أهلِهِ، حتى ينتهي إلى درجَةِ عُمومِ المؤمنين، فإنْ نَقَصَ عن هذه الدَّرجَة ولم تكُن نفسُهُ قابلَةً لشيءٍ من الخَيرِ أصلًا استُعملَ حَطَبًا ووقودًا للنَّارِ .

وفي أثَرٍ إسرائيليٍّ : أنَّ موسى سألَ ربَّهُ عن شأنِ مَن يعذِّبهُم مِن خلقهِ ؟ فقال : يا موسى ازرَع زرعًا، فَزَرَعَهُ، فأوحى اللَّه إليه أنِ احصدهُ،ثمَّ أوحى إليهِ أن انسِفْهُ واذْرُهُ[١] فَفَعلَ، وخَلَصَ الحَبُّ وحدَهُ، والعيدانُ والعَصفُ وحدَهُ، فأوحى اللَّه إليهِ : إنِّي لا أجعَلَ في النَّارِ من العبادِ إلّا مَن لا خَيرَ فيهِ؛ بمنزلَةِ العيدانِ والشوكِ التي لا تصلُحُ إلّا للنَّارُ .

وهكذا الإنسانُ يترقَّى في درجاتِ الكمالِ درجَةً بعدَ درجَةٍ حتى يبلغَ نهايَةَ ما ينالُهُ أمثالُهُ منها،فكَم بين حالهِ في أوَّلِ كونهِ نُطفَةً وبينَ حالهِ والرَّبُّ يُسلِّمُ عليه في دارِهِ، وينظرُ إلى وجهِه بُكرَةً وعَشيًّا !

والنَّبيُّ ﷺ في أوَّلِ أمرهِ لـمَّا جاءَهُ الـمَلَكُ فقال له : اقرأ ، فقال : « ما أنا بقارئٍ »[١]، وفي آخِرِهِ أَمَرَهُ بقولِ اللَّهِ لهُ : ﴿ اليومَ أكمَلتُ لكُم دينَكُم وأتمَمتُ عليكُم نعمتي ﴾ [المائدة : ٣]، ويقولُ له خاصَّةً : ﴿ وأنزَلَ الله

(١) مِن التَّذْرية، وهي عمليَّةُ فَصْل الحَبِّ عن قِشرهِ؛ والنَّسْف مِن التَّنسيف؛ وهو كالتَّذْريةِ .

(٢) رواه البخاري (رقم : ٣) ، ومسلم (رقم : ١٦٠) .

عليكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تَكُن تعلَمُ وكانَ فَضلُ اللهِ عليكَ عظيما ﴾ [النساء : ١١٣] .

ويُحكى أنَّ جماعةً من النَّصارى تحدَّثوا بينهم، فقال قائلٌ منهم : ما أقلَّ عقولَ المسلمين ! يَزعُمونَ أنَّ نبيَّهُم كانَ راعي الغَنَم، فكيفَ يصلُحُ راعي الغَنَمِ للنُّبوَّةِ ؟ فقال له آخَرُ مِن بينهم : أمَّا هم فواللَّهِ أعقَلُ منَّا، فإنَّ اللَّهَ بحكمَتهِ يَسترعي النَّبيَّ الحيوانَ البَهيمَ، فإذا أحسَنَ رعايَتَهُ والقيامَ عليه نَقَلهُ منهُ إلى رعايَةِ الحيوان النَّاطقِ؛ حِكمةً من اللَّهِ وتَدريجًا لعبدِهِ، ولكنْ نحنُ جئنا إلى مولودٍ خَرَجَ من امرأةٍ يأكُلُ ويَشرَبُ ويبولُ وَيبكي، فقلنا : هذا إلهنا الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ! فأمسَكَ القومُ عنه .

فكيفَ يَحسُنُ بذي همَّةٍ قَد أزاحَ اللَّهُ عنهُ عِلَلَهُ،وعرَّفَهُ السَّعادَةَ والشقاوَةَ، أن يَرضى بأن يكونَ حيوانًا، وقَد أمكنهُ أن يَصيرَ إنسانًا، وبأنْ يكونَ إنسانًا وقَد أمكنهُ أن يصيرَ مَلَكًا في مَقعَدِ صِدقٍ عندَ مليكٍ مُقتَدِر، فتقومُ الملائكَةُ في خدمتِهِ، وتَدخُلُ عليهم من كلِّ بابٍ : ﴿ سلامٌ عليكُم بما صَبَرْتُم فنِعمَ عُقبى الدَّار ﴾ [الرَّعد : ٢٤] ؟!

وهذا الكمالُ إنَّما يُنالُ بالعلمِ ورعايتِهِ، والقيامِ بمُوجِبهِ، فعادَ الأمرُ إلى العلمِ وثمرتِهِ، واللَّهُ الموفِّق .

وأعظمُ النَّقص وأشدُّ الحسرَةِ نقصُ القادرِ على التَّمام، وحسرتُهُ على تفويتِهِ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : إذا كثُرَت طرقُ الخَيرِ كانَ الخارجُ منها أشدَّ حسرَةً .

وصَدَقَ القائلُ :

ولَم أرَ في عُيوبِ النَّاسِ عَيبًا كَنَقصِ القادرينَ على التَّمامِ

فَثَبَتَ أنَّهُ لا شيءَ أقبحُ بالإنسان من أن يكونَ غافلًا عن الفضائلِ الدِّينيَّةِ، والعلومِ النَّافعَةِ، والأعمالِ الصَّالحَةِ، فمَن كانَ كذلكَ فهو من الهَمَجِ الرَّعاع الذينَ يُكدِّرونَ الماءَ، ويُغْلُونَ الأسعارَ، إنْ عاشَ عاشَ غَيرَ حميدٍ، وإنْ ماتَ ماتَ غَيرَ فَقيدٍ، فَفَقْدُهُم راحَةٌ للبلادِ والعبادِ، ولا تبكي عليهم السَّماءُ، ولا تستَوحشُ لهم الغَبراءُ .

○ **الوجهُ الرابع والسبعون : [العلمُ دواء الأَمراض القلبيّة] :**

أنَّ القَلبَ يعترضُهُ مَرضانِ يتواردانِ عليه، إذا استحكما فيه كانَ هلاكُهُ وموتُهُ، وهما **مرضُ الشهواتِ ومرضُ الشبهات**؛ هذان أصلُ داءِ الخَلقِ إلّا من عافاهُ اللَّهُ .

وَقَد ذكَرَ اللَّهُ تعالى هذين المرضين في كتابِهِ :

أمّا مرضُ الشبهات - وهو أصعبُهُما وأقتلُهُما للقَلبِ - ففي قولِهِ تعالى في حقِّ المنافقين : ﴿ في قلوبِهم مَرَضٌ فزادَهُم الله مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠]، وقولِه : ﴿ وليقولَ الَّذينَ في قلوبِهم مَرَضٌ والكافرونَ ماذا أرادَ الله بهذا مَثَلًا ﴾ [المُدَّثر : ٣١]، وقال تعالى : ﴿ لِيجعَلَ ما يُلْقي الشيطانُ فتنَةً للّذينَ في قُلوبِهم مَرضٌ والقاسيَةِ قلوبُهم ﴾ [الحج : ٥٣] .

فهذه ثلاثةُ مواضعَ ؛ المرادُ بمرضِ القَلبِ فيها مرضُ الجَهلِ والشُّبهَةِ .

وأمّا مَرضُ الشهوَة : ففي قولِه : ﴿ يا نِساءَ النَّبيِّ لَستُنَّ كأحدٍ من النِّساءِ إنِ اتَّقيتُنَّ فلا تخضَعنَ بالقولِ فيَطمَعَ الَّذي في قَلبهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢]، أي : لا تَلِنَّ في الكلامِ فيطمعَ الذي في قلبهِ فُجورٌ وزناءٌ .

قالوا : والمرأةُ ينبغي لها إذا خاطَبَت الأجانبَ أن تُغلِظ كلامَها وتُقوِّيَهُ ، ولا تُليِّنَهُ وتكسِّرَهُ، فإنَّ ذلكَ أبعَدُ من الرِّيبَةِ والطَّمعِ فيها .

وللقَلبِ أمراضٌ أُخَرُ من الرِّياء والكِبْرِ والعُجْبِ والحَسَدِ والفَخرِ والخُيَلاءِ وحُبِّ الرِّياسَةِ والعُلُوِّ في الأرضِ .

وهذا المرضُ مُركَّبٌ من مرضِ الشُّبهَةِ والشَّهوَةِ؛ فإنَّهُ لا بدَّ فيهِ مِن تخيُّلٍ فاسدٍ، وإرادةٍ باطلةٍ، كالعُجْبِ والفَخرِ والخُيَلاءِ والكِبْرِ المُركَّبِ من تخيُّلِ عظمتهِ وفَضلهِ وإرادةِ تَعظيم الخَلْقِ له ومِدْحَتِهم .

فلا يخرجُ مرضهُ عن شهوةٍ ، أو شُبهَةٍ ، أو مُركَّبٍ منها .

وهذه الأمراضُ كلُّها مُتولِّدَةٌ عن الجَهلِ، **ودواؤها العلمُ**، كما قال النَّبيُّ ﷺ في حديثِ صاحبِ الشَّجَّةِ الذي أفتوهُ بالغُسلِ ؛ فماتَ : « قتلوهُ قتلَهم اللَّهُ ، أَلَا سألوا إذ لم يعلَموا ؟ إنَّما شفاءُ العِيِّ السُّؤالُ » [1] فجعَلَ العِيَّ - وهو

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (١ / ٣٨٠)، وابن خُزيمة (١ / ١٣٨)، وابن حبان (٢٠١) ، والدارقطني (١ / ١٩٠) ، وابن الجارود (١٢٨) ، وأبو يعلى (٤ / ٣٠٩)، والطبراني في « الكبير » (١١٤٧٢)، وأبو نُعيم (٣ / ٣١٧)، والبيهقيّ (١ / ٢٢٦) من طريق الأوزاعي عن عطاء، عن ابن عباس .

وهذا إسناد رجاله ثقاتٌ، لكنَّه أُعِلَّ :

فقد قال ابنُ أبي حاتم في « علل الحديث » (رقم ٧٧) :

« سألت أبي وأبا زُرعة عن حديثٍ رواه هِقل والوليد بن مُسلم وغيرهما عن الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس أنَّ رجلًا أصابته جراحةٌ فأجنب، فأُمر بالاغتسال، فاغتسَل، فَكُزَّ فمات ؟!

وذكرتُ لهما الحديث، فقالا :

روى هذا الحديثَ ابنُ أبي العشرين عن الأوزاعي، عن إسماعيل بن مسلم، عن عطاء ، عن ابن عباس، وأفسد الحديث » .

ونقل هذا الكلامَ وأَقرَّه ابن عبدالهادي في « تنقيح التحقيق » (١ / ٥٨٣) . =

....

قلت : يريدان أَنَّ إسماعيلَ هذا - وهو المكّي - ضعيفٌ .

وما أخرجه أحمد (١ / ٣٣٠)، وأبو داود (٣٣٧)، والدارمي (١ / ١٩٢)، وعبدالرزاق (٨٦٧)، والبيهقي (١ / ١٢٧)، والدارقطني (١ / ١٩١) يُشير إلى هذا؛ فقد أخرجوه من طريق الأوزاعي أنّه بلغه عن عطاء أنّه سمع ابن عباس ... فذكره ...

ولكنْ هذا الكلام يوجد ما يُوضِحُهُ :

فقد رواه الحاكم (١ / ١٧٨) من طريق بِشر بن بَكر، حدَّثني الأوزاعي، حدّثنا عطاء بن أبي رباح، أنّه سمع ابن عباس .

وهذا إسنادٌ صحيحٌ، صحّحه الحاكم ووافقه الذهبي .

فإنْ قيل : تفرَّد بالتصريح بالتحديث بِشرٌ هذا - وهو ابن بكر -، وقد قال فيه مسلمَة بن القاسم : « يروي عن الأوزاعي أشياء انفرد بها » !!

فالجوابُ : أنّه هنا قد حفظ بحمد اللّه، فقد تابَعه على إثبات سماع الأوزاعي من عطاء عبدُالحميد - وهو ابنُ أبي العشرين نفسُه - عند ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ١٠٥) .

وإنْ كان في عبدالحميد هذا كلامٌ؛ لكنّه هنا مقبولُ الرواية لِمَا ذَكَرْتُ .

ولعلَّه من أجل ذا - أو غيره - جزم ابنُ معين بسماعه منه؛ كما في « تاريخه » (٢/٤٠٥- رواية الدوري) - وهذا مما فات العلائيَّ في « جامع التحصيل » (ص ٣٠٩) ! - .

فالذي يظهرُ لي - واللّه أعلم - أنَّ الأوزاعيَّ سمعه منهما معًا - فهو مُتّسع الرواية - ؛ فكان يُثبت هذا مرّةً، وذاك أخرى .

وليس هذا بمستنكر من مثلِه .

وقد تُوبع الأوزاعيّ :فرواه الوليد بن عُبيد اللّه عن عطاء - وهو عمُّه - سماعًا؛ عن ابن عباس :

رواه ابن خزيمة (٢٧٣)، والحاكم (١/١٦٥)، وابن الجارود (١٢٨)، وابن حبان (١٣١٤) عنه .

والوليد هذا ترجم له ابنُ أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٩/٩) ونقل توثيقه عن يحيى ابن مَعين .

ولكنْ نقل الذهبيُّ في « الميزان » (٤ / ٣٤١) تضعيفَ الدارقطني له . =

عِيُّ القَلْبِ عن العلمِ واللسانِ عن النُّطقِ به - مرضًا ،وشفاؤهُ سؤالُ العلماءِ .

فأمراضُ القلوبِ أصعَبُ من أمراضِ الأبدانِ؛ لأنَّ غايَةَ مرَضِ البَدنِ أن يُفضي بصاحبِهِ إلى الموت، وأمَّا مَرضُ القَلبِ فَيُفضي بصاحبِهِ إلى الشقاءِ الأبديِّ، **ولا شفاءَ لهذا المرضِ إلّا بالعلمِ**، ولهذا سمَّى اللَّهُ تعالى كتابَهُ شفاءً لأمراضِ الصُّدور، وقال تعالى : ﴿ **يا أيُّها النَّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعظَةٌ من رَبِّكُم وشفاءٌ لما في الصُّدور وهُدىً ورحمَةٌ للمؤمنين** ﴾ [يونس : ٥٧] .

ولهذا السَّبَبِ **نسبةُ العلماء إلى القلوبِ كنسبَةِ الأطبَّاءِ إلى الأبدانِ،** وما يقالُ للعلماءِ : أطبَّاءُ القلوبِ؛ فهو لِقَدرِ ما جامعٍ بينهما ، وإلّا فالأمرُ أعظمُ من ذلك؛ فإنَّ كثيرًا من الأُمَمِ يَستغنونَ عن الأطبَّاءِ، ولا يوجَدُ الأطبَّاءُ إلّا في اليَسيرِ من البلادِ ، وَقَد يَعيشُ الرَّجلُ عُمُرَهُ أو بُرهَةً منه لا يحتاجُ إلى طبيبٍ .

وأمَّا العُلماءُ باللَّهِ وأمرِهِ فهم حياةُ الوجودِ وروحُه، ولا يُستَغنى عنهُم طرفَةَ

= قلتُ : وهو نصُّ كلامه - رحمه اللَّه - في « السنن » (٣ / ٧٢) .

فروايتُه - أعني الوليد - صالحةٌ في الشواهد كما لا يخفى .

فمن لم يقنع بحديث ابن عباس وحدَه، فليضمّ إليه رواية الوليد هذه، فتزيدُه - إن شاء اللَّه - ثباتًا وثُبوتًا .

وقد خالفَ الأوزاعيَّ في روايته الزُّبيرُ بن خُريق - بالخاء المعجمة آخره قاف مُصغّرًا - : فرواه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (١ / ١٨٩)، والبيهقي (١ / ٢٢٧)، والبغوي (٢ / ١٢٠)، من طريق الزبير، عن عطاء، عن جابر :

فجعله من مُسند جابر .

وقد قال الدارقطني في الزبير هذا : « ليس بالقويّ » !

فروايته مرجوحةٌ .

فالعُمدةُ - إذن - حديثُ ابن عباس بطريقَيْهِ عن عطاء .

وهناك شاهدان - أيضًا - للحديث ، لكنهما واهيان ، فلا نذكرُهُما .

عَينٍ، فحاجةُ القلبِ إلى العلمِ ليسَت كالحاجَةِ إلى التنفُّسِ في الهواءِ، بل أعظَمُ .

وبالجُملَةِ؛ فالعلمُ للقَلبِ مثلُ الماءِ للسَّمكِ؛ إذا فَقَدَهُ ماتَ، فنسبَةُ العلمِ إلى القَلبِ كنسبَةِ ضوءِ العَينِ إليها، وكنسبَةِ سمعِ الأُذنِ كلامَ اللِّسان إليهِ، فإذا عَدِمَهُ كانَ كالعَينِ العَمياءِ، والأُذنِ الصمَّاءِ، واللسانِ الأخرَسِ .

ولهذا يصِفُ سبحانهُ أهلَ الجَهلِ بالعَمى والصَّمَم والبَكَمِ، وذلكَ صفَةُ قلوبهم حيثُ فَقَدَت العلمَ النَّافعَ، فَبقيَت على عَماها وصمَمِها وبَكَمِها، قال تعالى : ﴿ ومَن كانَ في هذهِ أعمى فهو في الآخِرَةِ أعمى وأضلُّ سبيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢]، والمرادُ : عمى القَلبِ في الدُّنيا، وقال تعالى : ﴿ ونَحشرُهُم يومَ القيامَةِ على وجوهِهِم عُميًا وبُكمًا وصُمًّا مأواهُم جهنَّمُ ﴾ [الإسراء : ٩٧]، لأنَّهُم هكذا كانوا في الدُّنيا، والعَبدُ يُبعَثُ على ما ماتَ عليهِ .

○ الوجهُ الخامس والسبعون : [العلمُ سبيلُ النّجاة] :

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ بحكمَتهِ سلَّطَ على العَبدِ عَدُوًّا عالمًا بطرقِ هلاكهِ وأسبابِ الشرِّ الذي يُلقيهِ فيه مُتفننًا فيها، خَبيرًا بها، حَريصًا عليها، لا يفتُرُ عنه يقظَةً ولا منامًا، ولا بدَّ لهُ من واحدةٍ من ستٍّ ينالُها منه :

إحداها - وهي غايةُ مرادهِ منه - : أن يَحُولَ بينه وبينَ العلمِ والإيمانِ، فيُلقيَهُ في الكُفرِ؛ فإذا ظفِرَ بذلكَ فرغَ منه واستراحَ .

فإنْ فاتَتْهُ هذه وهُديَ للإسلامِ حَرِصَ على تلوِ الكفرِ، وهي البِدعَةُ - وهي أحبُّ إليهِ من المعصيَةِ؛ فإنَّ المَعصيَةَ يُتابُ[1] منها والبدعَةُ لا يُتابُ منها - ؛

(١) يُروى مثلُ هذا الكلام عن بعض السّلف، انظر كتابي « الكشف الصريح » (رقم : ٦١) .

لأنَّ صاحبَها يرى أنَّهُ على هُدىً .

وفي بَعضِ الآثارِ: يقولُ إبليسُ : أهلكتُ بني آدمَ بالذُّنوبِ، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إلهَ إلّا اللَّه، فلمَّا رأيتُ ذلكَ بثثْتُ فيهم الأهواءَ فهم يُذنبونَ ولا يتوبونَ، لأنَّهُم يَحسَبُونَ أنَّهُم يُحسِنونَ صُنعًا .

فإذا ظَفِرَ منه بهذهِ صيَّرهُ من رُعاتِهِ وأُمرائِهِ .

فإنْ أعجَزَتْهُ ألقاهُ في الثالثة؛ وهي الكبائرُ .

فإنْ أعجَزَته ألقاه في اللَّمَم؛ وهي الرابعة، وهي الصغائر .

فإنْ أعجزَتْهُ شغَلَهُ بالعَملِ المفضولِ عمَّا هو أفضلُ منه ليُزِيجَ[1] عليه الذي بينهما؛ وهي الخامسةُ .

فإنْ أعجزَهُ ذلكَ صارَ إلى السَّادسَة؛ وهي تَسليطُ حزبِهِ عليه يُؤذونهُ ويشتِمونهُ ويبهتونهُ ويرمونهُ بالعظائمِ؛ ليحزنَهُ ويشغَلَ قلبهُ عن العلمِ والإرادةِ وسائرِ أعمالِهِ .

فكيفَ يُمكنُ أن يحترزَ منه مَن لا علمَ له بهذه الأُمور ولا بعدوِّهِ ولا بما يُحصِّنُهُ منهُ ؟ فإنَّهُ لا يَنجو من عَدوِّهِ إلّا مَن عَرَفَ طريقَه التي يأتيهِ منها وجيشَه الذي يستعينُ به عليهِ ، وعَرَفَ مداخلَهُ ومخارجَهُ، وكيفيَّةَ محاربتهِ، وبأيِّ شيءٍ يحاربهُ، وبماذا يُداوي جراحَتهُ، وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ القوَّةَ لقتالِهِ ودفعهِ ؟!

وهذا كلُّهُ لا يَحصُلُ إلّا بالعلمِ ، فالجاهلُ في غفلةٍ وعمىً عن هذا الأمرِ العَظيمِ والخَطْبِ الجسيمِ .

ولهذا جاءَ ذِكْرُ هذا العدُوِّ وشأنِهِ وجُنودهِ ومكايدِهِ في القرآنِ كثيرًا جدًّا ؛ لحاجَةِ النُّفوسِ إلى معرفَةِ عدوِّها، وطرقِ محاربتِهِ ومجاهدتِهِ، فلولا أنَّ العلمَ

(١) ليُغلِق .

يكشفُ عن هذا لَمّا نجا مَن نجا منه، **فالعلـمُ وثَمَرَتُه هو الذي تـحصُلُ به النَّجاةُ** .

○ **الوجهُ السادس والسبعون : [العلمُ ضِدُّ الغفلةِ] :**

أنَّ أعظمَ الأسبابِ التي يُحرَمُ بها العبدُ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ ولذَّةَ النَّعيمِ في الدَّارَين ويدخُلُ عليهِ عدوُّهُ منها هي الغفلَةُ المُضادَّةُ للعملِ، والكسلُ المُضادُّ للإرادَةِ والعزيمَةِ، هذانِ أصلُ بلاءِ العَبدِ وحرمانِهِ منازلَ السُّعَداء، وهما من عَدمِ العلمِ .

أمَّا الغفلةُ فَمُضادَّةٌ للعلمِ مُنافيَةٌ له ؛ وقد ذمَّ سبحانهُ أهلَها، ونهى عن الكَونِ منهم ، وعَن طاعتهم ، والقَبُولِ منهم ، قال تعالى :﴿ ولا تَكُن من الغافلين ﴾ [الأعراف : ٢٠٥]، وقال تعالى : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أغفَلْنا قلبَهُ عن ذِكْرِنا ﴾ [الكهف : ٢٨]، وقال تعالى : ﴿ ولقَد ذَرَأْنا لِجَهنَّمَ كثيرًا من الجنِّ والإنسِ لهُم قلوبٌ لا يفقَهونَ بها ولهم أعيُنٌ لا يُبصِرُونَ بها ولهم آذانٌ لا يَسمعونَ بها أُولئكَ كالأنعامِ بل هُم أضلُّ أُولئكَ هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وقال النَّبيُّ ﷺ في وصيَّتِهِ لنساءِ المؤمنين : « لا تَغْفَلْنَ فتَنسَيْنَ الرَّحمَة »[١] .

وسُئلَ بعضُ العلماء عَن عِشقِ الصُّوَر ؟ فقال : قلوبٌ غفلَت عن ذكرِ اللَّهِ، فابتلاها بِعُبوديَّةِ غيرِهِ .

---

(١) رواه أبو داود (١٥٠١) وأحمد (٦ / ٣٧٠) عن يُسَيرة، وهو حديثٌ حسنٌ . وانظر تمامَ الكلام عليه في كتابي « إحكام المباني » (ص ٨٧) .

فالقَلبُ الغافلُ مأوى الشيطانِ؛ فإنَّه وسواسٌ خنَّاسٌ، وقد التَقَمَ قلبَ الغافلِ يقرأُ عليهِ أنواعَ الوساوسِ والخيالاتِ الباطلةِ، فإذا تذكَّرَ وذكرَ اللّهَ انجمعَ، وانضمَّ، وخَنَسَ، وتضاءَلَ لذكرِ اللّهِ، فهو دائمًا بينَ الوَسوَسةِ والخَنْسِ .

فالشيطانُ دائمًا يترقَّبُ غفلةَ العبيد، فَيَبذُر في قلبه بَذرَ الأماني والشهواتِ والخيالاتِ الباطلَةِ، فيُثمرُ كلَّ حنظَلٍ وكلَّ شوكٍ وكلَّ بلاءٍ، ولا يزالُ يُمِدُّهُ بسَقيِهِ حتى يُغطِّيَ القَلبَ ويُعميَه .

وأمَّا الكَسَلُ، فيتولَّدُ عنه الإضاعةُ، والتَّفريطُ، والحِرْمانُ، وأشدُّ النَّدامَةِ، وهو مُنافٍ للإرادَةِ والعَزيمَةِ التي هي ثمرَةُ العلمِ؛ فإنَّ مَن علمَ أنَّ كمالَهُ ونعيمَهُ في شيءٍ، طَلَبَهُ بجهدهِ، وعَزَمَ عليهِ بقلبهِ كلِّهِ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يسعى في تكميلِ نفسهِ ولذَّتِهِ، ولكنَّ أكثَرَهُم أخطأَ الطَّريقَ لعَدمِ علمهِ بما يَنبَغي أن يطلبَهُ، فالإرادَةُ مسبوقَةٌ بالعلمِ والتَّصوُّرِ، فتخلُّفُها في الغالبِ إنَّما يكونُ لتخلُّفِ العلمِ والإدراكِ، وإلّا فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ سعادَةَ العَبدِ في هذا المطلبِ ونجاتَه وفوزَه كيفَ يلحقُهُ كَسلٌ في النُّهوضِ إليهِ ؟!

ولهذا استعاذَ النَّبيّ ﷺ من الكسَل، ففي « الصَّحيح »[1] عنه أنَّه كانَ يقولُ : « اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الهَمِّ والحَزَن، والعَجْزِ والكَسَل، والجُبْنِ والبُخلِ، وضِلَعِ الدَّينِ، وغَلَبةِ الرِّجال »؛ فاستعاذَ من ثمانيةِ أشياء، كلُّ شيئينِ منها قرينان؛ فالهمُّ والحَزَنُ قرينان؛ والفرقُ بينهما أنَّ المكروه الواردَ على القلبِ إمَّا أن يكونَ على ما مَضى أو لِمَا يُستقبل : فالأوَّل هو الحَزَنُ، والثَّاني الهمُّ .

وإنْ شئتَ قلتَ : الحَزَنُ على المكروه الذي فاتَ ولا يُتوقَّعُ دفعُهُ، والهمُّ

(١) رواه البخاري (٦٣٦٣) ومسلم (٢٧٠٦) - بنحوِه - عن أنس .

على المكروهِ المُنتَظَرِ الذي يُتوقَّعُ دفعُهُ وتأمُّلهُ، والعجزُ والكسَلُ قرينان؛ فإنَّ تخلُّفَ مصلحَةِ العَبدِ وكمالهِ ولذَّتهِ وسرورهِ عنهُ إمَّا أن يكونَ مصدرُهُ عدمَ القدرَةِ - فهو العجزُ - ، أو يكونَ قادرًا عليهِ لكنْ تخلَّفَ لعَدمِ إرادتهِ - فهو الكسَلُ - ، وصاحبُهُ يُلامُ عليه ما لا يُلامُ على العجزِ .

وقَد يكونُ العجزُ ثمرَةَ الكسَلِ،فيُلامُ عليهِ أيضًا؛ فكثيرًا ما يكسلُ المرءُ عن الشيءِ الذي هو قادرٌ عليهِ ، وتضعُفُ عنه إرادتُهُ ، فَيُفضي به إلى العجزِ عنه .

وهذا هو العجزُ الذي يلومُ اللّهُ عليه ؛ وإلّا فالعجزُ الذي لم تُخلقْ له قُدرَةٌ على دفعهِ ولا يدخُلُ مَعجوزُهُ تحتَ القدرَةِ لا يُلامُ عليه .

قال بعضُ الحُكماء في وصيَّتهِ : إيَّاكَ والكسَلَ والضَّجَرَ؛ فإنَّ الكسَلَ لا ينهضُ لمكرَمَةٍ، والضَّجَرُ إذا نَهَضَ إليها لا يَصبرُ عليها .

والضَّجَرُ مُتوَلّدٌ عن الكسَلِ والعجزِ؛ فلم يُفرِدهُ في الحديثِ بلفظٍ .

ثمَّ ذكرَ الجُبنَ والبخلَ؛ فإنَّ الإحسانَ المُتوقَّعَ من العَبدِ؛ إمَّا بمالهِ وإمَّا ببدنهِ، فالبَخيلُ مانعٌ لنفعِ مالهِ، والجبانُ مانعٌ لنفعِ بَدنهِ .

والمشهورُ عندَ النَّاسِ أنَّ البخلَ مستلزمٌ الجُبنَ من غيرِ عَكسٍ، لأنَّ مَن بخلَ بمالهِ فهو بنفسهِ أبخلُ، والشجاعَةُ تستلزمُ الكَرَم من غيرِ عكسٍ، لأنَّ مَنْ جادَ بنفسهِ فهو بمالهِ أسمحُ وأجوَدُ ، وهذا الذي قالوهُ ليسَ بلازمٍ أكثَرُهُ؛ فإنَّ الشجاعَة والكرَمَ وأضدادَها أخلاقٌ وغرائزُ قد تُجمَعُ في الرَّجُلِ، وقد يعطى بعضَها دونَ بَعضٍ، وقَد شاهَدَ النَّاسُ من أهلِ الإقدامِ والشجاعَةِ والبأسِ مَنْ هو أبخَلُ النَّاس، وهذا كثيرًا ما يُوجَدُ في أُمَّةِ التركِ ؛ يكونُ أشجعَ من ليثٍ وأبخَلَ من كلبٍ !

فالرَجلُ قَد يسمحُ بنفسهِ ويَضَنُّ بمالهِ، ولهذا يُقاتلُ عليهِ حتى يُقتلَ، فيبدأُ بنفسهِ دونَهُ، فَمِنَ النَّاس مَنْ يسمحُ بنفسهِ ومالهِ، ومنهم من يبخلُ بنفسهِ، ومنهم من يسمح بمالهِ ويبخلُ بنفسهِ، وعكسُهُ .

والأقسامُ الأربعَةُ موجودَةٌ في النَّاسِ .

ثمَّ ذكرَ ضِلَعَ الدَّين وغَلَبَةَ الرِّجالِ؛ فإنَّ القَهرَ الذي ينالُ العَبدَ نوعان :

أحدهما : قَهرٌ بحقٍّ؛وهو ضِلَعُ الدَّين .

والثَّاني : قهرٌ بباطلٍ؛ وهو غلبةُ الرِّجالِ .

فصلواتُ اللّهِ وسلامُهُ على من أُوتيَ جوامعَ الكلمِ، واقتُبِسَت كنوزُ العلمِ والحكمَةِ من ألفاظهِ .

والمقصودُ أنَّ الغفلَةَ والكسَلَ - اللذينِ هما أصلُ الحِرمانِ - سببُهُما عدَمُ العلمِ ؛ فعادَ النَّقصُ كلُّهُ إلى عَدمِ العلمِ والعَزيمَةِ، والكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعَزيمَةِ .

والنَّاسُ في هذا على أربعَةُ أضرُبٍ :

الضَّربُ الأوَّل : من رُزِقَ علمًا وأُعِينَ على ذلكَ بقوَّةِ العَزيمَة على العَمل به؛ وهذا الضَّربُ هم خُلاصَةُ الخَلقِ، وهم الموصوفونَ في القرآنِ بقولِه : ﴿ الَّذينَ آمَنوا وعَملوا الصَّالحات ﴾ [العصر : ٣]، وقولِه : ﴿ أُولي الأيدي والأبصار ﴾ [ص : ٤٥]، وبقولِه : ﴿ أفَمَن كانَ مَيْتًا فأحيَيناهُ وَجَعَلنا له نورًا يمشي به في النَّاسِ كمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

فبالحياةِ تُنالُ العَزيمةُ، وبالنُّورِ يُنالُ العلمُ .

وأئمَّةُ هذا الضَّربِ هم أولو العَزمِ من الرُّسُل .

والضَّربُ الثَّاني : مَنْ حُرِمَ هذا وهذا، وهم الموصوفونَ بقوله : ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللهِ الصمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يعقلون ﴾ [الأنفال : ٢٢]، وبقوله : ﴿ أم تحسبُ أنَّ أكثرهم يَسمعونَ أو يَعقلونَ إنْ هم إلّا كالأنعامِ بل هم أضلُّ سبيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤]، وبقوله : ﴿ فإنَّكَ لا تُسمِعُ المَوتى ولا تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء ﴾ [الروم : ٥٢]، وقولِه : ﴿ وما أنتَ بمسمعٍ مَن في القبور ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

وهذا الضَّربُ شرُّ البريَّة ، يُضيِّقونَ الدِّيارَ، ويُغلونَ الأسعارَ، وعندَ أنفسهم أنَّهُم يعلمونَ ، ولكنْ ظاهرًا من الحياةِ الدُّنيا وهم عن الآخرَةِ هم غافلون، ويعلمونَ ، ولكنْ ما يضرُّهُم ولا يَنفعُهُم، وينطقونَ ، ولكنْ عن الهَوى ، ينطقونَ ويتكلَّمونَ ، ولكنْ بالجهلِ ، ويتكلَّمونَ ويؤمنون ، ولكنْ بالجبتِ والطَّاغوتِ، وَيَعبُدونَ ، ولكنْ يَعبدونَ من دون اللّٰه ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم، ويُجادلون، ولكنْ بالباطل ليُدحضوا به الحقَّ، ويُبيِّتونَ ، ولكنْ ما لا يَرضى من القولِ، يُبيِّنونَ ، ويَدعونَ ، ولكنْ مع اللّٰهِ إلهًا آخَر، يَدعونَ ويذكُرونَ ، ولكنْ إذا ذُكِّروا لا يَذكُرون ويصلُّونَ ، ولكنَّهُم من المصلِّين الذينَ هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤونَ ويمنعونَ الماعون، ويحكمونَ ، ولكنْ حُكمَ الجاهليَّةِ يبغونَ، ويكتبونَ ، ولكنْ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثمَّ يقولونَ : هذا من عند اللّٰهِ ، ليَشتروا به ثمنًا قليلًا فويلٌ لهم ممَّا كتبَت أيديهم وويلٌ لهم ممَّا يكسبونَ، ويقولونَ : إنَّما نحنُ مصلحون ! ألَا إنَّهُم هم المفسدونَ ، وإذا قيلَ لهم : آمنوا كما آمنَ النَّاسُ ، قالوا : أنؤمن كما آمن السُّفهاء ؟! ألَا إنَّهم هم السُّفهاء ولكنْ لا

يشعرون(١).

فهذا الضَّربُ ناسٌ بالصُّورَةِ وشياطينُ بالحَقيقةِ، وجلُّهُم - إذا فكَّرتَ - فهم حميرٌ أو كلابٌ أو ذئابٌ !

وصَدَقَ البُحتُريُّ في قولِه :

لَم يَبقَ مِن جُلِّ هذا النَّاسِ باقيَةٌ ينالُها الوَهمُ إلّا هذهِ الصُّوَرُ

وقال آخَر :

لا تَخدَعنَّكَ اللحى والصُّوَر تسعةُ أعشارِ مَن تَرى بَقَر

في شجَرِ السَّروِ منهم مثلٌ لها رَواءٌ وما لها ثمر

وأحسنُ من هذا كلِّهِ قولُه تعالى : ﴿ وإذا رأيتَهُم تُعجِبُكَ أجسامهُم وإنْ يقولوا تسمعْ لقولهم كأنَّهُم خُشُبٌ مسنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون : ٤] .

عالِمُهم كما قيلَ فيه :

زواملُ للأسفارِ لا علمَ عندهم بجيِّدها إلّا كعلمِ الأباعرِ

لَعَمرُكَ ما يَدري البَعيرُ إذا غَدا بأوساقِهِ أو راحَ ما في الغرائرِ

وأحسَنُ من هذا وأبلغُ وأوجَزُ قولُه تعالى : ﴿ ... كَمَثَلِ الحمارِ يَحمِلُ أسفارًا بئسَ مثلُ القَومِ الَّذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ واللهُ لا يَهدي القومَ الظَّالمين ﴾ [الجمعة : ٥] .

الضَّربُ الثَّالث : مَن فُتحَ له بابُ العلمِ وأُغلقَ عنه بابُ العَزمِ والعملِ، فهذا في رتبةِ الجاهلِ أو شرٌّ منه .

فهذا جهلُهُ كانَ خَيرًا له وأخفُّ لعذابِهِ من علمِهِ ، فما زادَهُ العلمُ إلّا وَبَالًا

---

(١) وكلامُ المصنِّف هذا مُضَمَّنٌ عدّةَ آياتٍ معروفةٍ .

وعذابًا .

وهذا لا مطمعَ في صلاحِهِ، فإنَّ التَّائهَ عن الطَّريقِ يُرجى له العَودُ إليها إذا أبصَرَها ، فإذا عَرَفها وحادَ عنها عمدًا فمتى تُرجى هدايتهُ ؟ قال تعالى : ﴿ كيفَ يَهدي اللهُ قومًا كَفَروا بعدَ إيمانِهم وشهِدوا أنَّ الرَّسولَ حقٌّ وجاءَهُم البيِّناتُ واللهُ لا يَهدي القومَ الظَّالمين ﴾ [آل عمران : ٨٦] .

الضَّربُ الرَّابع : مَن رُزِقَ حظًّا من العَزيمَةِ والإرادَةِ ولكنْ قلَّ نَصيبُهُ من العلمِ والمعرفَةِ ، فهذا إذا وُفِّق له الاقتداءُ بداعٍ من **دُعاةِ اللَّهِ ورسولِهِ** كان من الذينَ قال اللَّهُ فيهم : ﴿ ومَن يُطعِ اللهَ والرَّسولَ فأولئكَ مع الَّذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم من النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصَّالحين وحَسُنَ أُولئكَ رفيقًا ذلكَ الفَضلُ من اللهِ وكفى باللَّهِ عليمًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

رَزَقَنا اللَّهُ من فَضلِهِ، ولا حرَمَنا بسوءِ أعمالنا ، إنَّهُ غفورٌ رحيمٌ .

○ **الوجه السابع والسبعون : [صفات المَدْح مِن ثمرات العلم] :**

أَنَّ كلَّ صفَةٍ مَدَحَ اللَّهُ بها العبدَ في القرآنِ فهيَ ثمرَةُ العلمِ ونتيجَتُهُ، وكلَّ ذمٍّ ذمَّهُ فهو ثمرَةُ الجَهلِ ونتيجَتُهُ، فمدَحَهُ بالإيمانِ وهو رأسُ العلمِ وَلُبُّهُ، ومدَحَهُ بالعَمَلِ الصَّالحِ الذي هو ثمرَةُ العلمِ النَّافعِ، ومدحَهُ بالشكرِ، والصَّبرِ، والمُسارَعةِ في الخَيراتِ، والحُبِّ له، والخوفِ منه، والرَّجاءِ والإنابَةِ، والحلمِ والوقارِ، واللُّبِّ والعَقلِ، والعِفَّةِ والكرَمِ، والإيثارِ على النَّفسِ، والنَّصيحَةِ لعبادِهِ، والرَّحمَةِ بهم، والرَّأفَةِ، وخَفضِ الجناحِ والعَفوِ عن مُسيئهم، والصَّفحِ عن جانيهم، وبذلِ الإحسانِ لكافَّتهم، ودفعِ السَّيِّئةِ بالحَسَنَةِ، والأمرِ بالمَعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ، والصَّبرِ في مواطنِ الصَّبرِ، والرّضا بالقضاءِ، **واللِّينِ للأولياءِ، والشدَّةِ**

على الأعداءِ، والصِّدقِ في الوَعدِ، والوَفاءِ بالعَهدِ، والإعراضِ عن الجاهلينَ، والقَبُولِ من النَّاصحينَ، واليَقينِ والتَّوكُّلِ، والطُّمأنينةِ والسَّكينَةِ، والتَّواصُلِ والتَّعاطُفِ، والعَدلِ في الأقوالِ والأفعالِ والأخلاقِ، والقُوَّةِ في أمرِهِ، والبَصيرةِ في دينِهِ، والقيامِ بأداءِ حقِّهِ، واستخراجِهِ من المانعينَ لهُ، والدَّعوَةِ إليهِ وإلى مرضاتِهِ وجنَّتِهِ، **والتَّحذيرِ عن سُبُلِ أهلِ الضَّلالِ**، وتَبيينِ طُرقِ الغَيِّ وحالِ سالكيها، والتَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبرِ، والحضِّ على طعامِ المسكين، وبرِّ الوالدين، وصِلَةِ الأرحامِ، وبذلِ السَّلامِ لكافَّةِ المؤمنين ...

... إلى سائرِ الأخلاقِ المحمودةِ والأفعالِ المرضيَةِ التي أقسمَ اللَّهُ سبحانهُ على عِظَمِها، فقال تعالى : ﴿ ن . والقَلمِ وما يَسطُرونَ ما أنتَ بِنِعمَةِ ربِّكَ بِمَجنونٍ وإنَّ لكَ لأجرًا غَيرَ ممنونٍ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ [القلم : ١ - ٤] .

وقالت عائشَةُ رضيَ اللَّهُ عنها وقد سُئلَت عن خُلُقِ الرَّسول ﷺ ؟ فقالت : كانَ خُلُقُهُ القرآنَ[1]، فاكتفى السَّائلُ بذلكَ ، وقال : فهمتُ أن أقومَ ولا أسألَ عن شيءٍ بعدها .

فهذه الأخلاقُ ونحوُها هي ثمرَةُ شجرَةِ العلمِ .

أمَّا شجرَةُ الجَهلِ فَتُثمِرُ كلَّ ثمرَةٍ قبيحَةٍ من الكفرِ والفسادِ والشركِ والظُّلمِ والبَغي والعُدوانِ والجَزَعِ والهَلَعِ والكُنودِ والعَجَلَةِ والطَّيشِ والحدَّةِ والفُحشِ والبَذاءِ والشحِّ والبُخلِ .

ولهذا قيلَ في حدِّ البخلِ : جهلٌ مقرونٌ بسوءِ الظَّنِّ، ومن ثمرتِهِ الغِشُّ

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦) .

للخَلْقِ، والكِبْرُ عليهم، والفخرُ والخُيَلاءُ، والعُجبُ والرِّياءُ، والسُّمعَةُ والنِّفاقُ، والكذبُ وإخلافُ الوعدِ، والغِلظةُ على النَّاسِ والانتقامُ ، ومقابلَةُ الحَسَنةِ بالسَّيِّئةِ ، والأمرُ بالمُنكرِ والنَّهيُ عنِ المعروفِ ، وتركُ القَبُولِ من النَّاصحينَ ، وحبُّ غيرِ اللَّهِ ورجاؤُهُ، والتَّوكُّلُ عليه وإيثارُ رضاهُ على رضا اللَّهِ، وتَقديمُ أمرهِ على أمرِ اللَّهِ، والتَّماوُتُ عند حقِّ اللَّهِ والوثوقُ بما عندَ حقِّ نفسهِ ، والغَضَبُ لها والانتصارُ لها؛ فإذا انتُهِكَت حقوقُ نفسهِ لم يقُم لغضبهِ شيءٌ حتى ينتقمَ بأكثَرَ من حقِّهِ، وإذا انتُهِكَت محارمُ اللَّهِ لم يَنْبِضْ لهُ عِرْقٌ غَضَبًا للَّهِ، فلا قوَّةَ في أمرهِ، ولا بَصيرَةَ في دينهِ .

وَمِنْ ثمرتها الدَّعوَةُ إلى سبيلِ الشيطانِ ، وإلى سلوكِ طريقِ الغَيِّ واتِّباعِ الهَوى ، وإيثارُ الشهواتِ على الطَّاعاتِ وقيلَ وقالَ ، وكثرَةُ السُّؤال ، وإضاعَةُ المالِ ، ووأدُ البناتِ ، وعقوقُ الأمَّهاتِ ، وقَطيعَةُ الأرحامِ ، وإساءَةُ الجوارِ ، وركوبُ مراكبِ الخِزيِ والعارِ .

وبالجملَةِ؛ فالخَيرُ بمجموعهِ ثمرٌ يُجتَنى من شجرَةِ العلمِ، والشرُّ بمجموعهِ شوكٌ يُجتَنى من شجرَةِ الجَهلِ، فلو ظَهَرَت صورَةُ العلمِ للأبصارِ لزادَ حُسنُها على صورَةِ الشمسِ والقَمَرِ، ولو ظَهَرَت صورَةُ الجهلِ للأبصار لكانَ منظرُها أقبحَ منظرٍ، بل كلُّ خَيرٍ في العالَمِ فهو من آثارِ العلمِ الذي جاءَت به الرُّسُلُ ومُسبَّبٌ عنه .

وكذلكَ كلُّ خَيرٍ يكونُ إلى قيامِ السَّاعَةِ وبعدَها في القيامَةِ ، وكلُّ شرٍّ وفسادٍ حَصَلَ في العالَمِ ويحصُلُ إلى قيامِ السَّاعَةِ وبَعدها في القيامَةِ فسببُهُ مُخالفَةُ ما جاءَت بهِ الرُّسُلُ في العلمِ والعَمَلِ .

ولو لم يكُن للعملِ أبٌ ومُربٌّ وسائسٌ ووَزيرٌ إلّا العقلَ الذي به عِمارَةُ

الدَّارَينِ - وهو الذي أرشَدَ إلى طاعَةِ الرُّسلِ وسلَّمَ القَلبَ والجوارحَ ونفسَهُ إليهم وانقادَ لحكمِهِ وعَزَلَ نَفسَهُ[1] وسلَّمَ الأمرَ إلى أهلِهِ - لكفى به شرفًا وفضلًا .

وقَد مدَحَ اللَّهُ سبحانهُ العقلَ وأهلَهُ في كتابِهِ في مواضعَ كثيرةٍ منه ، وذمَّ من لا عَقلَ لهُ ، وأخبَرَ أنَّهُم أهلُ النَّارِ الذينَ لا سمعَ لهم ولا عقلَ ، فهو آلةُ كلِّ علمٍ ، وميزانُهُ الذي يُعرَفُ به صحيحُهُ من سقيمِهِ وراجحُهُ من مرجوحِهِ، والمِرآةُ التي يُعرَفُ بها الحَسَنُ من القبيحِ .

وقَد قيلَ : العقلُ مَلِكٌ والبَدَنُ روحُهُ، وحواسُّهُ وحركاتُهُ كلُّها رعيَّةٌ له؛ فإذا ضَعُفَ عن القيامِ عليها وتعهُّدِها وصلَ الخَلَلُ إليها كلِّها .

ولهذا قيلَ : مَن لم يكُن عقلُهُ أغلَبَ خصالِ الخَيرِ عليهِ كانَ حتفُهُ في أغلبِ خصالِ الشرِّ عليه .

والعقلُ عقلانِ :

عَقلُ غَريزَةٍ : وهو أبُ العلمِ ومُربِّيهِ ومُثمِرُهُ .

وعقلٌ مُكتَسَبٌ مُستفادٌ: وهو وَلَدُ العلمِ وثمرتُهُ ونتيجَتُهُ .

فإذا اجتمعا في العَبدِ فذلكَ فَضلُ اللَّهِ يُؤتيهِ من يشاءُ، واستقامَ له أمرُهُ، وأَقبلتْ عليهِ جيوشُ السَّعادَةِ من كلِّ جانبٍ، وإذا فَقَدَهما فالحيوانُ البَهيمُ أحسَنُ حالًا منه، وإذا انْفَرَدَا نَقَصَ الرَّجلُ بنقصانِ أحدهما .

ومِن النَّاسِ مَن يُرجِّحُ صاحبَ العَقلِ الغَريزيّ، ومنهم مَن يُرجِّحُ صاحبَ العقلِ المُكتَسَبِ .

والتَّحقيقُ أنَّ صاحبَ العَقلِ الغَريزيِّ الذي لا علمَ ولا تجرِبَةَ عندهُ آفتُهُ

---

(١) تأمَّلْ هذا المعنى جيِّدًا .

التي يُؤتى منها الإحجامُ وتركُ انتهازِ الفرصَةِ؛ لأنَّ عَقلَهُ يعقِلُهُ عن انتهازِ الفُرصَةِ لعَدمِ علمِهِ بها، وصاحبُ العَقلِ المُكتَسَبِ المستفادِ يُؤتى من الإقدامِ؛ فإنَّ علمَهُ بالفُرَصِ وطرقِها يُلقيهِ على المُبادَرةِ إليها، وعقلُهُ الغَريزيُّ لا يُطيقُ ردَّهُ عنه، فهو غالبًا يُؤتى من إقدامِهِ، والأوَّلُ من إحجامِهِ .

فإذا رُزِقَ العقلُ الغَريزيُّ عقلًا إيمانيًا مُستفادًا من مِشكاةِ النُّبوَّةِ لا عقلًا معيشيًّا نفاقيًّا يظنُّ أربابُهُ أنَّهُم على شيءٍ - أَلَا إنَّهُم هم الكاذبونَ - فإنَّهُم يرَونَ العقلَ أنْ يُرضُوا النَّاسَ على طبقاتهم ويُسالِموهم ويستجلبوا مودَّتَهُم ومحبَّتَهُم ! وهذا مَعَ أنَّهُ لا سَبيلَ إليهِ فهو إيثارٌ للرَّاحَةِ والدَّعَةِ ومؤنَةِ الأذى في اللَّهِ والموالاةِ فيهِ والمعاداةِ فيه ، وهو وإنْ كانَ أسلَمَ في العاجلة فهو الهُلْكُ في الآجلَةِ ، فإنَّهُ ما ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن لم يُوالِ في اللَّهِ ويُعادِ فيهِ، فالعَقلُ كلُّ العَقلِ ما أوصَلَ إلى رضا اللَّهِ ورسولِهِ .

○ **الوجهُ الثامن والسبعون : [مجالس العلم رياض الجنّة] :**

حديثُ ابنِ عُمر عن النَّبيِّ ﷺ : « إذا مَرَرتُم برياضِ الجنَّةِ فارتَعوا »، قالوا : يا رسولَ اللَّهِ وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قال : « حِلَقُ الذِّكرِ؛ فإنَّ للَّهِ سيَّاراتٍ من الملائكَةِ يطلبونَ حِلَقَ الذِّكرَ، فإذا أَتَوا عليهم حفُّوا بهم » .

قال عطاء : مجالسُ الذِّكرِ مجالسُ الحلالِ والحَرامِ ؛ كيفَ يَشتري ويَبيعُ ويَصومُ ويُصلِّي ويتصدَّقُ وينكحُ ويطلِّقُ ويحجُّ .

ذكرهُ الخطيبُ في كتابِ « الفَقيه والمُتفقِّه »[1] .

---

(١) (١ / ١٢) ، والحديثُ حَسَنٌ ، انظر « الضعيفة » (١١٥٠) و « الصحيحة » (٢٥٦٢) .

○ الوجهُ التاسع والسبعون : [العالمُ وفضلُه] :

ما رواهُ الخطيب في « الفقيه والمتفقّه » [١] عن عليٍّ أنَّهُ قال : العالمُ أعظَمُ أجرًا من الصَّائمِ القائمِ الغازي في سبيلِ اللَّهِ .

○ الوجهُ الثمانون : [بين العلم والجهاد] :

ما رواهُ الخطيبُ[٢] أيضًا عن أبي هُرَيْرَةَ قال : « لأن أعلمَ بابًا من العلمِ في أمرٍ أو نَهيٍ أحبُّ إليَّ من سبعينَ غَزوَةً في سبيلِ اللَّهِ » .

وهذا - إن صحَّ - فمعناهُ : أحبُّ إليَّ من سبعينَ غَزوَةً بلا علمٍ ، لأنَّ العملَ بلا علمٍ فسادُهُ أكثرُ من صلاحِهِ ، أو يريدُ علمًا يتعلَّمُهُ ويُعلِّمُهُ فيكونُ له أجرُ من عَمِلَ به إلى يوم القيامَةِ ، وهذا لا يحصُلُ في الغَزوِ المُجرَّدِ .

○ الوجهُ الحادي والثمانون : [بين العلم والعبادة] :

ما رواهُ الخطيبُ[٣] أيضًا عن أبي الدَّرداء أنَّهُ قال : مُذاكَرةُ العلمِ ساعَةً خيرٌ من قيامِ ليلَةٍ .

○ الوجهُ الثاني والثمانون : [بين العلم والصدقة] :

ما رواهُ[٤] عن الحَسَن، قال : لأن أتعلَّمَ بابًا من العلمِ فَأُعلِّمَهُ مُسلِمًا أحبُّ إليَّ من أن يكونَ لي الدُّنيا كُلُّها فأُنفِقَها في سبيلِ اللَّه .

○ الوجهُ الثَّالث والثمانون : [الفقه من أفضل العبادةِ] :

قال مكحولٌ : ما عُبِدَ اللَّهُ بأفضَلَ من الفِقهِ[٥] .

---

(١) (١ / ٢١) .

(٢) (١ / ١٦) .

(٣) (١ / ١٦) .

(٤) « الفقيه والمتفقّه » (١ / ١٦) .

(٥) المصدر السابق (١ / ٢٣) .

○ الوجهُ الرابع والثمانون : [العبادة بالفقهِ] :

قال سَعيدُ بن المُسيِّب : ليسَت عبادَةُ اللَّهِ بالصَّومِ والصَّلاةِ ، ولكنْ بالفِقهِ في دينِهِ[١] .

وهذا الكلامُ يُرادُ به أمران :

أحدهما : أنَّها ليسَت بالصَّومِ والصَّلاةِ الخالِيَيْنِ عن العلمِ ، ولكنْ بالفِقهِ الذي يُعلَمُ به كيفَ الصَّومُ والصَّلاةُ .

والثَّاني : أنَّها ليسَت الصَّومَ والصَّلاةَ فَقَط ، بل الفِقهُ في دينِهِ من أعظمِ عباداتِهِ .

وقَد تَقدَّمَ الكلامُ في تفضيلِ العالِمِ على الشَّهيدِ وعكسِهِ .

○ الوجهُ الخامس والثمانون : [العُلَماء والأنبياء] :

قال إسحاقُ بن عبدِاللَّهِ بن أبي فَروَةَ : أقربُ النَّاسِ من درَجَةِ النُّبوَّةِ العلماءُ وأهلُ الجهادِ ، والعلماءُ دلُّوا النَّاسَ على ما جاءَت به الرُّسُلُ ، وأَهلُ الجهاد جاهدوا على ما جاءَ به الرُّسُلُ .

○ الوجهُ السادس والثمانون : [رِفْقَةُ العُلَماء] :

قالَ سفيانُ بن عُيَينَة : أرفَعُ النَّاسِ عندَ اللَّهِ منزلَةً من كانَ بينَ اللَّهِ وبينَ عبادِهِ وهم الرُّسُلُ والعلماءُ .

○ الوجهُ السَّابع والثمانون : [الفقهُ عبادةٌ] :

قال محمَّدُ بن شهابٍ الزُّهْريّ : ما عُبِدَ اللَّهُ بمثلِ الفِقهِ[٢].

(١) المصدر السابق .

(٢) رواه أبو نُعيم في « الحلية » (٣ / ٣٦٥) وعبدالرزَّاق (١١ / ٢٠٤٧٩) والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٢٣) وابن عبدالبرّ في « الجامع » (رقم : ١١٠ و ٢٤٦) . وسندُهُ صحيحٌ .

وهذا الكلامُ ونحوهُ يُرادُ به أنَّهُ ما يُعبَدُ اللَّهُ بمثلِ أنْ يُتعبَّدَ بالفِقهِ في الدِّينِ ، فيكونَ نفسُ التَّفقُّهِ عبادَةً ، كما قال مُعاذُ بن جَبَلٍ : عليكُم بالعلمِ ؛ فإنَّ طلبُهُ للَّهِ عبادَةٌ .

وقَد يُرادُ به أنَّهُ ما عُبِدَ اللَّهُ بعبادةٍ أفضَلَ من عبادَةٍ يَصحبُها الفقهُ في الدِّينِ ؛ لعلمِ الفقيهِ في دينِهِ بمراتبِ العباداتِ ومُفْسِداتها وواجباتها وسُنَنها وما يُكمِّلها وما ينقصها .

وكلا المعنيَينِ صحيحٌ .

○ **الوجهُ الثامن والثمانون : [مجالس العُلَماء] :**

قال سَهلُ بن عبدِاللَّهِ التُّستَرِيّ : من أرادَ النَّظَرَ إلى مجالسِ الأنبياءِ فلْيَنظُر إلى مجالسِ العلماءِ ؛ وهذا لأنَّ العلماءَ خُلفاءُ الرُّسلِ في أُمَمِهِم ، ووارثوهم في علمهم ، فمجالسُهم مجالسُ خلافَةِ النُّبوَّةِ .

○ **الوجهُ التاسعُ والثمانون : [طلب العلم مِن أَفضل الأَعمال] :**

أنَّ كثيرًا من الأئمَّةِ صرَّحوا بأنَّ أفضَلَ الأعمالِ بعدَ الفرائضِ طلبُ العلمِ :

فقال الشافعيُّ : ليسَ شيءٌ بَعدَ الفرائضِ أفضَلَ من طلبِ العلمِ .

وهذا الذي ذَكَرَهُ أصحابُهُ عنه أنَّهُ مذهبُهُ .

وكذلكَ قال سُفيانُ الثَّوريُّ .

وحكاهُ الحنفيَّةُ عن أبي حَنيفَةَ .

وأمَّا الإمامُ أحمدُ فحُكِيَ عنه ثلاثُ رواياتٍ :

إحداهُنَّ : أنَّهُ العلمُ ؛ فإنَّهُ قيلَ له : أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ ؛ أجلسُ باللَّيلِ أنسخُ أو أُصلِّي تطوُّعًا ؟ قال : نَسْخُكَ تعلمُ به أمورَ دينكَ فهو أحبُّ إليَّ .

وذكرَ الخلّالُ عنه في كتابِ « العلمِ » نُصوصًا كثيرةً في تفضيلِ العلمِ . ومن كلامِهِ فيه : النَّاسُ إلى العلمِ أحوَجُ منهم إلى الطَّعامِ والشرابِ . وقَد تَقدَّمَ .

والرّوايَةُ الثَّانيَةُ : أنَّ أفضَلَ الأعمالِ بعدَ الفرائضِ صلاةُ التَّطوُّعِ ؛ واحتجَّ لهذهِ الرِّوايَةِ بقولهِ ﷺ : « واعلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكُم الصَّلاةُ »[(١)]، وبقوله في حديثِ أبي ذرٍّ وقَد سألَهُ عن الصَّلاةِ ؟ فقال : « خَيرٌ موضوعٌ »[(٢)]، وبأنَّهُ أوصى مَنْ سألَهُ مُرافَقَتَهُ في الجنَّةِ بكثرَةِ السُّجودِ ، وهو الصَّلاةُ[(٣)] .

وكذلكَ قولُهُ في الحديثِ الآخرِ : « عليكَ بكثرَةِ السُّجودِ ؛ فإنَّكَ لا تسجُدُ للّهِ سجدَةً إلّا رَفَعَكَ اللّهُ بها درجَةً ، وحطَّ عنكَ بها خطيئةً »[(٤)]، وبالأحاديثِ الدَّالَّةِ على تفضيلِ الصَّلاةِ .

والرّوايةُ الثّالثةُ : أنَّهُ الجهادُ ، فإنَّهُ [ﷺ] قال : « لا أعدِلُ بالجهادِ شيئًا ، ومَن ذا يُطيقهُ ! »[(٥)].

---

(١) رواه أحمد (٥ / ٢٧٦ - ٢٧٧و٢٨٢و٢٨٠) ، وابن ماجة (٢٧٧) والدارمي (١ / ١٦٨) وابن حبّان (١٠٣٧) ، والبيهقي (١ / ٤٥٧) ، والطيالسي (٩٩٦) من طرق عن ثوبان .

وسنده حسن .

(٢) أو : « خيرُ موضوعٍ » ، والحديثُ حسنٌ ، رُوي من ثلاثة طُرُق ، انظر لها : « التلخيص الحبير » (٢ / ٢١) و « صحيح الترغيب » (٣٨٦) ، « إتحاف السادة المتقين » (٣ / ٣٦١) و « عُمدة التفسير » (٢ / ١٥٧) للشيخ أحمد شاكر .

(٣) رواه مسلم (٤٨٩) عن ربيعةَ بن كعبٍ .

(٤) رواه مسلم (٤٨٨) عن ثوبان .

(٥) رواه البخاري (٢٧٨٥) ، ومسلم (١٨٧٨) عن أبي هُريرة ؛ بنحوه .

ولا ريبَ أنَّ أكثرَ الأحاديثِ في الصَّلاةِ والجهادِ .

وأمَّا مالكٌ ؛ فقال ابنُ القاسمِ : سمعتُ مالكًا يقولُ : إنَّ أقوامًا ابتَغوا العبادَةَ وأضاعوا العلمَ ، فخرجوا على أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ بأسيافهم[١] ، ولو ابتَغوا العلمَ لحَجَزَهُم عن ذلكَ .

قال مالكٌ : وكتبَ أبو موسى الأشعَريّ إلى عُمَر بن الخطَّابِ أنَّهُ قد قرأَ القرآن عندنا عَددُ كذا وكذا ، فكتَبَ إليهِ عُمَر : أنِ افرِض عليهم من بيتِ المال ، فلمَّا كانَ في العامِ الثَّاني كتَبَ إليهِ أنَّهُ قَد قرأَ القرآنَ عندنا عددٌ كثيرٌ لأكثَرَ من ذلكَ ، فكتَبَ إليهِ عمرُ أنِ امحُهم من الدِّيوانِ ، فإنِّي أخافُ أن يُسرعَ النَّاسُ في القرآنِ أن يتفقَّهوا في الدِّينِ فيتأوَّلوهُ على غيرِ تأويلهِ .

وقال ابنُ وهبٍ : كنتُ بينَ يَدي مالكِ بن أنسٍ فوَضَعتُ ألواحي وقمتُ إلى الصَّلاةِ ، فقال : **ما الذي قُمتَ إليهِ بأفضَلَ من الذي تركتهُ**[٢].

قال شيخُنا[٣]: وهذه الأمورُ الثَّلاثةُ التي فضَّلَ كلُّ واحدٍ من الأئمَّةِ بعضَها - وهي الصَّلاةُ والعلمُ والجهادُ - هي التي قال فيها عُمَرُ بن الخطَّابِ رضيَ اللَّهُ عنهُ : لولا ثلاثٌ في الدُّنيا لَمَا أحببتُ البقاءَ فيها ؛ لولا أن أُحمَلَ ، أو أُجهِّزَ جيشًا في سبيلِ اللَّهِ ، ولولا مُكابَدَةُ هذا الليلِ ، ولولا مُجالسَةُ أقوامٍ ينتقونَ أطايبَ الكلامِ كما يُنتقى أطايبُ الثَّمرِ لَمَا أحببتُ البقاءَ .

فالأوَّلُ : الجهادُ، **والثَّاني** : قيامُ الليلِ، **والثَّالثُ** : مذاكرَةُ العلمِ .

---

(١) وكثيرٌ من فِتَن العصر الحاضِرِ ناشِئةٌ عن العلّةِ ذاتِها !!

(٢) رواه ابن عبدالبرّ في « جامع بيان العلم » (١ / ٣٠) .

(٣) هو شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه اللّه .

فاجتَمَعَت في الصَّحابَةِ بكمالِهم ، وتفرَّقَت فيمَن بعدهم .

○ الوجهُ التسعون : [العلمُ خيرٌ مِن النوافل] :

ما ذكرهُ أبو نُعيم[1] وغيرهُ عن بَعضِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قال : « فَضلُ العلمِ خَيرٌ من نَفلِ العَمَلِ وخيرُ دينكُم الورعُ » .

وقَد رُويَ هذا مرفوعًا من حديثِ عائشَة رضيَ اللهُ عنها ؛ وفي رَفعِهِ نَظَرٌ .

وهذا الكلامُ هو فَصلُ الخطابِ في هذه المسألةِ ؛ فإنَّهُ إذا كانَ كلٌّ من العلمِ والعَمَلِ فَرضًا فلا بدَّ منهما كالصَّومِ والصَّلاةِ ، فإذا كانا فَضلَينِ – وهما

(١) في « الحلية » (٢ / ٢١٢) عن حُذيفة .

ورواه عنه – أيضًا – البزّار (١ / ٨٥ – زوائده) ، والطبراني في « الأوسط » (١٩٦ – مجمع البحرين) ، والحاكم (١ / ٩٢) ، والبيهقي في « المدخل » (٤٥٦) ، وابن عدي (٤ /١٥١٤) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١ / ٧٦) .

وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١ / ١٢٠) : « وفيه عبدالله بن عبدالقدُّوس ، وثقه البخاري وابن حبّان ، وضعّفه ابن معين » .

وحسَّنه المنذري في « الترغيب » (١/٩٣) .

وقد رواه الحاكم (١ / ٩٢) ، والبيهقي في « الزهد » (٢٠٣) عن سعد بن أبي وقّاص ، بسند حسن إنْ شاء الله .

ورواه الطبراني في « الأوسط »(١٩٥– مجمع البحرين)، وفي « الصغير » (٢/ ١٢٣) ، وفي « الكبير » – كما في « مجمع الزوائد » (١ / ١٢٠) – .

وقال الهيثمي : « وفيه محمد بن أبي ليلى : ضعّفوه لسوء حفظه » .

وأمَّا حديثُ عائشةَ ؛ فرواه ابنُ عديّ في « الكامل » (٦ / ٢١٧٠) ، وفي سندِه محمَّد ابن عبدالملك : مُتَّهَمٌ !

وللحديث طرق أُخرى مرفوعة وموقوفة : فانظر « مسند الشهاب » (٤٠) « العلل المتناهية » (٧٦) « الأربعون الصغرى » (٦٥) « شعب الإيمان » (٤ / ٣٣٥ – هند) و « زهد وكيع » (٢٢٢) .

النَّفلانِ المُتطوَّعُ بهما - ففضلُ العلمِ ونفلُهُ خَيرٌ من فَضلِ العبادَةِ ونَفلها ؛ لأنَّ العلمَ يَعُمُّ نفعُهُ صاحبَهُ والنَّاسَ معهُ ، والعبادَةُ يختَصُّ نفعها بصاحبها، ولأنَّ العلمَ تبقى فائدتهُ وثمرتُهُ بَعدَ موتهِ، والعبادَةُ تنقطعُ عنه ، وَلِمَا مرَّ من الوجوهِ السَّابقةِ .

○ الوجهُ الحادي والتسعون : [العلمُ الخشيةُ] :

ما رواهُ الخَطيبُ وأبو نُعيمِ وغيرهما[1] عن مُعاذِ بن جبلٍ رضيَ اللَّهُ عنه قال : تعلَّموا العلمَ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للَّهِ خشيَةٌ ، وطلبَهُ عبادةٌ ، ومُدارسَتَهُ تسبيحٌ ، والبَحثَ عنهُ جهادٌ ، وتعليمَهُ لمن لا يُحسِنُهُ صدَقةٌ ، وبذلَهُ لأهلهِ قُربةٌ ، به يُعرَفُ اللَّهُ ويُعبَدُ ، وبه يُوحَّدُ ، وبه يُعرَفُ الحلالُ من الحرامِ ، وتُوصَلُ الأرحامُ ، وهو الأنيسُ في الوحدَةِ ، والصَّاحبُ في الخَلْوَةِ ، والدَّليلُ على السرَّاءِ ، والمُعينُ على الضرَّاءِ ، والوزيرُ عند الأخلاّءِ ، والقَريبُ عندَ الغُرباءِ ، ومنارُ سبيلِ الجنَّةِ ، يرفعُ اللَّهُ به أقوامًا فيجعلُهُم في الخَيرِ قادَةً وسادَةً يُقتَدى بهم ، أدلَّةً في الخَيرِ تُقتَصُّ آثارهُم ، وتُرمَقُ أفعالُهم ، وتَرْغبُ الملائكَةُ في خَلَّتِهِم وبأجنحتها تمسحُهم ، يَستغفرُ لهم كُلُّ رطبٍ ويابسٍ حتى حيتانُ البَحرِ وهوامُّهُ ، وسِباعُ البَرِّ وأنعامُهُ ، والسَّماءُ ونجومُها ، والعلمُ حياةُ القلوبِ من العَمى ، ونورٌ للأبصارِ من الظُّلَمِ ، وقوَّةٌ للأبدانِ من الضَّعفِ ، يبلغُ به العَبدُ منازلَ الأبرارِ والدَّرجاتِ العُلى ، التَّفكُّرُ فيه يُعدَلُ بالصِّيامِ ، ومدارستُهُ بالقيامِ ، وهو إمامٌ للعَمَلِ ، والعَمَلُ تابعُهُ ، يُلْهَمُهُ السُّعداءُ ، ويُحرمُهُ الأَشقياءُ .

هذا الأثَرُ معروفٌ عن معاذٍ .

---

(١) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١ / ١٥) - عن أَبي هُريرة مرفوعًا ، ولم أَره عنده موقوفًا على مُعاذ ! - وأَبو نُعيم في « الحلية » (١ / ٢٣٩) موقوفًا عليه .

ورواه ابنُ عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٦٥) موقوفًا - أَيضًا - .

ورواهُ أبو نُعيمٍ في « المُعجم »(١) من حديثِ مُعاذٍ مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ ولا يثبتُ ، وَحَسْبُهُ أن يَصِلَ إلى معاذ .

○ الوجه الثاني والتسعون : [دَرَجات طالب العلم] :

ما رواهُ يونُسُ بن عبدالأعلى ، عن ابن أبي فُدَيْكٍ : حدَّثني عمرو بن كثيرٍ ، عن أبي العلاءِ ، عن الحسنِ ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ قال : « مَن جاءَهُ الموتُ وهو يطلبُ العلمَ ليُحيِيَ به الإسلامَ فبَينهُ وبينَ الأنبياءِ في الجنَّةِ درجَةُ النُّبوَّة »(٢) .

وقَد رُوِيَ من حديثِ عليِّ بن زيد بن جُدعانَ ، عن سعيدِ بن المُسيَّب ، عن ابنِ عبَّاسٍ ، عن النَّبيِّ ﷺ(٣).

(١) وكذا ابنُ عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٦٥) وقال عَقِبَهُ :
« وهو حديثٌ حَسَنٌ جدّاً ، ولكنْ ليس له إسنادٌ قويٌّ » .
وتعقَّب كلمَته هذه المنذريُّ في « الترغيب » (١ / ٩٥) بقوله : « كذا قال رحمه اللَّه ، ورفعُهُ غريبٌ جدًّا » .
وقال العراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ١٢) مُوضِحًا : « قوله : حسن ؛ أراد به الحسن المعنوي ، لا الحسن المصطلح عليه بين أَهل الحديث ؛ فإنَّ موسى بن محمد البلقاوي كذَّبه أَبو زُرعة وأَبو حاتم ! » .
وانظر « شرح الإحياء » (١ / ١١٩) ؛ و « تنزيه الشريعة » (١ / ٢٨١) ، و « جمع الجوامع » (١٠ / ١٦٧ - ترتيبه) .
(٢) رواه ابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٥٥) من طريق ابن أَبي خَيْرة عن عَمْرو بن كثير بِهِ .
ورواه الدارمي في « سُننه » (١ / ١٠٠) والشجري في « أَماليه » (١ / ٥١) من طريق محمد بن إسماعيل ، عن عَمرو بِهِ ، لكنه أَسقط أَبا العلاء !
وهو مرسلٌ ضعيفٌ .
(٣) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ٨٥) ، وقد أَعلَّه - والمرسَلَ - الحافظُ =

وهذا - وإنْ كانَ لا يَثْبتُ إسنادهُ - فلا يَبْعُدُ معناهُ مِن الصحَّةِ ؛ فإنَّ أفضَلَ الدَّرجاتِ النُّبوَّةُ ، وبَعدَها الصِّدِّيقيَّةُ ، وبَعدها الشَّهادَةُ ، وبَعدها الصَّلاحُ .

وهذه الدَّرجاتُ الأربعُ ذكرها اللَّهُ تعالى في كتابِهِ في قوله : ﴿ ومَن يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأُولئكَ معَ الَّذينَ أنعَمَ الله عليهم من النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رفيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

فمَن طلَبَ العلمَ ليُحيي به الإسلامَ فهو من الصِّدِّيقينَ ، ودرجتُهُ بعدَ درجةِ النُّبوَّة .

○ **الوجهُ الثَّالث والتسعون : [العلمُ : الحَسَنةُ في الدنيا] :**

قال الحسنُ في قولِه تعالى : ﴿ ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً ﴾ [البقرة : ٢٠١] هي العلمُ والعبادَةُ ، ﴿ وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة : ٢٠١] هي الجنَّةُ(١).

وهذا مِنْ أحسَنِ التَّفسيرِ ؛ **فإنَّ أجلَّ حسناتِ الدُّنيا العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ .**

○ **الوجهُ الرَّابع والتسعون : [العلمُ بالتَّعلُّم] :**

قال ابنُ مَسعودٍ : عليكُم بالعلمِ قبلَ أن يُرفَعَ ، ورفعُهُ هلاكُ العلماءِ ، فوالذي نفسي بيدِهِ لَيَوَدَّنَّ رجالٌ قُتلوا في سبيلِ اللَّهِ شهداءَ أنْ يَبعثَهُم اللَّهُ عُلماءَ

= ابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٥٥) ، وكذا العراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ١٠) بالاضطراب .

وانظر « شرح الإحياء » (١ / ١٠٠ - ١٠١) .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعَبْد بن حُميد ، وابن جرير ، والمَرْهَبي في « فضل العلم » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » . =

كذا في « الدر المنثور » (١ / ٥٦٠) .

لِمَا يَرَونَ من كرامتِهِم ، وإنَّ أحَدًا لم يُولَد عالمًا ، وإنَّما العلمُ بالتَّعلُّم[١] .

○ الوجهُ الخامس والتسعون : [بين العلم وقيام الليل] :

قال ابنُ عبَّاسٍ وأبو هُرَيرَةَ - وبعدهما أحمَدُ بن حَنبل - : تذاكُرُ العلمِ بَعضَ ليلةٍ أحبُّ إلينا من إحيائها[٢].

○ الوجهُ السادس والتسعون : [عطاءُ اللهِ لعباده أَهلِ العلمِ] :

قال عُمَرُ رضيَ اللَّهُ عنهُ : أيُّها النَّاسُ عليكم بالعلمِ ؛ فإنَّ للَّهِ سبحانهُ رداءً يحِبُّهُ ، فمَن طَلَبَ بابًا من العلمِ رَدَّأَهُ اللَّهُ بردائهِ ، فإنْ أذنَبَ ذنبًا استعتَبَهُ لئلَّا يَسْلُبَهُ رداءَهُ ذلكَ حتى يموتَ به .

قلتُ : ومعنى استعتابِ اللَّهِ عَبدَهُ أن يطلبَ منه أن يُعْتِبَهُ ؛ أي : يُزيلَ عَتْبَهُ عليه بالتَّوبَةِ والاستغفار والإنابَةِ ، فإذا أنابَ إليهِ رفَعَ عنه عَتْبَهُ ، فيكونُ قَد أعتبَ ربَّهُ ، أي : أزالَ عَتْبَهُ عليهِ، والرَّبُّ تعالى قد استعتبَهُ ؛ أي : طَلَبَ منه أن يُعتِبَهُ .

ومن هذا قولُ ابنِ مسعودٍ - وقَد وَقَعَت زلزَلةٌ بالكوفَةِ - : إنَّ ربَّكُم يستعتبُكُم فأَعْتِبُوهُ .

وهذا هو الاستعتابُ الذي نفاهُ سبحانهُ في الآخِرَةِ في قولِهِ : ﴿ فاليومَ لا يُخرَجونَ منها ولا هُم يُستَعتَبونَ ﴾ [الجاثية : ٣٥]، أي : لا نطلبُ منهم إزالَةَ

(١) رواه الدارمي (١ / ٥٤) وعبدالرزاق (١ / ٢٥٢) وابن عبدالبر في « الجامع (١ / ١٥٢) والبيهقي في « المدخل » (٣٨٧) .

(٢) رواه عبدالرزّاق (١١ / ٢٥٣) ، والدارمي (١ / ٨٢) وابن عبدالبرّ في « جامع بيان العلم » (رقم : ١٠٧) عن ابن عبّاس .

وأمّا أَثَرُ أَبي هريرة فقد تقدَّم إيرادُهُ وتخريجُهُ .

وكلامُ أحمدَ رواه - بسنده - ابن عبدالبرّ (رقم : ١٠٨) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقّه » (١ / ١٧) .

عَتْبِنا عليهم ؛ فإنَّ إزالَتَهُ إنَّما تكونُ بالتَّوبَةِ ، وهي لا تنفعُ في الآخِرَةِ .

وهذا غيرُ استعتابِ العَبدِ ربَّهُ كما في قوله تعالى :﴿ فإن يَصبِروا فالنَّارُ مثوىً لهُم وإن يَستَعتَبوا فما هُم من المُعتَبينَ ﴾ [فصلت : ٢٤] ؛ فهذا معناهُ أن يطلبوا إزالَةَ عتبنا عليهم والعفوَ ، ﴿ فَمَا هُم من المُعتَبينَ ﴾ أي : ما هم ممَّن يُزالُ العتبُ عليه ، وهذا الاستعتابُ ينفعُ في الدُّنيا دونَ الآخرَةِ .

○ **الوجهُ السابع والتسعون : [موت العالم وموت العابد] :**

قال عُمر رضيَ اللَّهُ عنهُ : موتُ ألفِ عابدٍ أهونُ من موتِ عالِمٍ بَصيرٍ بحلالِ اللَّهِ وحرامِهِ .

ووجهُ قولِ عمر ، أنَّ هذا العالِمَ يَهدمُ على إبليسَ كُلَّ ما يَبنيهِ بعلمِهِ وإرشادِهِ ، وأمَّا العابدُ فنفعُهُ مقصورٌ على نفسِهِ .

○ **الوجهُ الثامن والتسعون : [كلَّ يومٍ بزيادةِ علمٍ] :**

قولُ بعضِ السَّلفِ : إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيهِ علماً يُقرِّبني إلى اللَّهِ تعالى فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذلكَ اليومِ .

وقَد رُفعَ هذا إلى رسولِ اللَّهِ[1]، ورَفْعهُ إليهِ باطلٌ ، وحَسْبهُ أن يَصِلَ إلى واحدٍ من الصَّحابَةِ أو التَّابعين .

وفي مثلهِ قال القائلُ :

---

(١) رواه - مرفوعًا - إسحاقُ بن راهويه في « مسنده » (١١٢٨) وأَبو نُعيم في « الحلية » (٦ / ١٠٠) وابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٦١) ، عن عائشة .

وحكم ابنُ الجوزيّ في « الموضوعات » (١ / ٢٣٣) بوضعهِ .

وتابعه السيوطي في « اللآلئ » (١ / ٢٠٩) .

وانظر « سلسلة الأحاديث الضعيفة » (٣٧٩) و « شرح الإحياء » (١ / ٧٨) .

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أستفِدْ هُدىً
ولم أكتَسِبْ علمًا فما ذاكَ من عُمري

○ الوجهُ التاسع والتسعون : [الإيمان ثمرتُه العلم] :

قال بعضُ السَّلف : الإيمانُ عُريانٌ ، ولباسهُ التَّقوى ، وزينتُهُ الحياءُ ، وثمرتُهُ العلمُ .

○ الوجهُ المِئة : [العُلماءُ هم النّاسُ] :

قولُ ابن المبارك – وقد سُئل : مَن الناس ؟ – قال : العلماءُ ، قيل : فمَن الملوكُ ؟ قال : الزهّادُ ، قيل : فمن السَّفْلةُ ؟ قال : الذي يأكُلُ بدينه !

○ الوجهُ الحادي والمِئة : [العلمُ هو أفضلُ الحُظوظِ] :

أنَّ مَنْ أدرك العلمَ لم يضرَّهُ ما فاتَهُ بعد إدراكِهِ ، إذ هو أفضلُ الحظوظِ والعطايا ، ومَن فاتَهُ العلمُ لم ينفعْهُ ما حَصَلَ له من الحظوظ ، بل يكونُ وَبَالًا عليه وسببًا لهلاكِه .

وفي هذا قال بعضُ السَّلف : أيَّ شيءٍ أدركَ مَنْ فاته العلم ؟ وأيَّ شيءٍ فاته من أدركَ العلم ؟!

○ الوجهُ الثاني والمِئة : [العلمُ حياةُ القلوب] :

قال بعضُ العارفين : أليس المريضُ إذا مُنِعَ الطَّعامَ والشرابَ والدَّواءَ يموتُ ؟ قالوا : بلى، قال : فكذلك القلبُ إذا مُنِعَ عنه العلمُ والحكمةُ ثلاثةَ أيَّامٍ يموتُ .

وصَدَقَ ؛ فإنَّ العلمَ طعامُ القلبِ وشرابُهُ ودواؤهُ ، وحياتُهُ موقوفَةٌ على ذلك ،

فإذا فَقَد القلبُ العلمَ فهو مَيِّتٌ ، ولكنْ لا يشعُرُ بموتِه ، كما أنَّ السَّكرانَ الذي قد زال عقلُه ، والخائفَ الذي قد انتهى خوفه إلى غايته - والمحبّ والمفكِّر - قد بَطَلَ إحساسُهم بألمِ الجراحاتِ في تلك الحال ، فإذا صحوا وعادوا إلى حالِ الاعتدالِ أدركوا آلامَها .

هكذا العبدُ إذا حَطَّ عنه الموتُ أحمالَ الدُّنيا وشواغلَها أَحَسَّ بهلاكِهِ وخُسرانِهِ .

فحتّامَ لا تصحُو وقد قَرُبَ المَدَىٰ
وحتّامَ لا ينجابُ عن قلبكِ السُّكرُ
بل سوفَ تَصحُو حين ينكشِفُ الغَطَا
وتذكُرُ قَولي حينَ لا ينفعُ الذِّكرُ

فإذا كُشفَ الغطاءُ ، وبَرَحَ الخفاءُ ، وبَلِيَتِ السَّرائرُ ، وبَدَتِ الضَّمائرُ ، وبُعثِرَ ما في القبور ، وحُصِّلَ ما في الصُّدورِ ؛ فحينئذٍ يكونُ **الجهلُ** ظُلمةً على الجاهلين ، **والعلمُ** حسرةً على البطّالين .

○ **الوجهُ الثالث والمِـئـة** : [**العلمُ جهادٌ**] :

قال أبو الدَّرداء : مَن رأى أنَّ الغُدُوَّ إلى العلمِ ليسَ بجهادٍ فَقَد نَقَصَ في رأيِهِ وعقلِهِ .

وشاهدُ هذا قولُ معاذٍ ، وقد تقدَّم [١] .

○ **الوجهُ الرابع والمِـئـة** : [**بين العَالِم والمتعلِّم**] :

قولُه أيضًا : العالِمُ والمُتعلِّمُ شريكانِ في الأجرِ ، وسائرُ النَّاسِ هَمَجٌ لا خَيرَ

---

(١) انظر ما تقدّم (ص ١٣٩) .

فيهم[1] .

○ الوجهُ الخامس والمِئة : [طالب العلمِ كالمجاهد] :

ما رواهُ أبو حاتمِ بن حِبَّان في « صحيحهِ »[2] من حديثِ أبي هرَيرَة : أنَّهُ سمعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « مَن دخَلَ مسجدنا هذا ليتعلَّمَ خيرًا أو ليعلِّمَهُ كانَ كالـمُجاهدِ في سبيلِ اللَّهِ ، ومَن دخلَهُ لغَيرِ ذلكَ كان كالنَّاظرِ إلى ما ليسَ له » .

○ الوجه السادس والمِـئـة : [إيواءُ اللهِ سبحانه لطالب العلم] :

ما رواهُ[3] أيضًا في « صحيحهِ » من حديثِ الثَّلاثةِ الذينَ انتَهوا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ وهو جالسٌ في حَلْقةٍ ، فأعرَضَ أحدُهم ، واستحى الآخرُ ، فجلَسَ خلفَهُم ، وجَلَسَ الثَّالثُ في فُرجَةٍ في الحَلْقَةِ ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « أمَّا أحدُهم فآوى إلى اللَّهِ ؛ فآواهُ اللَّهُ ، وأمَّا الآخَرُ فاسْتَحْيٰ ؛ فاسْتَحْيٰ اللَّهُ منهُ ، وأمَّا الآخَرُ

---

(١) رواه عبداللَّه بن أحمد في « زوائد الزهد » (٢ / ٥٧) و أبو نُعَيم في « الحلية » (١ / ٢١٢) وابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٣٣ ، ٣٤) ، والدارمي (١ / ٧٩ و ٩٥) ، وابن المُبارك في « الزهد » (٥٤٣) ، والآجُرّي في « أخلاق العُلماء » (٣٢) .

(٢) (رقم : ٨٧) .

ورواه ابن ماجه (٢٢٧) ، وابن أَبي شيبة (١٢ / ٢٠٩) ، وأَحمد (٢ / ٣٥٠ و٤١٥ و ٥٢٦) والحاكم (١ / ٩١) بسند حسن .

وصحّحه البوصيري في « الزوائد » (ق ١٦ / ب) .

ويشهد له حديثُ سَهْل بن سَعْد عند الطبراني في « الكبير » (٥٩١١) ، وسنده حسنٌ في الشواهد .

(٣) أَي : ابنُ حبَّان ، وهو فيه (برقم : ٨٦) .

ورواه البخاري (٦٦) و (٤٧٤) ، ومسلم (٢١٧٦) .

فأعرَضَ ؛ فأعَرَضَ اللَّهُ عنهُ » .

فلو لم يكُن لطالبِ العلمِ إلّا أنَّ اللَّهَ يُؤويهِ إليهِ ولا يُعرِضُ عنه لكفى به فضلًا .

○ الوجهُ السابع والمِئة : [مِن فضائل العلم وأَهله] :

ما رواهُ كُمَيْلُ بن زياد النَّخعي (١) ، قال : أَخَذَ عليٌّ بن أبي طالبٍ رضيَ

---

(١) هذا وجهٌ مُهِمٌّ غايةً ؛ يَحْوي صنوفاً من الوصايا العلْميّة ، والآدابِ السَّلَفيّة ، كَتَبَهُ إمامٌ مِنْ أَعظم أئمّة العلمِ شَرْحاً لوصيّةٍ جليلةٍ تناقَلَها العُلَماء (١) علىٰ مَرِّ العصور وكَرِّ الدُّهور ؛ هي وصيّةُ الصحابيِّ الجليل عليِّ بن أَبي طالبٍ - رضي الله عنه - لصاحبِه كُمَيل بن زيادٍ النَّخَعيِّ رحمه اللهُ تعالى .

وهذه الوصيّة الجامِعةُ تُمَثِّلُ المعالمَ الرئيسةَ التي يجبُ تَوَفُّرُها في المسلمِ بعامّةٍ ، وطالبِ العلمِ بخاصّةٍ .

ولقد رأيتُ هذه الوصيّةَ وشَرحَها هذا - بحقٍّ - مِن أَقوىٰ البيانِ ، وأَحسنِ الكلامِ ، فأَبقيتُ منها ما له صِلَةٌ بالعلم وفضلِه ، ولولا خشيةُ الإطالةِ لَسُقْتُها بتمامِها ، وهي موجودةٌ في الأَصل كاملةً .

وقد أَفردها بالنّشر أَخونا سليم الهلاليّ في رسالةٍ سمّاها « الإِسْعاد » ، وهي مطبوعة .

وممّا ينبغي ذِكْرُهُ وبيانُهُ هنا أَنَّ الواجبَ على دعاة الأُمّة أَن يَتَرَبَّوْا - ويُرَبُّوا - على كلماتِ أَئمّةِ السَّلَف ، وأَنْ يَتَّبِعوا وصاياهم ، ويَتَّخِذوا كلماتِهم مناراتٍ سامقةً يهتدونَ بها ، ويتنوّرون بضيائِها ، ويَدْعُونَ وَفْقَها .

أمّا أَن يَتَّخِذوا كلامَ مَنْ دونَهم قُدوةً ، ويجعلوا مَوَاقِفَ مَنْ هُو بعيدٌ عنهم أُسوةً !! فهذه ارتكاسةٌ خُلُقيّةٌ ، وانتكاسةٌ فِكريّةٌ ... =

---

(١) انظر « الفقيه والتفقّه » (١ / ٥٠ - ٥١) للخطيب البغدادي ، و « الاتّباع » (ص ٨٦) لابن أَبي العِزِّ الحَنَفي ، و « البداية والنهاية » (٩ / ٤٧) لابن كثير ، و « الاعتصام » (٢ / ٣٥٨) للشاطبي .

وعنهم « من وصايا السَّلَف » (ص ١١ - ١٨) للأخ سليم الهلالي .

اللَّهُ عنهُ بيدي ، فأخرَجَني ناحيةَ الجَبَّانَةِ ، فلمَّا أصحَرَ جَعَلَ يتنفَّسُ ، ثمَّ قال : يا كُميل بن زيادٍ ! القلوبُ أوعيةٌ فخَيرُها أوعاها للخير ، اِحفَظْ عنِّي ما أقولُ : النَّاسُ ثلاثةٌ ؛ فعالمٌ ربَّانيٌّ ، ومُتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ ، يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ ، لم يَستَضيئوا بنورِ العلمِ ، ولم يلجأوا إلى رُكنٍ وثيقٍ، العلمُ خَيرٌ من المالِ، العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ، العلمُ يزكو على الإنفاقِ - وفي روايةٍ : على العملِ - والمالُ تَنقُصُهُ النَّفقَةُ، العلمُ حاكمٌ ، والمالُ محكومٌ عليهِ، ومحبَّةُ العلمِ دينٌ يُدانُ بهاء العلمُ يُكسِبُ العالِمَ الطَّاعَةَ في حياتِهِ ، وجميلَ الأُحدوثَةِ بعدَ وفاتِهِ، وصنيعَةُ المالِ تزولُ بزوالِهِ، ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ، والعلماءُ باقونَ ما بقيَ الدَّهرُ، أعيانُهُم مفقودَةٌ ، وأمثالُهم في القلوبِ موجودَةٌ ، هاه هاه ... إنَّ هٰهنا علماً - وأشارَ بيدِهِ إلى صدرِهِ - لو أصَبْتَ له حملَةً ، بل أصبتُهُ لَقِنًا غيرَ مأمونٍ عليه ، يستعملُ آلَةَ الدِّينِ للدُّنيا ،

= ولا هاديَ إلّا الله جَلَّ في عُلاه ..

وكُمَيْلُ بنُ زيادٍ - ناقلُ هذه الوصيّةِ - مِن أَصحابِ عليٍّ المشاهير « شَهِدَ مَعَه صِفِّين ، وكان شريفاً ، مُطاعاً في قَوْمِه » [١] ، وهو « ثِقَةٌ قليلُ الحديثِ » [٢] .

وفي « الجَرْح والتعديل » (٧ / رقم : ٩٩٥) عن يحيى بن مَعين أنّه : « ثقةٌ » .

وفي « الثِّقات » (١٥٥٨) للعِجْليّ : « ثِقَةٌ » .

وقد تُكُلِّمَ فيه - يسيراً - بدعوى تشيُّعِهِ [٣] وليس في روايته هنا صِلَةٌ بتشيُّعِه كما لا يخفى ..

ولهذه الوصيّةِ عن كُميل وُجوهٌ عِدَّةٌ كما قالَ الحافظُ المِزِّيُّ في « تهذيب الكمال » (٢٤ / ٢٢٢) ؛ وهذا مِمّا يزيدُ طمأنينةَ القلبِ إليها .

(١) « طَبقات ابن سعد » (٦ / ١٧٩) .

(٢) « تهذيب الكمال » (٢٤ / ٢١٩) .

(٣) مِن أَجل ذلك قالَ الحافظُ ابن حَجَر في « تقريب التهذيب » (٥٦٦٥): « ثقةٌ رُمي بالتشيُّع ».

يستظهرُ بحُجَجِ اللَّهِ على كتابِهِ ، وبنعمِهِ على عبادِهِ ، أو مُنقادًا لأهلِ الحقِّ ، لا بَصيرَةَ له في أَحْنائِهِ[١] ، ينقدحُ الشكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارضٍ من شُبهَةٍ، لا ذا ولا ذاكَ، أو منهومًا للذَّاتِ، سَلِسَ القيادِ للشهواتِ، أو مُغرىً بجمعِ الأموالِ والادِّخارِ ، ليسَ من دُعاةِ الدِّينِ، أقرَبُ شيءٍ شَبَهًا بهم الأنعامُ السَّائمَةُ ؛ لذلكَ يموتُ العلمُ بموتِ حامليهِ، اللَّهمَّ بلَى : لن تَخْلُوَ الأرضُ من قائمٍ للَّهِ بحُجَّتِهِ ، لكيلا تبطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وبيِّناتُهُ ، أولئكَ الأقلُّونَ عددًا ، الأعظمونَ عند اللَّهِ قيلًا ، بهم يدفعُ اللَّهُ عن حُجَجِهِ حتى يؤدُّوها إلى نُظرائهم ، ويزرعوها في قُلوبِ أشباههم ، هجَمَ بهم العلمُ على حقيقةِ الأمرِ ؛ فاستلَانوا ما استوعَرَ منه المُتْرَفونَ ، وأَنِسوا بما استوحَشَ منه الجاهلونَ ، صَحِبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقةٌ بالملأِ الأعلى ، أولئكَ خُلَفاءُ اللَّهِ[٢] في أرضِهِ ودُعاتُهُ إلى دينِهِ ، هاه هاه ... شوقًا إلى رؤيتِهم ، وأستغفرُ اللَّهَ لي ولكَ ، إذا شئتَ فقُم » .

ذكرهُ أبو نُعَيم في « الحِلْيَة »[٣] وغيرهُ .

---

(١) أي : أطرافه .

(٢) هذا تعبيرٌ لم يرد عليه دليلٌ في الكتاب والسنّة .

وقد ناقَشَهُ المؤلِّفُ طويلًا في ما يأتي عند شرحِه لهذه الجملة .

وانظر « معجم المناهي اللفظيّة » (ص ١٥٦-١٦٠) لفضيلة الأخ الشيخ بكر أبو زَيْد .

(٣) (١ / ٧٩ -٨٠) .

ورواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٤٩) والشجري في « أماليه » (ص : ٦٦) والمِزّي في « تهذيب الكمال » (٢٤ / ٢٢٠) والنَّهرَوانيّ في « الجليس الصالح » (٣ / ٣٣١) .

وقارِنْ بـ « شرح نهج البلاغة » (٤ / ٣١١) و « العِقْد الفريد » (٢ / ٢١٢) .

قال أبو بكرٍ الخطيب[1]: هذا حديثٌ حسنٌ من أحسَنِ الأحاديثِ معنىً ، وأشرفِها لفظًا ، وتقسيمُ أميرِ المؤمنينَ للنَّاسِ في أوَّلِهِ تقسيمٌ في غايَةِ الصِّحَّةِ ونهايَةِ السَّدادِ ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخلو من أحَدِ الأقسامِ التي ذكرها معَ كمالِ العقلِ وإزاحَةِ العِلَلِ ؛ إمَّا أن يكونَ عالمًا ، أو مُتعلِّمًا ، أو مُغْفِلًا للعلمِ وطلبِهِ ليسَ بعالِمٍ ولا طالبٍ له :

فالعالِمُ الرَّبانيُّ هو الذي لا زيادَةَ على فضلِهِ لفاضلٍ ، ولا منزلَةَ فوقَ منزلتِهِ لمجتَهِدٍ .

وقَد دخَلَ في الوَصفِ له بأنَّهُ ربَّانيٌّ وَصْفُهُ بالصِّفاتِ التي يقتضيها العلمُ لأهلِهِ ، ويمنعُ وَصْفَهُ بما خالفها .

ومعنى الرَّبَّاني في اللغَةِ : الرَّفيعُ الدَّرجَةِ في العلمِ ، العالي المنزلةِ فيه، وعلى ذلكَ حمَلوا قولَه تعالى : ﴿ لولا يَنهاهُم الرَّبَّانِيُّون والأَحبارُ ﴾ [المائدة : ٤٣]، وقوله : ﴿ كونوا ربَّانيِّينَ ﴾ [آل عمران : ٧٩]، قال ابنُ عبَّاسٍ : حكَماءَ فقهاءَ، وقال أبو رَزِينٍ : فقهاءَ علماءَ .

وقال أبو عُمر الزَّاهد : سألتُ ثعلبًا عن هذا الحرف - وهو الرَّبَّاني - ؟ فقال : سألتُ ابنَ الأعرابي ؟ فقال : إذا كانَ الرَّجلُ عالمًا عاملًا معلِّمًا قيلَ له : هذا ربَّاني ؛ فإنْ خُرِمَ عَن خصلَةٍ منها لم نَقُل له : ربَّاني .

---

(١) في « الفقيه والمتفقّه » (١ / ٥٠) بأطول ممّا هنا .
وقال ابن عبدالبرّ في « جامع بيان العلم » (٢ / ١١٢) :
« وهو حديثٌ مشهورٌ عند أهل العلم ، يَسْتغني عن الإسنادِ ، لشهرتِهِ عندهم » .
وقال ابنُ كثير في « تاريخه » (٩ / ٤٧) :
« قد رواه جماعةٌ من الحفَّاظ الثقات » .

قال ابنُ الأنباريِّ عن النَّحويِّينَ : إنَّ الرَّبَّانيِّينَ منسـوبونَ إلى الرَّبِّ ، وإنَّ الأَلِفَ والنُّون زِيدَتا للمبالَغَةِ في النَّسَب ، كما تقول : لِحْيانيّ وجُمَّانيّ[1] إذا كانَ عظيمَ اللحيَةِ والجُمَّةِ .

وأمَّا المتعلِّمُ على سبيلِ النَّجاةِ فهو الطَّالبُ بتعلُّمِهِ – والقاصدُ به – نجاتَهُ من التَّفريطِ في تَضييعِ الفروضِ الواجبَةِ عليهِ ، والرَّغبَةَ بنفسِهِ عن إهمالها واطِّراحِها ، والأَنَفَةَ من مجالَسَةِ البهائمِ .

ثمَّ قال[2]: وقَد نَفى بعضُ المتقدِّمينَ عن النَّاسِ مَنْ لم يكُن من أهلِ العلمِ .

وأمَّا القسمُ الثَّالث : فهم المُهمِلونَ لأنفسهم ، الرَّاضُونَ بالمنزلَةِ الدَّنيَّةِ والحالِ الخسيسَةِ ، التي هي في الحضيضِ الأَوْهَدِ والهُبوطِ الأسفَلِ التي لا منزلَةَ بعدَها في الجهلِ ولا دونها في السُّقوطِ .

وما أحسَنَ ما شبَّهَهُم بالهَمَجِ الرَّعاعِ ! وبه يُشبَّهُ دُناةُ النَّاسِ وأراذلُهم .

والرَّعاعُ : المتبدِّد المتفرِّق ، والنَّاعقُ : الصَّائحُ ، وهو في هذا الموضع الرَّاعي ، يُقالُ : نعَقَ الرَّاعي بالغَنَم ينعقُ : إذا صاحَ بها، ومنه قولُه تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذينَ كفروا كمَثَلِ الَّذي يَنعِقُ بما لا يسمعُ إلّا دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

* وقولُه : « **النَّاسُ ثلاثةٌ : فعالِمٌ ربَّانِيٌّ ، ومتعلِّمٌ على سبيلِ النَّجاةِ ، وهَمَجٌ رَعاعٌ** » ؛ هذا تقسيمٌ خاصٌّ للنَّاسِ ، وهو الواقعُ ؛ فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكونَ قَد حَصَّلَ كمالَهُ من العلمِ والعَمَلِ أو لا ؛ فالأَوَّلُ : العالمُ الرَّبَّاني ، والثَّاني : إمَّا

---

(١) انظر « الأنساب » (٣ / ٢٩٩) .

(٢) أي : الخطيب .

أن تكونَ نفسُهُ مُتحرِّكَةً في طلبِ ذلك الكمالِ ساعيةً في إدراكِهِ أو لا ، والثَّاني هو المتعلِّمُ على سبيلِ النَّجاةِ ، والثَّالثُ هو الهَمَجُ الرَّعاعُ ؛ فالأوَّلُ : هو الواصلُ ، والثَّاني : هو الطَّالبُ ، والثَّالثُ : هو المحروم .

والعالِمُ الرَّبَّانيُّ، قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهُما : هو المُعلِّمُ .

أخَذَهُ من التَّربيَةِ؛ أي : يُربِّي النَّاسَ بالعلمِ، ويُربِّيهم به كما يربِّي الطِّفلَ أبوهُ .

وقالَ سَعيدُ بن جُبَير : هو الفَقيهُ العليمُ الحكيمُ .

قال سيبويهِ : زادوا أَلِفًا ونُونًا في الرَّبَّاني إذا أرادوا تخصيصًا بعلمِ الرَّبِّ تبارَكَ وتعالى ، كما قالوا : شَعْرانيّ ولِحيانيّ .

معنى قولِ سيبويهِ - رحمهُ اللَّهُ - أَنَّ هذا العالِمَ لمَّا نُسبَ إلى علمِ الرَّبِّ تعالى الذي بَعثَ به رسولَهُ وتخصَّصَ به نُسِبَ إليهِ دونَ سائرِ مَن عَلِمَ علمًا .

قال الواحديُّ[1] : فالرَّبَّانيُّ - على قولِه - منسوبٌ إلى الرَّبِّ ، على معنى التَّخصيصِ بعلمِ الرَّبِّ ، أي : يُعلِّمُ الشريعَةَ وصفاتِ الرَّبِّ تباركَ وتعالى .

قال المُبَرِّد : الرَّبَّاني الذي يَرُبُّ العلمَ ويَرُبُّ النَّاسَ به، أي: يُعلِّمهم ويُصلحهم .

وعلى قولِه ؛ فالرَّبَّانيُّ مِنْ (رَبَّ يَرُبُّ ربًّا) أي : يُربِّيهِ ، فهو منسوبٌ إلى التَّربيَةِ[2]، يربِّي علمَهُ ليكمُلَ ويتمَّ بقيامهِ عليهِ وتعاهُدهِ إيَّاهُ ، كما يُربِّي صاحبُ المالِ مالَهُ ، ويُربِّي النَّاسَ به كما يربِّي الأطفالَ أولياؤهم .

وليسَ هذا من قولِهِ : ﴿ وكَأَيِّن مِن نَبيٍّ قاتَلَ معَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ ﴾

---

(١) في « التفسير الوسيط » (١ / ٤٥٦) له .

(٢) انظر كتابي « التصفية والتربية وأثرهُما في استئناف الحياة الإسلامية »(ص ٩٥ - ١٠١) .

[آل عمران : ١٤٦] ، فالرِّبِّيُّونَ هنا : الجماعاتُ ، بإجماعِ المفسِّرينَ[1] ، قيلَ : إنَّهُ من الرِّبَّة - بكسرِ الرَّاء - وهي الجماعةُ .

قال الجوهريُّ[2] : الرِّبِّيُّ واحدُ الرِّبِّيِّينَ ؛ وهم الألوفُ من النَّاسِ .

قال تعالى : ﴿ وكَأَيِّن مِن نَبيٍّ قاتَلَ معَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ فَما وَهَنوا لما أصابَهُم ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

ولا يُوصَفُ العالِمُ بكونهِ ربَّانيًّا حتى يكونَ عاملًا بعلمهِ مُعلِّمًا له .

فهذا قسمٌ .

والقسمُ الثَّاني : مُتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ ؛ أي : قاصدًا بعلمهِ النَّجاةَ ، وهو المُخلِصُ في تعلُّمهِ ، المُتعلِّمُ ما ينفعُهُ، العاملُ بما عَلِمَهُ، فلا يكونُ المُتعلِّمُ على سبيلِ نجاةٍ إلَّا بهذه الأُمورِ الثَّلاثَةِ ؛ فإنَّهُ إنْ تعلَّمَ ما يضرُّهُ ولا ينفعُهُ لم يكُن على سبيلِ نجاةٍ، وإنْ تعلَّمَ ما ينتفعُ به لا للنَّجاةِ؛ فكذلكَ، وإنْ تعلَّمهُ ولم يعملْ به لم يحصُلْ له النَّجاةُ، ولهذا وصَفَهُ بكونهِ على السَّبيلِ، أي : على الطَّريقِ التي تُنجيهِ .

وليسَ حرفُ (على) وما عَمِلَ فيه مُتعلِّقًا بِ « مُتَعَلِّم » إلَّا على وجهِ التَّضمين ؛ أي : مُفتِّشٍ مُتطلِّعٍ على سبيلِ نجاتهِ، فهذا في الدَّرجَة الثَّانيَةِ وليسَ ممَّن تعلَّمَهُ ليماري به السُّفهاءَ أو يُجاري به العلماءَ أو يَصرفَ وجوهَ النَّاسِ إليهِ ؛ فإنَّ هذا من أهلِ النَّارِ كما جاءَ في الحديثِ[3]، وثبَّتهُ أبو نُعيم وأَبو عَمْرو

---

(١) انظر « تفسير الطبريّ » (٣ / ١١٧) و « زاد المسير » (٢ / ٤٧٢) و « تفسير ابن كثير » (١ / ٦١٥) .

(٢) في « الصِّحاح » (ص ٢٨٨ - المختار) .

(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٤) ، والحاكم (١ / ٨٦) ، والطبراني (١٩ / ١٠٠) والخطيب في « الجامع » (١ / ٢) والآجُرّي في « أَخلاق العُلماء » (٥٩) عن كعب بن =

ابن الصلّاح وغيرُهما .

قال ابنُ الصلاح : وَثبَتَ أَبو نُعيم - أَيضًا - قولَه ﷺ : « مَن تعلَّمَ علمًا ممَّا يُبتَغى به وجهُ اللَّهِ لا يتعلَّمُهُ إلّا ليصيبَ عَرَضًا من الدُّنيا لم يجد رائحَةَ الجنَّة »(1) .

فهؤلاءِ ليسَ فيهم مَن هو على سبيلِ النَّجاةِ ، بل على سبيلِ الهَلَكَةِ ، نعوذُ باللَّهِ من الخِذلانِ .

القسمُ الثَّالثُ : المحرومُ المُعرِضُ؛ فلا عالمٌ ولا متعلِّمٌ، بل هَمَجٌ رعاعٌ .

والهَمَجُ من النَّاسِ حُمَقاؤهم وجَهَلَتُهم، وأصلهُ من (الهَمْجِ) جمعُ (هَمَجَةُ)(2)؛ وهو ذبابٌ صغيرٌ كالبَـعوضِ يسقطُ على وجوهِ الغَنمِ والدَّوابِّ

= مالك .

وفي سنده إِسحاق بن يحيى بن طلحة ؛ هو إِلى الضعف أَقرَب ، وبه أَعلَّه ابنُ عديّ (١ / ٣٢٦) ، والعُقَيليّ (١ / ١٠٤) ، وابن الجوزيّ في « الواهيات » (٨٦) .

ولكن ؛ له شواهد ، منها :

ما رواه ابن ماجه (٢٥٤) وابن حبّان (٩٠) والحاكم (١ / ٨٦) والبيهقي في « الشعب » (١٦٣٥) وفي « المدخل » (٣١٢) وابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٢٢٩) والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ٨٨) عن جابر بن عبدالله .

وصحَّحه البوصيري في « مصباح الزجاجة » (ق ٢٠ / أ) .

ولكنْ ؛ فيه عنعنتا ابن جُريج وأَبي الزُّبير !

وفي الباب أَحاديث أُخرى أَيضًا .

(١) رواه أَحمد (٢ / ٣٣٨) وأَبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢) والخطيب في « تاريخه » (٥ / ٣٤٦) و (٨ / ٧٨) و « الاقتضاء » (١٠٢) والآجرّي في « أَخلاق العلماء » (٦٨) عن أَبي هُريرة .

وفي سنده فُليح بن سليمان ، وهو سَيِّء الحفظ .

ويشهد له ما قبله .

(٢) انظر « القاموس المحيط » (٢٦٩) .

وأعثِنِها ، فشبَّه هَمَجَ النَّاس به ، والـهَمَجُ أيضًا مصدرٌ .

قال الرَّاجزُ :

قَد هَلَكَتْ جارَتُنا من الهَمَجْ وإنْ تَجُعْ تأكلْ عَتُودًا أو بَذَجْ[1]

والـهَمَجُ هنا مَصدَرٌ ، ومعناهُ : سوءُ التَّدبير في أمرِ المعيشَةِ .

وقولُهم : هَمَجٌ هامجٌ ، مثل : ليلٌ لايلٌ .

والرَّعاعُ من النَّاسِ : الحمقى الذين لا يُعتَدُّ بهم .

* وقولُه : « **أَتباع كلِّ ناعقٍ** » ؛ أي : مَن صاحَ بهم ودعاهُم تَبِعوهُ ، سواءٌ فإنَّهُم لا علمَ لهم بالذي يُدْعَونَ إليهِ أحقٌّ هو أم باطلٌ ؟ فهم مُستجيبونَ لدعوتِهِ ، وهؤلاءِ مِن أضرِّ الخلقِ على الأديانِ ، فإنَّهُم الأكثرونَ عَدَدًا ، الأقلُّونَ عندَ اللَّهِ قَدْرًا ، وهم حَطَبُ كُلِّ فتنَةٍ ، بهم تُوقَدُ ويَشُبُّ ضِرَامُها ، فإنَّها يعتزلُها أولو الدِّينِ ، ويتولَّاها الـهَمَجُ الرَّعاعُ .

وسُمِّي داعيهم ناعقًا تشبيهًا لهم بالأنعامِ التي يَنعقُ بها الرَّاعي فتَذهَبُ معه أينَ ذَهَب !

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كمثَلِ الَّذي يَنعِقُ بما لا يسمعُ إلَّا دُعاءً ونداءً صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة : ١٧١] .

وهذا الذي وصَفَهُم به أميرُ المؤمنينَ هو من عدمِ علمِهم وظُلمَةِ قلوبهم ، فليسَ لهم نورٌ ولا بَصيرَةٌ يُفرِّقونَ بها بينَ الحقِّ الباطلِ ، بل الكلُّ عندهم سواءٌ .

* وقولُهُ رضيَ اللَّهُ عنهُ : « **يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ** » ، وفي روايَةٍ : « **معَ كلِّ صائحٍ** » ؛ شبَّهَ عقولَهم الضَّعيفَةَ بالغُصْنِ الضَّعيفِ ، وشبَّهَ الأهويَةَ والآراءَ بالرِّياحِ، والغُصنُ يميلُ مع الرِّيحِ حيثُ مالتْ ، وعقولُ هؤلاء تَميلُ مع كلِّ هوىً

[1] قال في « القاموس المحيط » (ص : ٢٣٠) : البَذَج، وَلَد الضأْن، كالعَتود من المَعز » .

وكلِّ داعٍ ، ولو كانَت عقولًا كاملَةً كانَت كالشجرَةِ الكبيرَةِ التي لا تتلاعَبُ بها الرِّياحُ .

وهذا بخلافِ المثلِ الذي ضرَبَهُ النَّبيُّ ﷺ للمؤمنينَ بالخامةِ من الزَّرعِ ، تُفيئهُ الرِّيحُ مرَّةً وتُقيمهُ أُخرى، والمنافقُ كشجرَةِ الأَرزِّ التي لا تُقطَعُ حتى تُستحصَدَ[1] .

فإنَّ هذا المَثَلَ ضُرِبَ للمؤمنِ وما يلقاهُ من عواصفِ البلاءِ والأوجاعِ والأوجالِ وغيرِها ، فلا يَزالُ بين عافيَةٍ وبلاءٍ، ومحنَةٍ ومنحَةٍ، وصحَّةٍ وسقَمٍ، وأمنٍ وخَوفٍ، وغير ذلكَ ، فيقعُ مرَّةً ويقومُ أخرى ، ويميلُ تارَةً ويعتدلُ أخرى ، فَيُكَفَّرُ عنه بالبلاءِ ويُمحَّصُ به ويُخلَّصُ من كدرِهِ ، والكافرُ كلُّهُ خبَثٌ ولا يَصْلُحُ إلّا للوَقودِ ، فليسَ في إصابتِهِ في الدُّنيا بأنواعِ البلاءِ من الحكمَةِ والرَّحمَةِ ما في إصابَةِ المؤمنِ .

فهذه حالُ المؤمنِ في الابتلاء .

وأمَّا معَ الأهواءِ ودُعاةِ الفتَنِ والضَّلالِ والبدعِ ، فكما قيلَ :

تزولُ الجبالُ الرَّاسياتُ وقلبُهُ   على العَهدِ لا يَلوي ولا يتَغَيَّرُ

* وقولُهُ رضيَ اللَّهُ عنهُ : « **لم يَستَضيئوا بنورِ العلمِ ، ولم يَلْجَؤُوا إلى ركنٍ وثيقٍ** » ؛ بيَّنَ السَّبَبَ الذي جعلَهم بتلكَ المثابَةِ ؛ وهو أنَّهُ لم يحصُلْ لهم من العلمِ نورٌ يُفرِّقونَ به بينَ الحقِّ والباطلِ ؛ كما قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وآمِنوا برسولهِ يُؤْتِكُم كِفلَيْنِ من رحمتهِ ويجعَلْ لكُم نُورًا تمشونَ به ﴾ الآية .. [الحديد : ٢٨] .

---

(١) كما رواه البخاري (٥٦٤٤) ومسلم (٢٨٠٩) عن أَبي هُريرة .
وللحافظِ ابنِ رَجَب رسالةٌ مُفرَدَةٌ في شرحِ هذا الحديثِ ، اسمُها « غايةُ النَّفع .. » وهي مطبوعةٌ .

وقال تعالى : ﴿ أوَمَن كانَ مَيتًا فأحيَيناهُ وجَعَلْنا لهُ نورًا يَمشي بهِ في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وقولُه تعالى : ﴿ يَهدي بهِ الله مَن اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ [المائدة : ١٦] .

وقولُه : ﴿ ولكنْ جَعَلناهُ نورًا نَهدي بهِ مَن نَشاءُ من عبادِنا ﴾[الشورى : ٥٢] .

فإذا عَدِمَ القلبُ هذا النُّورَ صارَ بمنزلةِ الحَيرانِ الذي لا يَدري أينَ يَذهَب ! **فهو لحيرتِهِ وجهلِهِ بطريقِ مقصودِهِ يَؤُمُّ كلَّ صوتٍ يسمعُهُ**[1]، ولم يسكُن قلوبَهم من العلمِ ما تمتنعُ به من دعاةِ الباطلِ .

فإنَّ الحقَّ متى استقرَّ في القلبِ قويَ بِه وامتنعَ ممَّا يضرُّهُ ويُهلِكُهُ، ولهذا سمَّى اللَّهُ الحُجَّةَ العلميَّةَ سلطانًا ، وقَد تَقدَّمَ ذلكَ .

فالعَبدُ يُؤتى من ظُلمةِ بصيرتِهِ ومن ضَعفِ قلبِهِ ، فإذا استقرَّ فيه العلمُ النَّافعُ استنارَت بصيرتُهُ وقويَ قلبُهُ .

وهذانِ الأصلانِ هما قُطبا السَّعادَةِ - أعني العلمَ والقوَّةَ - ، وقَد وصَفَ بهما سبحانهُ المُعلِّمَ الأوَّلَ جبريلَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه ، فقال : ﴿ إنْ هوَ إلّا وَحيٌ يُوحى علَّمَهُ شديدُ القوى ﴾ [النجم : ٤ - ٥]، وقال تعالى : ﴿ إنَّهُ لَقَولُ رَسولٍ كريمٍ ذي قُوَّةٍ عندَ ذي العَرشِ مَكينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ - ٢٠]، فوَصَفَهُ بالعلمِ والقوَّةِ .

وفيهِ معنىً أحسَنُ من هذا ؛ وهو الأشبهُ بمرادِ عليٍّ رضيَ اللَّهُ عنه ؛ وهو أنَّ

---

(١) وهكذا الجَهلَةُ المتردِّدون ! أتباع كُلِّ هَيْعَة ، تغرُّهم كُلُّ شبهةٍ ، ويظنُّون كلَّ لامعٍ ذَهبًا !!

هؤلاء ليسوا من أهلِ البَصائرِ الذينَ استضاؤوا بنورِ العلمِ ، ولا لَجَؤُوا إلى عالِمٍ مُستَبْصِرٍ فقلَّدوهُ ، فلا مُستبصرين ولا مُتَّبعينَ لمستبصِرٍ ؛ فإنَّ الرَّجُلَ إمَّا أن يكونَ بَصيرًا أو أعمى مُتمسِّكًا ببَصيرٍ يقودُهُ ، أو أعمى يَسيرُ بلا قائدٍ !

* وقولُه رضيَ اللَّهُ عنهُ : « **العلمُ خيرٌ من المالِ، العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرُسُ المالَ** » ؛ يعني : أنَّ العلمَ يحفظُ صاحبَهُ ويحميهِ من مواردِ الهَلَكَةِ ومواقعِ العَطَبِ ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يُلقي نَفسَهُ في هَلَكَةٍ إذا كانَ عقلُهُ معَهُ ، ولا يُعرِّضُها لِتَلَفٍ إلّا إذا كانَ جاهلًا بذلكَ ، لا عِلمَ له به ، فهو كَمَن يأكُلُ طعامًا مسمومًا ، فالعالِمُ بالسُّمِّ وضَرَرِهِ يحرسُهُ عِلمُهُ ، ويمتنعُ به من أكلِهِ، والجاهلُ به يقتلُهُ جهلُهُ .

فهذا مَثَلُ حراسَةِ العلمِ للعالمِ .

وكذا الطَّبيبُ الحاذقُ يمتنعُ بعلمهِ عن كثيرٍ ممَّا يجلبُ له الأمراضَ والأسقامَ ، وكذا العالِمُ بمخاوفِ طَريقِ سلوكِهِ ومعاطِبها يأخُذُ حِذْرَهُ منها فيحرسُهُ عِلمُهُ من الهلاكِ ، وهكذا العالِمُ باللَّهِ وبأمرِهِ ، وَبعدُوِّهِ ومكائدِهِ ومداخلهِ على العَبدِ، يحرسُهُ عِلمُهُ من وساوسِ الشيطانِ وخطراتهِ وإلقاءِ الشكِّ والرَّيبِ والكُفرِ في قلبهِ ، فهو بعلمهِ يمتنعُ من قَبولِ ذلكَ، فعلمُهُ يحرسُهُ من الشيطان ، فكلَّما جاءَه ليأخذَهُ صاحَ به حَرَسُ العلمِ والإيمانِ ، فيرجعُ خاسئًا خائبًا .

وأعظمُ ما يحرسُهُ من هذا العدوِّ المُبينِ العلمُ والإيمانُ ، فهذا السَّببُ الذي من العَبدِ ، واللَّهُ من وراءِ حفظِهِ وحراستهِ وكلاءتهِ ، فمتى وَكَلَهُ إلى نفسِهِ طَرفَةَ عَينٍ تخطَّفَهُ عَدوُّهُ .

قال بَعضُ العارفِينَ : أجمَعَ العارفونَ على أنَّ التَّوفيقَ أَنْ لا يَكِلَكَ اللَّهُ إلى نَفسِكَ ، وأجمَعوا على أنَّ الخِذْلانَ أن يُخلِّيَ بينَكَ وبينَ نفسِكَ .

* وقولُه : « **العلمُ يزكو على الإنفاقِ ، والمالُ تَنقُصُهُ النَّفقَةُ** » ؛ العالمُ كلَّما بَذَلَ علمَهُ للنَّاسِ وأنفَقَ منه تفجَّرَتْ ينابيعُهُ فازدادَ كثرَةً وقُوَّةً وظهورًا ، فيكتَسِبُ بتعليمِهِ حِفْظَ ما عَلِمَهُ ، ويحصُلُ له به علمُ ما لم يكُن عندَهُ ، وربَّما **تكونُ المسألةُ في نفسِهِ غَيرَ مكشوفَةٍ ولا خارجَةٍ من حَيِّزِ الإشكالِ ، فإذا تكلَّمَ بها وعلَّمها اتَّضَحَتْ له وأضاءَتْ وانفتَحَ له منها عُلومٌ أُخَرُ .**

وأيضًا ؛ فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العَملِ ، فكما علَّمَ الخَلقَ من جهالتِهم ، جزاهُ اللَّهُ بأَنْ علَّمه من جهالتِهِ؛ كما في « صحيح مسلم »(١) من حديثِ عِيَاضِ ابن حِمَارٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال في حَديثٍ طويلٍ : « وأنَّ اللَّهَ قال لي : أَنفِقْ ؛ أُنفِقْ عَلَيكَ » وهذا يتناوَلُ نفقَةَ العلمِ ؛ إمَّا بلفظِهِ ، وإمَّا بتنبيهِهِ وإشارتِهِ وفحواهُ .

ولزكاءِ العلمِ ونحوِهِ طريقان :

أحدهما : تعليمُهُ .

والثَّاني : العَمَلُ به ؛ فإنَّ العَمَلَ به أيضًا يُنمِّيهِ ويُكثِّرُهُ ، ويفتحُ لصاحبِهِ أبوابَهُ وخباياهُ ، وهذا لأَنَّ تعليمَه والعَمَلَ به هو التجارةُ فيه ، فكما ينمو المالُ بالتجارةِ فيه ، كذلك العلم .

وقولُهُ : « والمالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ » ، لا يُنافي قولَ النَّبيِّ ﷺ : « ما نَقَصَت صَدَقَةٌ من مالٍ »(٢)؛ فإنَّ المالَ إذا تَصَدَّقْتَ منه وأنفَقْتَ ، ذَهَبَ ذلكَ القَدْرُ

---

(١) (برقم : ٢٨٦٥) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هُريرة ..

وخَلَفَهُ غيرُهُ، وأمّا العلمُ فكالقَبَسِ من النَّارِ لو اقتَبَسَ منها أَهلُ الأَرضِ لم يَذهَب منها شيءٌ ، بل يَزيدُ العلمُ بالاقتباسِ منه ، فهو كالعَينِ التي كلَّما أُخِذَ منها قويَ ينبوعُها وجاشَ معينُها .

وفضلُ العلمِ على المالِ يُعلَمُ من وجوهٍ :

أَحدُها : أنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ، والمالُ ميراثُ الملوكِ والأغنياءِ .

الثَّاني : أنَّ العلمَ يحرسُ صاحبَهُ ، وصاحبُ المالِ يحرسُ مالَهُ .

والثَّالثُ : أنَّ العلمَ حاكمٌ على المالِ ، والمالُ لا يحكُمُ على العلمِ .

الرَّابعُ : أنَّ المالَ تُذهِبُهُ النَّفقاتُ ، والعلمُ يزكو على النَّفقةِ .

الخامسُ : أنَّ صاحبَ المالِ إذا ماتَ فارقَهُ مالُهُ، والعلمُ يدخُلُ معه قبرَهُ.

السَّادسُ : أنَّ المالَ يحصُلُ للمؤمنِ والكافرِ والبَرِّ والفاجرِ ، والعلمُ النَّافعُ لا يحصُلُ إلّا للمؤمن .

السَّابعُ : **أنَّ العالِمَ يحتاجُ إليه الملوكُ فمَن دونَهم**[1]، وصاحبُ المالِ إنَّما يحتاجُ إليهِ أهلُ العَدمِ والفاقَةِ .

الثَّامنُ : أنَّ النَّفسَ تَشرُفُ وتزكو بجمعِ العلمِ وتحصيلِهِ - وذلكَ من كمالها وشرفها - ، والمالُ لا يُزكِّيها ولا يُكمِّلُها ولا يَزيدُها صفَةَ كمالٍ ، بل النَّفسُ تَنقُصُ وتشِحُّ وتبخَلُ بجمعهِ والحرصِ عليه ، فَحِرْصُها على العلمِ عينُ كمالها ، وحرصُها على المالِ عينُ نَقصِها .

التَّاسعُ : أنَّ المالَ يَدعوها إلى الطُّغيانِ والفخرِ والخُيَلاءِ، والعلمُ يَدعوها إلى التَّواضُعِ والقيامِ بالعُبوديَّةِ ، فالمالُ يَدعوها إلى صفاتِ الملوكِ ، والعلمُ

(١) لكنْ ليس اليومَ ، فوَا أَسفي الشديد ! إلَّا أنْ يُتَّخَذَ بعضُ (أَشباه) العلماءِ مَطيّة ، لأغراضٍ دَنِيّة !!

يَدعوها إلى صفاتِ العَبيد .

العاشِرُ : أنَّ العلمَ جاذبٌ مُوصِلٌ لها إلى سعادتها التي خُلِقَت لها ، والمالُ حِجابٌ بينها وبينها .

الحادي عَشرَ : أنَّ غِنى العلمِ أجلُّ من غنى المالِ ؛ فإنَّ غنىً المالِ غنىً بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقَةِ الإنسانِ ، لو ذَهَبَ في لَيلَةٍ أصبَحَ مُعْدَمًا ، وغِنى العلمِ لا يُخشى عليه الفقرُ ، بل هو في زيادَةٍ أبدًا، فهو الغِنى العالي حَقيقَةً؛ كما قيل :

غَنِيتُ بلا مالٍ عن النَّاسِ كُلِّهِم وإنَّ الغِنى العالي عن الشيءِ لا بِهِ

الثَّاني عَشرَ : أنَّ المالَ يَستعبدُ مُحِبَّهُ وصاحِبَهُ فيجعلُهُ عبدًا له ، كما قالَ النَّبيُّ رسول اللَّه ﷺ : « تَعِسَ عَبدُ الدِّينارِ والدِّرهَم .. »[1] الحديث ، والعلِمُ يَستعبدُهُ لربِّهِ وخالقهِ ، فهو لا يَدعوهُ إلَّا إلى عبوديَّة اللَّهِ وحدَهُ .

الثَّالثَ عَشرَ : أنَّ حُبَّ العلمِ وطلبَهُ أصلُ كلِّ طاعَةٍ ، **وحُبُّ الدُّنيا والمالِ وطلبِهِ أصلُ كلِّ سيِّئةٍ .**

الرَّابعَ عَشرَ : أنَّ قيمَةَ الغَنيِّ مالُهُ ، وقيمَةَ العالِمِ علمُهُ ، فهذا مُتقوِّمٌ بمالِهِ ، فإذا عُدِمَ مالُهُ عُدِمَت قيمتُهُ فَبَقِيَ بلا قيمَةٍ ، والعالِمُ لا تَزولُ قيمتُهُ ، بل هي في تضاعُفٍ وزيادَةٍ دائمًا .

الخامسَ عَشرَ : أنَّ جَوهَرَ المالِ من جنسِ جَوهَرِ البَدنِ ، وجَوهَرُ العلمِ من جنسِ الرُّوحِ ،كما قال يونُس بن حَبيبٍ : علمُكَ من رُوحِكَ ، ومالُكَ من بَدنكَ ، والفرقُ بين الأمرين كالفَرقِ بينَ الرُّوحِ والبَدَن .

السَّادسَ عَشرَ : أنَّ العالِمَ لو عُرِضَ عليه بحظِّهِ من العلمِ الدُّنيا بما فيها لم

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٥) عن أبي هُريرة .

يَرضَها عِوَضًا من علمِهِ ، والغَنيُّ العاقلُ إذا رأى شرَفَ العلمِ وفَضلَهُ وابتهاجَهُ بالعلمِ وكمالَه بِهِ يودُّ لو أنَّ له علمَهُ بغناهُ أجمعَ .

السَّابعَ عَشــرَ : أنَّ غِنى المالِ قَد يكونُ سَبَبَ هلاكِ صاحبِهِ كثيرًا ؛ فإنَّهُ معشوقُ النُّفوسِ ؛ فإذا رَأَتْ مَن يستأثِرُ بمعشوقِها عليها سَعَتْ في هلاكِهِ كما هو الواقعُ ، وأمَّا غِنى العلمِ فَسَببُ حياةِ الرَّجلِ وحياةِ غيرِهِ به، والنَّاسُ إذا رَأَوْا مَن يستأثِرُ عليهم به ويطلبُهُ أَحَبُّوهُ وخَدموهُ وأكرموهُ .

الثَّـامنَ عَشرَ : أنَّ ما أطاعَ اللَّهَ أحدٌ قطُّ إلّا بالعلمِ ، وعامَّةُ مَن يَعصيهِ إنَّما يَعصيهِ بالمالِ .

التَّـاسعَ عَشرَ : أنَّ العالِمَ يَدعو النَّاسَ إلى اللَّهِ بعلمِهِ وحالِهِ، وجامعُ المالِ يَدعوهم إلى الدُّنيا بحالِهِ ومالِهِ .

العشرون : أَنَّ اللذَّةَ الحاصلَةَ من غِنى المالِ إمَّا لذَّةٌ وهميَّةٌ وإمَّا لذَّةٌ بَهيميَّةٌ :

فإنْ صاحِبُهُ التذَّ بنفسِ جمعِهِ وتحصيلِهِ فتلكَ لذَّةٌ وهميَّةٌ خياليَّةٌ .

وإنِ التَّذَّ بإنْفاقِهِ في شهواتِهِ فهي لذَّةٌ بَهيميَّةٌ .

وأمَّا لذَّةُ العلمِ فلذَّةٌ عقليَّةٌ رُوحانيَّةٌ ، تُشبِهُ لذَّةَ الملائكَةِ وبَهجتَها .

وفَرقٌ ما بينَ اللَّذَّتَين .

الحادي والعشرون : أَنَّ عُقلاءَ الأُمَم مُطْبِقونَ على ذمِّ الشَّرِهِ في جمعِ المالِ الحريصِ عليهِ [1] ، وتَنَقُّصِهِ والإزْراءِ به، ومُطْبِقونَ على تَعظيمِ الشَّرِهِ في جمعِ العلمِ وتحصيلِهِ ومدحِهِ ومحبَّتهِ ورؤيَتِهِ بعَينِ الكمالِ [2] .

(١) ولأُستاذنا الشيخ محمد إبراهيم شقرة رسالةٌ لطيفةٌ بعنوان « فتنة الأمّة » ، في ذَمّ التكالب على جمع المال ، وبيان آثاره السيئة ، وقد طُبعت حديثاً .

(٢) في ترجمةِ زياد بن يونُس مِن « تهذيب التهذيب » (٣/ ٣٨٩) بعد توثيقه وبيان =

الثَّاني والعشرون : أنَّهم مُطْبِقونَ على تَعظيمِ الزَّاهِدِ في المالِ ، المُعرِضِ عن جمعِهِ ، الذي لا يلتفتُ إليهِ ولا يَجعلُ قلبَهُ عبدًا له، ومُطْبِقونَ على ذمِّ الزَّاهِدِ في العلمِ الذي لا يلتفتُ إليهِ ولا يحرصُ عليهِ .

الثَّالثُ والعشرون : أنَّ المالَ يُمدَحُ صاحبُهُ بتخلِّيهِ منه وإخراجِهِ، والعلمُ إنَّما يُمدَحُ بتحلِّيهِ به واتِّصافِهِ بِهِ .

الرَّابعُ والعشرون : أنَّ غِنى المالِ مقرونٌ بالخَوفِ والحُزنِ ، فهو حزينٌ قبلَ حصولِهِ ، خائفٌ بعدَ حصولِهِ ، وكلَّما كانَ أكثرَ كانَ الخوفُ أقوى ، وغِنى العلمِ مقرونٌ بالأمنِ والفرحِ والسُّرور .

الخامسُ والعشرون : أنَّ الغنيَّ بمالِهِ لا بدَّ أَنْ يُفَارِقَهُ غِناهُ ، فيتعذَّبَ ويتألَّمَ بمفارقتِهِ ، والغَنيُّ بالعلمِ لا يَزولُ ولا يَتعذَّبُ صاحبُهُ ولا يتألَّمُ ، فلذَّةُ الغِنى بالمالِ لذَّةٌ زائلَةٌ مُنقطعَةٌ يَعْقُبُها الألَمُ ، ولذَّةُ الغِنى بالعلمِ لذَّةٌ باقيَةٌ مستمرَّةٌ لا يلحقها أَلَمٌ .

السَّادسُ والعشرون : أَنَّ استِلْذاذَ النَّفسِ وكمالَها بالغنى استكمالٌ بعارِيَّةٍ مُؤَدَّاةٍ ، فَتَجمُّلُها بالمالِ تجمُّلٌ بثَوبٍ مُستعارٍ لا بدَّ أن يَرجعَ إلى مالكِهِ يومًا ما، وأمَّا تَجَمُّلُها بالعلمِ وكمالُها به فتَجمُّلٌ بصِفَةٍ ثابتَةٍ لها راسخَةٍ فيها لا تُفارِقُها .

السَّابعُ والعشرون : أنَّ الغِنى بالمالِ هو عَينُ فَقرِ النَّفسِ ، والغِنى بالعلمِ هو عَينُ غِنى النَّفس، فهو غِناها الحقيقيُّ ؛ فغِناها بعلمِها هو الغِنى ، وغِناها بمالها هو الفَقر .

= رِفعةِ درجتِه : « وكان طَلَّابًا للعلمِ ، وكان يُسَمَّى سوسةَ **العلمِ** ! » .

وانظر « نُزهة الألباب في الألقاب » (١ / ٣٨١) للحافظ ابن حَجَر .

الثَّامنُ والعشرون : أنَّ مَن قُدِّمَ وأُكرِمَ لمالِهِ ؛ إذا زالَ مالُهُ زالَ تَقديمُهُ وإكرامُهُ ، ومَن قُدِّمَ وأُكرِمَ لعلمِهِ فإنَّهُ لا يَزدادُ إلَّا تَقديمًا وإكرامًا .

التَّاسعُ والعشرون : أنَّ تَقديمَ الرَّجُلِ لمالِهِ هو عَينُ ذَمِّهِ ؛ فإنَّهُ نداءٌ عليهِ بنقصِهِ ، وأنَّهُ لولا مالُهُ لكانَ مُستحِقًّا للتَّأخُّرِ والإهانَةِ ، وأمَّا تَقديمُهُ وإكرامُهُ لعلمِهِ فإنَّهُ عَينُ كمالِهِ ، إذ هو تَقديمٌ له بنفسِهِ وبصفتِهِ القائمَةِ به ، لا بأمرٍ خارجٍ عن ذاتِهِ .

الوجــهُ الثَّلاثون : أنَّ طالبَ الكمالِ بغنى المالِ كالجامعِ بينَ الضِّدَّينِ ، فهو طالبٌ ما لا سبيلَ إليهِ .

وبيانُ ذلكَ :

أنَّ القُدرَةَ صِفَةُ كمالٍ ، وصفَةُ الكمالِ محبوبَةٌ بالذَّاتِ ، والاستغناءُ عن الغَيرِ - أَيضًا - صفَةُ كمالٍ محبوبَةٌ بالذَّاتِ ، فإذا مالَ الرَّجلُ بطبعِهِ إلى السَّخاوَةِ والجُودِ وفِعلِ المَكْرُماتِ ، فهذا كمالٌ مطلوبٌ للعُقلاءِ ، محبوبٌ للنُّفوسِ ، وإذا الْتفَتَ إلى أنَّ ذلكَ يَقتَضي خُروجَ المالِ من يَدِهِ - وذلكَ يُوجِبُ نَقصَهُ واحتياجَهُ إلى غَيرِه وزوالَ قُدرتِهِ - نَفَرَتْ نفسُهُ عن السَّخاءِ والكرمِ والجُودِ واصطناعِ المعروفِ ، وظنَّ أنَّ كمالَهُ في إمساكِ المالِ .

وهذه البليَّةُ أمرٌ ثابتٌ لعامَّةِ الخَلْقِ ، لا يَنفَكُّونَ عنها .

فلأجلِ مَيْلِ الطَّبْعِ إلى حُصولِ المدحِ والثَّناءِ والتَّعظيمِ بحُبِّ الجُودِ والسَّخاءِ والمكارمِ ، ولأجلِ فَوْتِ القُدرَةِ الحاصلَةِ بسَببِ إخراجِهِ والحاجَةِ المُنافيَةِ لكمالِ الغنى يحِبُّ إبقاءَ مالِهِ ، ويكرَهُ السَّخاءَ والكرَمَ والجُودَ ، فيبقى

قلبُهُ واقِفًا بينَ هذين الدَّاعِيَيْنِ يتجاذبانِهِ ، ويَعْتَوِرَانِ عليهِ ، فيبقى القلبُ في مقامِ المُعارَضَةِ بينهما ، فمِنَ النَّاسِ مَن يترجَّحُ عندَهُ جانبُ البَذْلِ والجُودِ والكرَمِ فَيُؤْثِرُهُ على الجانبِ الآخَرَ ، ومنهم مَن يترجَّحُ عنده جانبُ الإِمساكِ ، وبقاءِ القُدرةِ والغِنى ، فَيُؤْثِرُهُ .

فهذان نَظَرانِ للعُقَلاءِ .

ومنهم مَن يبلُغُ به الجَهلُ والحماقَةُ إلى حيثُ يُريدُ الجَمعَ بينَ الوجهَين ، فَيَعِدُ النَّاسَ بالجُودِ والسَّخاءِ والمكارمِ ؛ طَمَعًا منه في فوزهِ بالمدحِ والثَّناءِ على ذلك ، وعندَ حُضورِ الوَقتِ لا يَفي بما قالَ ! فيستحقُّ الذمَّ ، ويبذلُ بلسانهِ ، ويُمسِكُ بقلبهِ ويَدهِ ! فيقَعُ في أنواعِ القبائحِ والفضائحِ !!

وإذا تأمَّلْتَ أحوالَ أهلِ الدُّنيا من الأغنياءِ رأيتَهم تحتَ أسرِ هذه البليَّةِ ، وهم غالبًا يبكونَ ويَشْكُونَ[1] .

وأمَّا غَنيُّ العلمِ فلا يَعرِضُ له شيءٌ من ذلكَ ، بل كُلَّما بَذَلَهُ ازدادَ ببذلِهِ فَرَحًا وسُرورًا وابتهاجًا ، والعالِمُ وإنْ فاتَتْهُ لذَّةُ أهلِ الغنى وتمتُّعُهم بأموالهم فهُم أيضًا قد فاتَتْهُم لذَّةُ أَهلِ العلمِ ، وتمتُّعُهم بعلومهم ، وابتهاجُهم بها .

فمعَ صاحبِ العلمِ من أسبابِ اللذَّةِ ما هو أعظمُ وأقوى وأدوَمُ من لذَّةِ الغنيّ ، وتَعَبُهُ في تحصيلِهِ وجمعِهِ وضبطِهِ أقلُّ مِن تَعَبِ جامعِ المالِ ؛ فَجَمْعُهُ وألمُهُ دونَ ألمهِ ؛ كما قال تعالى للمؤمنينَ - تسليَةً لهم بما ينالُهم من الألمِ والتَّعبِ في طاعتهِ ومرضاتهِ - : ﴿ ولا تَهِنُوا في ابتِغاءِ القَومِ إنْ تكونوا تَأْلَمُونَ فإنَّهم يَأْلَمُونَ كما تَأْلَمُونَ وتَرْجُونَ منَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ وكانَ اللهُ عَليمًا حكيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤] .

---

(١) إي واللهِ !

الحادي والثَّلاثون : أنَّ اللذَّةَ الحاصِلَةَ مِن المالِ والغِنى إنَّما هي حالَ تجدُّدهِ فَقَط .

وأمَّا حالَ دوامِهِ ؛ فإمَّا أن تَذهَبَ تلكَ اللذَّةُ ، وإمَّا أن تَنقُصَ ، ويدلُّ عليهِ أنَّ الطَّبعَ يبقى طالبًا لغنىً آخَرَ حريصًا عليهِ ، فهو يُحاوِلُ تحصيلَ الزِّيادَةِ دائمًا في فَقرٍ مستمرٍّ غَيرِ مُنتقَضٍ ، ولو مَلَكَ خزائنَ الأرضِ ، ففقرُهُ وطلبُهُ وحِرْصُهُ باقٍ عليه ؛ فإنَّهُ أحدُ المَنهومَيْنِ اللذينِ لا يَشبعانِ(١)، فهو لا يُفارِقُهُ أَلَمُ الحرصِ

(١) كما في قولِهِ ﷺ : « مَنهومان لا يشبعان : طالبُ علمٍ وطالبُ مالٍ » ، وهو حديثٌ حسنٌ ؛ له طرق :

فقد أَخرجه البيهقي في « المدخل » (٤٥١) والحاكم في « المستدرك » (٩٢/١) - وصحَّحه - عن قتادة عن أنس .

وقتادةُ مدلِّس وقد عنعنه .

وله طريقٌ آخر :

رواه ابن عدي في « الكامل » (٢٢٩٨/٦) وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٨٧/١) والبيهقي في « المدخل » (٤٥٠) من طريقين عن عبدالأَعلى بن حماد النَّرْسي ، عن حمَّاد ، عن حُميد عن أَنس .

وعبدُالأَعلى ثقةٌ .

فالسندُ صحيحٌ .

وله شاهدٌ عن ابن عباس : أَخرجه ابنُ أَبِي عاصم في « الزهد » (رقم ٢٨٥) وأَبو خَيْثَمَةَ في « العلم » (ص ١٤٣) والطبراني في « الأَوسط » (١٩٠- مجمع البحرين) و« الكبير » (١١٠٩٥) والبزَّار (٩٥/١) من طريق ليث عن مُجاهد ، عن ابن عبَّاس .

وضعَّف الهيثميُّ في « مجمع الزوائد » (١٣٥/١) سندَه بليث بن أَبي سليم ، وكذا العراقي في « تخريج الإِحياء » (٢٧٤/٣) .

وله طريقٌ آخر عن ابن مسعود ، ولكنْ لا يُفرَح به ! ففيه متَّهم ، فانظر « الكامل » (٤ / ١٤٥٧) ، وانظر ما سبقَ (ص ٧٧) .

والطَّلبِ .

وهذا بخلافِ غَنيِّ العلمِ والإيمانِ ؛ فإنَّ لَذَّتَهُ في حالِ بقائهِ مثلُها في حالِ تجدُّدِهِ ، بل أَزْيَدُ ، وصاحبُها - وإنْ كانَ لا يزالُ طالبًا للمزيدِ حريصًا عليهِ - فطلبُهُ وحِرْصُهُ مُستصحَبٌ لِلَذَّةِ الحاصلِ ، ولذَّةِ المرجوِّ المطلوبِ ، ولذَّةِ الطَّلبِ وابتهاجِهِ وفرحِهِ بِهِ .

الثَّاني والثَّلاثون : أنَّ غِنىٰ المالِ يَستَدعي الإنعامَ على النَّاسِ والإحسانَ إليهم ؛ فصاحبُهُ إمَّا أن يسُدَّ على نفسِهِ هذا البابَ ، وإمَّا أن يَفتحَهُ عليهِ ، فإنْ سدَّهُ على نفسِهِ اشتَهَرَ عندَ النَّاسِ بالبُعدِ من الخَيرِ والنَّفعِ ، فأبغَضوهُ وذمُّوهُ واحتَقروهُ ، وكلُّ من كانَ بغيضًا عندَ النَّاسِ حقيرًا لديهم كانَ وصولُ الآفاتِ والمضرَّاتِ إليهِ أسرَعَ من النَّارِ في الحَطَبِ اليابسِ ، ومنَ السَّيلِ في مُنحدَرِهِ ، وإذا عَرَفَ من الخَلْقِ أنَّهُم يَمْقُتونهُ ويُبغِضونهُ ولا يُقيمونَ له وزنًا تألَّمَ قلبُهُ غايَةَ التَّألُّمِ وأُحضِرَ الهمومَ والغُمومَ والأحزانَ .

وإنْ فتَحَ بابَ الإحسانِ والعطاءِ فإنَّهُ لا يُمكنُهُ إيصالُ الخَيرِ والإحسانِ إلى كلِّ أحدٍ ، فلا بدَّ من إيصالِهِ إلى البَعض ، وإمساكِهِ عن البَعضِ ، وهذا يفتحُ عليهِ بابَ العداوَةِ والمذمَّةِ منَ المَحرومِ والمرحومِ :

أمَّا المحرومُ فيقول : كيفَ جادَ على غَيري وبخِلَ عليَّ !؟ .

وأمَّا المرحومُ فإنَّهُ يلتذُّ ويفرحُ بما حَصَلَ له مِن الخَيرِ والنَّفعِ ، فيبقى طامعًا مُستشرفًا لنظيرِهِ على الدَّوامِ ، وهذا قَد يتعذَّرُ غالبًا فَيُفضي ذلكَ إلى العَداوَةِ الشديدَةِ والمذمَّةِ، ولهذا قيل : « اتَّقِ شرَّ من أحسَنتَ إليهِ »[1] .

---

(١) وبعضُهم ينسبه إلى الرسول ﷺ، وليس لذلك أَصلٌ، قال السخاوي في « المقاصد=

وهذه الآفاتُ لا تَعْرِضُ في غنى العلمِ ؛ فإنَّ صاحبَهُ يُمكِنُهُ بَذْلُهُ للعالَم كلِّهم ، وإِشْراكُهُم فيه، والقدرُ المبذولُ منه باقٍ لآخذِهِ لا يَزولُ بل يتَّجِرُ بِهِ، فهو كالغَنيِّ إذا أعطى الفَقيرَ رأسَ مالِه يتَّجِرُ به حتى يَصيرَ غَنيًّا مثلَه !

الوجهُ الثَّالثُ والثَّلاثون : أَنَّ جمعَ المالِ مقرونٌ بثلاثَةِ أنواعٍ من الآفاتِ والمِحَن : نوعٌ قبْلَهُ، ونوعٌ عند حصولِهِ، ونوعٌ بعدَ مفارَقتِهِ :

فأمَّا النَّوعُ الأوَّلُ : فهو المَشَاقُّ والأنكادُ والآلامُ التي لا يحصُلُ إلّا بها .

وأمَّا النَّوعُ الثَّاني : فمشقَّةُ حفظِهِ وحراستِهِ وتعلُّقِ القلبِ به ، فلا يُصبحُ إلّا مهموما ، ولا يُمسي إلّا مَغْموما ، فهو بمنزلَةِ عاشقٍ مُفرِطِ المحبَّةِ قَد ظَفِرَ بمعشوقِهِ ، والعيونُ من كلِّ جانبٍ تَرمُقُهُ والألسُنُ والقلوبُ ترشُقُهُ ، فأيُّ عَيشٍ وأَيُّ لذَّةٍ لمَن هذه حالُهُ !! وَقَد عَلِمَ أنَّ أَعداءَهُ وحُسَّادَهُ لا يَفْتُرونَ عن سَعيِهِم في التَّفريقِ بينَهُ وبينَ معشوقِهِ وإنْ لم يَظفَروا هم بِهِ ، ولكنَّ مقصودَهم أن يُزيلوا اختصاصَهُ به دونهم ؛ فإنْ فازوا به وإلّا استَوَوْا في الحرمانِ ، فزالَ الاختصاصُ المُؤلِمُ للنُّفوسِ !

ولو قَدَروا على مثلِ ذلكَ معَ العالِمِ لفَعلوهُ ، ولكنَّهُم لمَّا علموا أنَّهُ لا سبيلَ إلى علمِهِ عمَدوا إلى جَحْدِهِ وإنكارِهِ ليزُيلوا عن القلوبِ محبَّتَهُ وتقديمَه والثَّناءَ عليهِ، فإنْ بهَرَ علمُهُ وامتَنَعَ عن مكابَرَةِ الجُحودِ والإنكارِ رَمَوْهُ بالعظائمِ ، ونَسبوهُ إلى كلِّ قبيحٍ ، ليزيلوا من القلوبِ محبَّتَهُ ويُسكِنوا موضعَها النَّفرَةَ عنهُ وبُغضَهُ .

وهذا شُغْلُ السَّحَرَةِ بعينِهِ ، فهؤلاءِ سَحَرَةٌ بألسنتهم .

= الحسنة » (٢٥) : « لا أَعرفه » .

وانظر « الأَسرار المرفوعة » (٨٠) ، و« تمييز الطيّب من الخبيث » (٧) .

فإنْ عَجَزوا له عن شيءٍ من القبائحِ الظَّاهرَةِ بعينِهِ ، رَمَوْهُ بالتَّلبيسِ والتَّدليسِ والزَّوْكَرَةِ[1] والرِّياءِ وحُبِّ التَّرفُّعِ وطَلَبِ الجاهِ[2] !

وهذا القَدْرُ من مُعاداةِ أهلِ الجَهلِ والظُّلمِ للعلماءِ مثلُ الحرِّ والبَردِ لا بدَّ منه ، فلا يَنبَغي لمَن له مُسكَةُ عَقلٍ أن يتأذَّى به ، إذ لا سبيلَ له إلى دفعهِ بحالٍ ، فَلْيُوطِّن نَفسَهُ عليهِ كما يُوطِّنُها على بَردِ الشتاءِ وحرِّ الصَّيفِ .

والنَّوعُ الثَّالثُ مِن آفاتِ الغِنى : ما يحصُلُ للعَبدِ بعَد مفارقتِهِ مَن تعلَّقَ قلبُهُ به ، وكونُهُ قَد جَعَلَ بينَهُ وبينَ المطالبَةِ بحقوقِهِ والمحاسبَةِ على مقبوضِهِ ومصروفِهِ : من أينَ اكتسبَهُ وفي ماذا أنفقَهُ[3] ؟

وغَنيُّ العلمِ والإيمانِ معَ سلامَتِهِ من هذه الآفاتِ فهو كفيلٌ بكلِّ لذَّةٍ وفَرْحَةٍ وسرورٍ ، ولكنْ لا يُنالُ إلّا على جسرٍ من التَّعَبِ والصَّبرِ والمشقَّةِ .

الرَّابعُ والثَّلاثون : أنَّ لذَّةَ الغنيِّ بالمالِ مقرونَةٌ بخُلطَةِ النَّاسِ ، ولو لم يكُن إلّا خَدَمُهُ وأزواجُهُ وسراريهِ وأتباعُهُ ، إذ لو انفَرَدَ الغنيُّ بمالِهِ وحدَهُ من غَيرِ أن يتعلَّقَ بخادمٍ أو زَوجَةٍ أو أحدٍ من النَّاسِ لم يكمُل انتفاعُهُ بمالِهِ ، ولا الْتذاذُهُ به ، وإذا كانَ كمالُ لذَّتهِ بغناهُ موقوفًا على اتِّصالهِ بالغَيرِ فذلكَ الاتِّصالُ منشأُ الآفاتِ والآلامِ وأَنواعِ النَّكَدِ ، ولو لم يكُن إلَّا اختلافُ أَخْلاقِ النَّاسِ وطبائعهم وإراداتِهم ! فقبيحُ هذا حَسَنُ ذاك ، ومصلحةُ ذاكَ مفسَدةُ هذا ، ومنفَعَةُ هذا مضرَّةُ الآخَرِ وبالعَكسِ ، فهو مُبتليً بهم ، فلا بدَّ من وُقوعِ النَّفرَةِ والتَّباغُضِ

---

(١) الغِشّ والخِداع .

(٢) وهم (ا) هكذا في كُلِّ زمانٍ وفي كُلِّ مكان .

(٣) وفي ذلك حديثٌ صحيحٌ ؛ فانظر « ذمّ مَن لا يعملُ بعلمِهِ » (رقم : ١ و ٢) لابن عساكر - بتحقيقي .

والتَّعادي بينهم وبينَهُ ، فإنَّ إرضاءَهُم كلِّهم مُحالٌ ، وهو جمعٌ بينَ الضدَّينِ ، وإرضاءُ بعضِهم وإسخاطُ غيره سببُ الشرِّ والمعاداةِ ، **وكلَّما طالَت المخالطَةُ ازدادَت أسبابُ الشرِّ والعداوَةِ وقَوِيَت**[1].

وبهذا السَّببِ كانَ الشرُّ الحاصلُ من الأقاربِ والعُشَراءِ أضعافَ الشرِّ الحاصلِ من الأجانبِ والبُعَداء[2] .

وهذه المُخالَطَةُ إنَّما حَصَلَت من جانبِ الغِنى بالمالِ ، أمَّا إذا لم يكُن فيه فَضْيلَةٌ لهم ، فإنَّهُم يتجنَّبونَ مُخالَطَتَهُ ومعاشرتَهُ ، فيستريحُ مِن أذى الخُلطَةِ والعشرَةِ .

وهذه الآفاتُ معدومَةٌ في الغِنى بالعلمِ .

الخامسُ والثَّلاثون : أَنَّ المالَ لا يُرادُ لذاتِهِ وعينِهِ ، فإنَّهُ لا يحصُلُ بذاتِهِ شيءٌ من المنافعِ أصلًا ، فإنَّهُ لا يُشبِعُ ولا يَروي ولا يُدفِيءُ ولا يمنعُ ، وإنَّما يُرادُ لهذه الأشياءِ ؛ فإنَّهُ لمّا كانَ طريقًا إليها أُرِيدَ إرادَةَ الوسائل .

ومعلومٌ أنَّ الغاياتِ أشرَفُ من الوسائلِ ؛ فهذه الغاياتُ - إذًا - أشرَفُ منه ، وهي مع شرفها بالنِّسبَةِ إليهِ ناقصَةٌ دنيئةٌ .

وقَد ذَهَبَ كثيرٌ من العُقلاءِ إلى أنَّها لا حَقيقَةَ لها ، وإنَّما هي دَفعُ آلامٍ فَقط ، فإنَّ لُبسَ الثِّياب مثلًا إنَّما فائدتُهُ دفعُ التَّألُّمِ بالحَرِّ والبَردِ والرِّيحِ ، وليسَ فيها لذَّةٌ زائدةٌ على ذلكَ ، وكذلكَ الأكلُ إنَّما فائدتُهُ دفعُ أَلَمِ الجوعِ ، ولهذا لو لم يجد أَلَمَ الجوعِ لم يَستَطِبِ الأكلَ ، وكذلكَ الشربُ مع العَطَشِ، والرَّاحَةُ مَعَ

---

(١) لذلك جاءَ ترغيبُ السَّلَف بالعُزلةِ والبُعد عن المُخالطة ، طَلَبًا لراحةِ النّفوس ، وهَرَبًا مِن شُغل القلوب .

وللخطّابي وابن الوزير اليماني - وغيرِهما - مُصنَّفاتٌ مستقلّةٌ في هذا الباب .

(٢) فتأمَّلْ

التَّعبِ .

ومعلومٌ أنَّ في مُزاوَلَةِ ذلكَ وتحصيلِهِ ألمًا وضررًا ، ولكنّ ضرَرَهُ وألَمَهُ أقلُّ من ضَرَرِ ما يَدفَعُ به ألَمَهُ ، **فيحتملُ الإنسانُ أخفَّ الضَّرَرينِ دفعًا لأعظمِهما** .

وحُكِيَ عن بعضِ العُقَلاءِ أنَّهُ قيلَ لهُ - وقد تناوَلَ قَدَحًا كريهًا جدًّا من الدَّواءِ - : كيفَ حالُك معهُ ؟ قال :

أصبَحتُ في دارِ بليّاتِ أَدفعُ آفـاتٍ بآفـاتِ

وفي الحقيقةِ ؛ فلذَّاتُ الدُّنيا من المآكلِ والمشاربِ والملَبَسِ والمسكَنِ والمنكحِ من هذا الجنسِ ، واللذَّةُ التي يُباشِرُها الحِسُّ ويتحرَّكُ لها الحَيُّ - وهي الغايَةُ المطلوبَةُ له من لذَّةِ المنكَحِ والمأكلِ - شهوَةُ البَطنِ والفَرجِ ، ليسَ لهما ثالثٌ البتَّة إلّا ما كانَ وسيلَةً إليهما وطريقًا إلى تحصيلهما .

وأمَّا غِنى العلمِ والإيمانِ فدائمُ اللذَّةِ ، مُتَّصلُ الفَرحَةِ ، مُقتَضٍ لأنواعِ المسرَّةِ والبَهجَةِ ، لا يزولُ فيُحْزِن ، ولا يُفارقُ فيُؤلِم ، بل أصحابُهُ كما قالَ اللَّهُ تعالى فيهم : ﴿ لا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنون ﴾ [يونس : ٦٢] .

السَّادسُ والثَّلاثون : أنَّ غَنيَّ المالِ يُبغِضُ الموتَ ولقاءَ اللَّهِ ، فإنَّهُ لحبِّهِ مالَهُ يكرَهُ مُفارَقَتَهُ ويُحِبُّ بقاءَهُ ليتمتَّعَ به كما شهدَ به الواقع .

أمَّا العلمُ فإنَّهُ يُحبِّبُ للعَبدِ لقاءَ ربِّهِ ويُزهِّدُهُ في هذه الحياةِ النَّكِدَة الفانيَة .

السَّابعُ والثَّلاثون : أنَّ الأغنياء يموتُ ذِكرُهُم بموتهم ، والعلماءُ يموتونَ ويبقى ذِكْرُهم ؛ كما قال أميرُ المؤمنين في هذا الحديث :

« **ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ والعلماءُ باقون ما بقيَ الدَّهرُ** » ؛ فَخُزَّانُ الأموالِ أحياءٌ كأمواتٍ ، والعلماءُ بَعدَ موتهم أمواتٌ كأحياءٍ .

الثَّامنُ والثَّلاثون : أَنَّ نسبَةَ العلمِ إلى الرُّوحِ كنسبَةِ الرُّوحِ إلى البَدن ؛ فالرُّوحُ ميِّتَةٌ ؛ حياتُها بالعلمِ ،كما أَنَّ الجَسَدَ ميِّتٌ ؛ حياتُهُ بالرُّوحِ، فالغَنيُّ بالمالِ غايتُهُ أن يَزيدَ في حياةِ البَدَن ، وأمَّا العلمُ فهو حياةُ القلوبِ والأرواحِ ؛ كما تَقدَّمَ تَقريرهُ .

التَّاسعُ والثَّلاثون : أَنَّ القَلبَ مَلِكُ البَدنِ ، والعلمَ زينتُهُ وعُدَّتُهُ ومالُهُ ، وبه قِوامُ مُلكِهِ ، والمَلِكُ لا بدَّ لهُ من عَددٍ وعُدَّةٍ ومالٍ وزينَةٍ ، فالعلمُ هو مركبُهُ وعدَّتُهُ وجَمالُهُ .

وأمَّا المالُ فغايتُهُ أن يكونَ زينةً وجمالًا للبَدَنِ إذا أنفقَهُ في ذلكَ ، فإذا خَزَنَهُ ولم يُنفِقْهُ لم يكُن زينةً ولا جَمالًا ، بل نقصًا وَوَبالًا .

ومن المعلومِ أنَّ زينةَ المَلِكِ وما بهِ قِوامُ مُلكِهِ أَجَلُّ وأفضلُ من زينةِ رعيَّتِهِ وجَمالهم ، فقوامُ القلبِ بالعلمِ ، كما أنَّ قوامَ الجسمِ بالغِذاء .

الوجهُ الأربعون : أنَّ القَدْرَ المقصودَ من المالِ هو ما يَكفي العَبدَ ويُقِيمُهُ ويَدفعُ ضرورتَهُ حتى يتمكَّنَ من قضاءِ جهازِهِ ، ومن التَّزوُّدِ لسفرِهِ إلى ربِّهِ عزَّ وجَلَّ ، فإذا زادَ على ذلكَ شغَلَهُ وقَطَعَهُ عن السَّفرِ إلى ربِّه وعَن قضاءِ جهازِهِ وتعبيَةِ زادِهِ ، فكانَ ضَرَرُهُ عليهِ أكثَرَ من مصلحتِهِ ، وكلَّما ازدادَ غِناهُ به ازدادَ تثبُّطًا وتخلُّفًا عن التَّجهُّزِ لِمَا أمامَهُ .

وأمَّا العلمُ النَّافعُ فكلَّما ازدادَ منه ازدادَ في تَعبيَةِ الزَّادِ وقضاءِ الجهازِ وإعدادِ عدَّةِ المسيرِ ، واللَّهُ الموفِّق وبه الاستعانَةُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بِهِ .

فعُدَّةُ هذا السَّفَرِ هو العلمُ والعَمَلُ ، وعُدَّةُ الإقامَةِ جمعُ الأموالِ والادِّخارُ ، ومَن أرادَ شيئًا هيَّأَ له عُدَّتَهُ، قال تعالى : ﴿ وَلو أرادوا الخُروجَ لأعَدُّوا لهُ عُدَّةً

ولكنْ كَرِهَ اللهُ انبعاثَهُم فَثَبَّطهُم وقيلَ اقعُدوا معَ القاعدينَ ﴾ [التوبة : ٤٦] .

* وقولُه : « محبَّةُ العلمِ – أو العالِمِ – دِينٌ يُدانُ بها » ؛ لأنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ والعلماءُ وُرَّاثُهم ، فمحبَّةُ العلمِ وأهلِهِ محبَّةٌ لميراثِ الأنبياءِ وورثتِهم، وبُغضُ العلمِ وأهلِهِ بُغضٌ لميراثِ الأنبياءِ وورثتِهم .

فمحبَّةُ العلمِ مِن علاماتِ السَّعادَةِ وبُغْضُ العلمِ من علاماتِ الشَّقاوَةِ ، وهذا كلُّه إنَّما هو في علمِ الرُّسلِ الذي جاؤا به ، وورّثوهُ للأُمَّةِ ، لا في كلِّ ما يُسمَّى عِلمًا .

وأيضًا ؛ فإنَّ محبَّةَ العلمِ تحمِلُ على تعلُّمِهِ واتِّباعِهِ – وذلكَ هو الدِّينُ – وبُغضُهُ يَنهى عن تعلُّمِهِ واتِّباعِهِ ، وذلكَ هو الشَّقاءُ والضَّلالُ .

وأيضًا ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانهُ عليمٌ يُحِبُّ كلَّ عليمٍ، وإنَّما يَضَعُ علمَهُ عندَ من يحِبُّهُ ، فمَن أحبَّ العلمَ وأهلَهُ فقَد أحبَّ ما أحبَّ اللَّهُ ، وذلكَ ممَّا يُدانُ به .

* قولُه : « العلمُ يُكسِبُ العالِمَ الطَّاعَةَ في حياتِهِ وجَميلَ الذِّكرِ بَعدَ مماتِهِ » ؛ يُكسِبهُ ذلكَ ، أي : يجعلُهُ كَسبًا له ، ويُورِّثُهُ إيَّاهُ ، ويُقال : كَسَبَهُ ذلكَ عزًّا وطاعَةً وأَكسَبَهُ ؛ لُغتانِ[1]، ومنه حديثُ خَديجَةَ رضيَ اللَّهُ عنها : « إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتصدُقُ الحديثَ ، وتحملُ الكَلَّ ، وتكسِبُ المعدومَ[2] » ، رُوي بفتح التَّاء وضمِّها ، ومعناهُ : تُكسِبُ المالَ والغنى ، هذا هو الصَّوابُ ، وقالت طائفَةٌ : مَن رواهُ بضمِّها فذلكَ مِن : أكسَبهُ مالًا وعِزًّا ، ومَن رواهُ بفتحها ، فمعناهُ : تَكْسِبُ أنتَ المالَ المَعدومَ بمعرفتكَ وحِذْقِكَ بالتِّجارَةِ .

---

(١) انظر « القاموس المحيط » (ص ١٦٧) ، و « فتح الباري » (١ / ٢٤) .

(٢) رواه البخاري (رقم : ٣) ، ومسلم (١٦٠) عن عائشة .

وَمَعَاذَ اللَّهِ من هذا الفَهمِ ، وخديجَةُ أَجَلُّ قَدْرًا مِن تَكَلُّمِها بهذا في هذا المقام العظيم أن تقولَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ : أبشِر فواللَّهِ لا يخزيكَ اللَّهُ إنَّكَ تَكسِبُ الدِّرهمَ والدِّينارَ وتُحسنُ التِّجارَةَ !

ومثلُ هذه التَّحريفات إنَّما تُذْكَرُ لِئلَّا يُغترَّ بها في تَفسيرِ كلامِ اللَّهِ ورسولِهِ .

والمقصودُ أنَّ قولَهُ : « العلمَ يُكسِبُ العالِمَ الطَّاعَةَ في حياتِهِ » ؛ أي : يجعلُهُ مُطاعًا ؛ لأنَّ الحاجَةَ إلى العلمِ عامَّةٌ لكلِّ أحدٍ من المُلوكِ فَمَن دونهم ، فكُلُّ أحدٍ مُحتاجٌ إلى طاعَةِ العالِمِ ، فإنَّهُ يأمُرُ بطاعَةِ اللَّهِ ورسولِهِ ، فيجبُ على الخَلْقِ طاعتُهُ، قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أَطِيعوا اللهَ وأَطِيعوا الرَّسولَ وأُولِي الأمرِ منكُم ﴾ [النساء : ٥٩] .

وفُسِّرَ ﴿ أُولِي الأمرِ ﴾ بالعُلماءِ[1]:

قال ابنُ عبَّاسٍ : هم الفقهاءُ والعلماءُ أهلُ الدِّينِ ؛ الذينَ يُعلِّمونَ النَّاسَ دينَهم ، أوجَبَ اللَّهُ تعالى طاعتَهم .

وهذا قولُ مُجاهدٍ والحَسَنِ والضَّحَّاكِ ، وإحدى الرِّوايَتين عن الإمامِ أحمَد .

وفُسِّروا بالأُمراءِ ؛ وهو قولُ ابنِ زَيدٍ ، وإحدى الرِّوايتَين عن ابن عبَّاسٍ وأحمَدَ .

والآيَةُ تتناوَلُهما جميعًا ؛ فطاعَةُ وُلاةِ الأمرِ واجبَةٌ إذا أَمروا بطاعَةِ اللَّهِ ورسولِهِ، وطاعَةُ العلماءِ كذلك؛ **فالعالِمُ بما جاءَ به الرَّسولُ العاملُ به أَطوَعُ في أهلِ الأرضِ مِن كلِّ أحَدٍ** ؛ فإذا ماتَ أحيا اللَّهُ ذِكرَهُ ، ونَشرَ له في العالَمين أحسَنَ الثَّناءِ ، فالعالِمُ بَعدَ وفاتِهِ ميِّتٌ وهو حيٌّ بينَ النَّاسِ ، والجاهلُ في حياتِهِ

---

(١) انظر « زاد المسير » (٢ / ١١٦ - ١١٧) لابن الجوزي .

حيٌّ وهو ميْتٌ بين النَّاس ، كما قيل :

وفي الجَهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ وأجسامُهُم قبلَ القبورِ قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ من جُسومهم وليسَ لهم حتى النُّشورِ نشورُ

وقال آخَرُ :

قَد ماتَ قومٌ وما ماتَت مكارمُهم وعاشَ قومٌ وهم في النَّاسِ أمواتُ

وقال آخَر :

وما دامَ ذكرُ العَبدِ بالفَضلِ باقيا فذلكَ حيٌّ وهو في التُّربِ هالكُ

ومَن تأمَّلَ أحوالَ أئمَّةِ الإسلامِ - كأئمَّةِ الحَديثِ والفقهِ -كيفَ هُمْ تحتَ التُّرابِ وهم في العالَمينَ كأنَّهُم أحياءٌ بينهم لم يفقدوا منهم إلّا صُوَرَهم ، وإلّا فَذِكْرُهُم وحديثُهم والثَّناءُ عليهم غيرُ منقطعٍ ، **وهذه هي الحياةُ حقًّا** ، حتى عُدَّ ذلكَ حياةً ثانيَةً ،كما قال المُتنبِّي :

ذِكْرُ الفَتى عيشُهُ الثَّاني وحاجتُهُ ما فاتَهُ وفُضولُ العَيشِ أشغالُ

* قوله : « **وصَنيعَةُ المالِ تَزولُ بزوالِهِ** » ؛ يعني : أنَّ كلَّ صُنيعَةٍ صُنِعَت للرَّجلِ من أجلِ مالهِ ؛ من إكرامٍ ومحبَّةٍ وخدمَةٍ وقضاءِ حوائجَ وتَقديمٍ واحترامٍ وتوليَةٍ وغير ذلكَ ؛ فإنَّها إنَّما هي مراعاةٌ لمالهِ ، فإذا زالَ مالُهُ وفارَقَهُ زالت تلكَ الصَّنائعُ كلُّها ، حتى إنَّهُ ربَّما لا يُسَلِّمُ عليه مَن كانَ يدأبُ في خدمتهِ ويسعى في مصالحِهِ .

وَقَد أكثرَ النَّاسُ من هذا المعنى في أشعارِهم وكلامِهم ، وفي مثلِ قولهم : **مَن ودَّكَ لأمرٍ ملَّكَ عندَ انقضائهِ** ، قال بَعضُ العَرب :

وكانوا بنو عَمِّي يقولون مَرْحبا فلمَّا رَأَوْني مُعْسِرًا مات مَرْحَبُ

ومِن هذا ما قيلَ : إذا أكرمَكَ النَّاسُ لمالٍ أو سلطانٍ فلا يُعجبنَّكَ ذلكَ ؛ فإنَّ زوالَ الكرامَةِ بزوالهما ، ولكنْ ليُعْجِبْكَ إنْ أكرموكَ لعلمٍ أو دينٍ .

وهذا أمرٌ لا يُنكَرُ في النَّاسِ ؛ حتى إنَّهُم لَيُكرِمونَ الرَّجلَ لثيابهِ ، فإذا نَزَعها لم يَرَ منهم تلكَ الكرامَةَ وَهُوَ هو !

قال مالكٌ : بَلَغَني أنَّ أبا هرَيرَةَ دُعيَ إلى وليمَةٍ فأتى ، فحُجِبَ ، فرجعَ فلبسَ غيرَ تلكَ الثِّيابِ فأُدخلَ ، فلمَّا وُضعَ الطَّعامُ أدخَلَ كُمَّهُ في الطَّعامِ ! فَعُوتبَ في ذلكَ ، فقال : إنَّ هذه الثِّيابَ هي التي أُدخِلَت فهي تأكلُ . حكاهُ ابنُ مُزَينٍ الطُّلَيْطُلي في « كتابه » .

وهذا بخلافِ صَنيعَةِ العلمِ ؛ فإنَّها لا تزولُ أبدًا ، بل كُلُّ مآلها في زيادَةٍ ما لم يُسلَب ذلكَ العالِمُ علمَهُ .

وصنيعَةُ العلمِ والدِّينِ أعظمُ من صنيعَةِ المالِ ؛ لأنَّها تكونُ بالقَلبِ واللسانِ والجوارحِ ، فهي صادرَةٌ عن حُبٍّ وإكرامٍ لأجَلِ ما أودعَهُ اللَّهُ تعالى إيَّاهُ من علمهِ ، وفَضَّلَه به على غيرهِ .

وأيضًا ؛ فصنيعَةُ العلمِ تابعَةٌ لنفسِ العالِمِ وذاتِهِ، وصنيعَةُ المالِ تابعَةٌ لمالهِ المنفَصِلِ عنه .

وأيضًا ؛ فصنيعَةُ المالِ صَنيعَةُ مُعاوَضَةٍ ، وصَنيعَةُ العلمِ والدِّينِ صَنيعَةُ حُبٍّ وتقرُّبٍ وديانَةٍ .

وأيضًا ؛ فصنيعَةُ المالِ تكونُ مع البَرِّ والفاجرِ ، والمؤمنِ والكافرِ ، وأمَّا صَنيعَةُ العلمِ والدِّينِ فلا تكونُ إلَّا معَ أهلِ ذلكَ .

وقَد يُرادُ مِن هذا أيضًا معنىً آخرُ ؛ وهو أنَّ مَن اصْطَنَعْتَ عندهُ صَنيعَةً

بمالكَ إذا زالَ ذلك المالُ وفارَقَهُ عُدِمَتْ صَنيعَتُكَ عندهُ ، وأمَّا مَن اصطنَعْتَ إليهِ صَنيعَةَ علمٍ وهُدىً فإنَّ تلكَ الصَّنيعَةَ لا تُفارِقُهُ أبدًا ، بل تُرى في كلِّ وقتٍ كأنَّكَ أَسدَيْتَها إليه حينئذٍ .

* وقولُـه : « **أعيانُهم مفقـودَةٌ ، وأمثالهم في القلوب موجودةٌ** » ؛ المُرادُ بـ « أَمثالهم » صُوَرُهم العِلميَّةُ ، ووجودُهم المثاليُّ ، أَي : وإنْ فُقِدتْ ذواتُهم فَصُوَرُهم وأَمثالُهُم في القلوبِ لا تُفارقها ، وهذا هو الوجودُ الذِّهنيُّ العلميُّ ؛ لأنَّ محبَّةَ النَّاسِ لهم ، واقتداءَهُم بهم ، وانتفاعَهم بعلومهم ، يُوجِبُ أنْ لا يَزالوا نُصْبَ عيونهم ، وقِبْلَةَ قلوبهم ، فهم موجودونَ معهم وحاضرونَ عندهم ، وإنْ غابَت عنهم أعيانُهم ،كما قيل :

وَمِن عَجَـبٍ أنِّي أَحِـنُّ إليهِمُ   وأسألُ عَنْهُمْ مَن لقيتُ وهُمْ معي
وتطلُبُهم عَيني وهُم في سوادِها   ويشتاقُهم قلبي وهُـم بين أضلُعي

وقال آخَرُ :

ومِن عَجَبٍ أن يشكُوَ البُعدَ عاشقٌ   وهل غابَ عن قلبِ المُحبِّ حَبيبُ
خيالُكَ في عَيني وذِكْرُكَ في فمي   ومثْـــواكَ في قلبـــي فأينَ تَغيـبُ

* قولُه : « **آهِ ؛ إنَّ هاهنا عِلمًا – وأشارَ إلى صدرِهِ –** » ؛ يدلُّ على جوازِ إخبارِ الرَّجلِ بما عندَهُ من العلمِ والخَيرِ لِيُقْتَبَسَ منه ، ولِيُنتَفعَ به ، ومنه قولُ يوسُفَ الصِّدِّيق عليه السَّلام : ﴿ اِجعَلْني عَلى خزائنِ الأرضِ إِنِّي حَفيظٌ عليمٌ ﴾.

فمَن أخبرَ عن نفسهِ بمثل ذلكَ لِيُكثِّرَ به ما يُحِبُّهُ اللَّهُ ورسولُهُ من الخَيرِ فهو محمودٌ ، وهذا غَيرُ من أخبرَ بذلكَ ليتكثَّرَ به عندَ النَّاسِ ويتعظَّمَ ، وهذا يُجازيهِ اللَّهُ بمقتِ النَّاسِ له ، وصِغَرِهِ في عيونهم ، والأوَّلُ يُكبِّرُهُ في قلوبهم وعيونهم ،

وإنـمـا الأعمـالُ بالنِّيَّات .

وكذلكَ إذا أثنى الرَّجلُ على نفسهِ لِيَتخلَّصَ بذلكَ من مظلمَةٍ وشرٍّ ، أو ليَستوفي بذلك حقًّا له يحتاجُ فيه إلى التَّعريفِ بحالهِ ، أو ليقطَعَ عنه أطماعَ السِّفْلَةِ فيه ، أو عندَ خِطبتهِ إلى من لا يَعرفُ حالَهُ .

والأحسَنُ في هذا أن يُوكِّلَ من يُعرِّفُ به وبحالهِ ؛ **فإنَّ لسانَ ثناءِ المرءِ على نفسه قَصيرٌ** ، وهو في الغالبِ مذمومٌ لِمَا يقترنُ به من الفخرِ والتَّعاظمِ .

ثمَّ ذكرَ أصنافَ حمَلَةِ العلمِ الذينَ لا يصلُحونَ لحملهِ ، وهم أربعَةٌ فقال :

« إنَّ هاهُنا علمًا - وأَشارَ بيدهِ إلى صدرِه - لو أَصبتُ له حَمَلةً ، بل أَصبتَهُ لَقِنًا غيرَ مأمونٍ عليه ، يستعملُ آلَةَ الدينِ للدُّنيا ، يستظهرُ بحُجَجِ اللَّهِ على كتابِه وبنعمهِ على عباده ، أَو مُنقادًا لأَهلِ الحقِّ ، لا بصيرةَ له في أَحنائِه ، ينقدحُ الشكُّ في قلبِه بأَوَّلِ عارضٍ من شُبْهَةٍ ، لا ذا ولا ذاكَ ، أَو منهومًا للذَّاتِ ، سَلِسَ القِيادِ للشهواتِ ، أَو مُغرًى بجمعِ الأَموالِ والادِّخارِ ، ليسَ من دُعاةِ الدِّينِ ، أَقربُ شيءٍ شَبَهًا بهم الأَنعامُ السَّائمةُ ؛ لذلك يموتُ العلمُ بموتِ حامليهِ ، اللَّهمَّ بلىٰ : لن تَخْلُوَ الأَرضُ من قائمٍ للَّهِ بحُجَّتِه » .

أحدُهم : من ليسَ بمأمونٍ عليهِ ، وهو الذي أُوتيَ ذكاءً وحفظًا ، ولكنْ مع ذلكَ لم يُؤتَ زكاءً ، فهو يتَّخِذُ العلمَ - الذي هو آلَةُ الدِّينِ - آلَةَ الدُّنيا ، يستجلبُها به ، ويتوسَّلُ بالعلمِ إليها ، ويجعَلُ البضاعَةَ التي هي مُتَّجَرُ الآخرَةِ مُتَّجَرَ الدُّنيا ، وهذا غَيرُ أَمينٍ على ما حَمَلَهُ من العلمِ ، ولا يجعلُهُ اللَّهُ إمامًا فيه قطُّ ؛ فإنَّ الأَمينَ هو الذي لا غَرَضَ له ، ولا إرادَةَ لنفسهِ إلَّا اتِّباعُ الحقِّ ومُوافقتُهُ ، فلا يَدعو إلى قيَامِ رياستهِ ولا دنياهُ ، **وهذا الذي قَد اتَّخَذَ بضاعَةَ**

الآخرةِ ومُتَّجرَها مُتَّجَرًا للدُّنيا قَد خانَ اللَّهَ ، وخانَ عبادَهُ وخانَ دينَهُ ، فلهذا قال : « غيرَ مأمونٍ عليهِ » .

* وقولُه : « **يَستَظهِرُ بِحجَجِ اللَّهِ على كتابِه ، وبنعمهِ على عباده** » ؛ هذه صفحةُ هذا الخائنِ ؛ إذا أَنْعَمَ اللَّهُ عليه استظهرَ بتلك النعمةِ على النَّاسِ ، وإذا تعلَّمَ علمًا استَظهَرَ به على كتابِ اللَّهِ .

ومعنى استظهاره بالعلمِ على كتابِ اللَّهِ: تحكيمُه عليه وتقديمُه وإقامتُه دونَهُ.

وهذه حالُ كثيرٍ ممَّن يحصُلُ له علمٌ ؛ فإنَّهُ يَستَغني به ويَستَظهِرُ به ويُحَكِّمُهُ ، ويجعَلُ كتابَ اللَّهِ تَبَعًا له ، يقال : استظهَرَ فلانٌ على كذا بكذا ، أي : ظَهَرَ عليهِ به وتقدَّمَ ، فَجَعَلَهُ وراءَ ظهرِهِ .

وليسَتْ هذه حالَ العلماءِ ؛ **فإنَّ العالِمَ حقًّا يستظهِرُ بكتابِ اللَّهِ على كُلِّ ما سِواهُ** ، فيُقَدِّمُهُ ويُحكِّمُهُ ، ويجعلُه إمامَه ، ويجعلُهُ عِيارًا على غيرِهِ ، مُهيمِنًا عليهِ ،كما جَعَلَهُ اللَّهُ تعالى كذلكَ .

فالمُستظِهرُ به مُوفَّقٌ سعيدٌ ، والمُستظِهرُ عليه مخذولٌ شقيٌّ ، فمَن استَظهَرَ على الشيءِ فَقَد جعَلَهُ خَلْفَ ظَهرِهِ مُقدِّمًا عليهِ ما استظهَرَ به .

وهذا حالُ مَن اشتَغَلَ بغَيرِ كتابِ اللَّهِ عنهُ ، واكتَفى بغَيرِهِ منه ، وقدَّمَ غَيرَهُ وأخَّرَهُ .

الصِّنفُ الثَّاني مِن حملَةِ العلمِ : المُنقادُ له الَّذي لم يُثْلِجْ له صَدْرَهُ ، ولم يطمئنَّ به قلبُهُ ، بل هو ضعيفُ البَصيرَةِ فيه لكنَّهُ مُنقادٌ لأهلِهِ .

وهذه حالُ أَتْباعِ الحقِّ مِن مُقلِّديهم ، وهؤلاءِ - وإنْ كانوا على سبيلِ نجاةٍ - فليسوا من دعاةِ الدِّينِ ، وإنَّما هم مِن مُكثِّري سوادِ الجَيشِ ، لا من

أُمرائِهِ وفرسانِهِ .

والمُنقاد : منفعلٌ مِن قاده يقودُهُ ، وهو مُطاوِعُ الثَّاني ، وأصلُهُ مُنْقَيِدٌ ؛ كمكتَسَبٌ ، ثمَّ أُعِلَّت الياءُ ألفًا لحركتها بعَد الفتحَةِ ، فصارَ : منقادٌ ؛ تقولُ : قُدتهُ فانقادَ ، أي : لم يمتنعْ .

والأَحناءُ : جمعُ حِنْو ، بوزنِ عِلْمٍ ، وهي الجوانبُ والنَّواحي ، والعَربُ تقولُ : ازْجُرْ أَحناءَ طيركَ ، أي : أمسِك نواحي خِفَّتِكَ وطيشِكَ يمينًا وشمالًا وأمامًا وخلفًا .

قال لَبِيدٌ :

فقلتُ ازدَجِرْ أَحناءَ طَيرِكَ واعْلَمَنْ　　بأنَّكَ إنْ قدَّمتَ رِجلَكَ عاثِرُ

والطَّيرُ هنا : الخِفَّةُ والطَّيشُ .

* وقولُه : « **ينقدحُ الشكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارضٍ من شبهَةٍ** » ؛ هذا لضَعفِ علمِهِ وقلَّةِ بَصيرَتِهِ إذا ورَدَتْ على قلبِهِ أَدنى شُبهةٍ قَدحَتْ فيه الشكَّ والرِّيَبَ ، بخلافِ الرَّاسخِ في العلمِ ؛ لو وَرَدَتْ عليهِ من الشُّبَهِ بعَددِ أمواجِ البَحرِ ما أزالتْ يَقينَهُ ، ولا قَدَحَتْ فيه شكًّا ؛ لأنَّهُ قَد رَسَخَ في العلمِ فلا تَستفزُّهُ الشبهاتُ ، بل إذا وَرَدَتْ عليه ردَّها حَرَسُ العلمِ وجيشُهُ مغلولَةً ومغلوبةً .

والشبهَةُ : واردٌ يَرِدُ على القلبِ يحُولُ بينهُ وبينَ انكشافِ الحقِّ له ، فمتى باشرَ القلبُ حقيقَةَ العلمِ لم تُؤَثِّر تلكَ الشبهَةُ فيه ، بل يَقوى علمُهُ ويقينُهُ بردِّها ومعرفَةِ بطلانها ، ومتى لم يُباشِرْ حقيقَةَ العلمِ بالحَقِّ قلبُهُ قَدَحَت فيه الشكَّ بأوَّلِ وهلَةٍ ، فإنْ تَدارَكَها وإلَّا تَتابَعَتْ على قلبِهِ أمثالُها ، حتى يَصيرَ شاكًّا مرتابًا .

والقلبُ يتوارَدُهُ جيشانِ من الباطِلِ : جيشُ شهواتِ الغَيِّ ، وجَيشُ شُبُهاتِ

الباطلِ ؛ فأيُّما قلبٍ صَغا إليها ورَكَنَ إليها تشرَّبَها وامتلأَ بها فيَنضَحُ لسانُهُ وجوارِحُهُ بموجِبها ، فإنْ أُشْرِبَ شبهاتِ الباطلِ تفجَّرَتْ على لسانهِ الشكوكُ والشبهاتُ والإيراداتُ ، فيظنُّ الجاهلُ أنَّ ذلكَ لِسَعَةِ علمهِ ! وإنَّما ذلكَ مِن عَدَمِ علمهِ ويقينهِ[١].

وقال لي شيخُ الإسلامِ رضيَ اللَّهُ عنهُ - وقد جعَلْتُ أُورِدُ عليهِ إيرادًا بعدَ إيراد - : « **لا تجعَلْ قلبَكَ للإيراداتِ والشبهاتِ مثلَ السِّفِنْجَة ، فيتشرَّبَها ، فلا ينضحَ إلّا بها ، ولكنِ اجعَلْهُ كالزُّجاجَةِ المُصْمَتَةِ تمرُّ الشبهاتُ بظاهرِها ، ولا تَستقرُّ فيها ، فيراها بصفائهِ ، ويدفعُها بصلابتهِ ، وإلّا فإذا أَشْرَبْتَ قلبَكَ كلَّ شبهَةٍ تمرُّ عليها صارَ مَقَرًّا للشبهاتِ** »[٢] ، أو كما قالَ .

فما أعلمُ أنِّي انتفَعتُ بوصيَّةٍ في دفعِ الشبهاتِ كانتفاعي بذلك .

وإنَّما سُمِّيَتِ الشبهَةُ شُبهَةً لاشتباهِ الحقِّ بالباطلِ فيها ؛ فإنَّها تَلبسُ ثوبَ الحقِّ على جسمِ الباطلِ ، وأكثَرُ النَّاسِ أصحابُ حُسْنِ ظاهرٍ ، فينظرُ النَّاظرُ فيما أُلْبِسَتْهُ منَ اللباسِ فيعتقدُ صحَّتَها .

وأمَّا صاحبُ العلمِ واليَقينِ ؛ فإنَّهُ لا يغترُّ بذلكَ ، بل يُجاوِزُ نَظَرَهُ إلى باطِنها وما تَحتَ لباسها ، فينكشفُ له حقيقتُها ، ومثالُ هذا : الدرهم الزَّائفِ ؛ فإنَّهُ يغترُّ به الجاهلُ بالنَّقد نَظرًا إلى ما عليهِ مِن لباسِ الفضَّةِ ، والنَّاقدُ البَصيرُ يجاوزُ نَظَرَهُ إلى ما وراءَ ذلكَ فيطَّلعُ على زيفهِ .

فاللفظُ الحَسَنُ الفَصيحُ هو للشبهَةِ بمنزلَةِ اللباسِ من الفضَّةِ على الدِّرهم الزَّائفِ ، والمعنى كالنُّحاسِ الذي تحته .

---

(١) وهذا ما يحصلُ مع أهل البدع والانحراف ، كذاك الكوثريّ الهالك ، وذَيَّاك الحَسَّاف - كذّاب البلقاء ! - المخذول ! وشتّان - على ما فيهما - بينهما !

(٢) كلماتٌ تُكتب - لعظمتِها - بماء العيون ، فاحفَظْها .

وكم قَد قَتلَ هذا الاغترارُ مِن خَلْقٍ لا يُحصيهم إلّا اللَّهُ !

وإذا تأمَّلَ العاقلُ الفَطِنُ هذا القَدْرَ وتدبَّرهُ رأى أكثرَ النَّاسِ يَقْبَلُ المذهَبَ والمقالَةَ بلفظٍ ، ويردُّها بعينها بلفظٍ آخَرٍ(١).

وقَد رأيتُ أنا من هذا في كُتُبِ النَّاسِ ما شاءَ اللَّهُ !!

وكم رُدَّ مِنَ الحقِّ بتشنيعهِ بلباسٍ من اللفظِ قبيحٍ !

وفي مثل هذا قال أئمَّةُ السُّنَّةِ - منهم الإمامُ أحمَدُ وغيرُهُ - : لا نُزيلُ عن اللَّهِ صفَةً من صفاتهِ لأجلِ شناعَةٍ شُنِّعت ، فهؤلاءِ الجهميَّةُ يُسمُّونَ إثباتَ صفاتِ الكمالِ للَّهِ - من حياتهِ وعلمهِ وكلامهِ وسمعهِ وبصرهِ ، وسائرِ ما وَصَفَ به نفسَهُ - تشبيهًا وتجسيمًا ، ومَن أثبتَ ذلكَ مُشبِّهًا(٢) !

فلا يَنْفِرُ من هذا المعنى الحقِّ لأجلِ هذه التَّسميَةِ الباطلَةِ إلّا العقولُ الصَّغيرَةُ القاصرَةُ خفافيشُ البصائرِ !!

وكلُّ أَهلِ نِحْلَةٍ ومقالةٍ يكسونَ نِحْلَتَهم ومقالتَهم أحسَنَ ما يَقدِرونَ عليه من الألفاظِ ، ومقالَةَ مُخالفيهم أقبحَ ما يقدرونَ عليه من الألفاظِ .

ومَن رَزَقَهُ اللَّهُ بَصيرَةً فهو يكشفُ بها حقيقَةَ ما تحتَ تلكَ الألفاظِ من الحقِّ والباطلِ ، ولا يغترُّ باللفظِ ، كما قيلَ في هذا المعنى :

تقولُ هــذا جَنى النَّحلِ تمــدحُهُ وإنْ تشأ قلتَ ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ
مَدحًا وذمًّا وما جاوَزْتَ وَصْفَهُما والحقُّ قَد يَعتــريه سوءُ تَعبيرِ

فإذا أردتَ الاطِّلاعَ على كُنهِ المعنى : هل هو حقٌّ أو باطلٌ ؟ فجرِّدْهُ من لباسِ العبارَةِ ، وجرِّد قَلبَكَ مِن النَّفرَةِ والمَيلِ ، ثمَّ أعطِ النَّظَرَ حقَّهُ ، ناظرًا بعَينِ الإنصافِ ، ولا تكُن ممَّن ينظرُ في مقالَةِ أصحابهِ ومَن يُحَسِّنُ ظنَّهُ به نظرًا

(١) وليس هذا من منهجِ الحقِّ أَو سبيلِ أَهل الحقِّ .
(١) وهذا مِن ضلالات أَهل البدعِ والأَهواءِ قديمًا وحديثًا .

تامًّا بكلِّ قلبِهِ، ثمَّ ينظرُ في مقالَةِ خصومِهِ ومن يسيءُ ظنَّهُ به كنَظَرِ الشَّزَرِ والْمُلاحَظَةِ ، فالنَّاظرُ بعَينِ العَداوَةِ يَرى المحاسنَ مساوىءَ ، والنَّاظرُ بعَينِ المحبَّةِ عكسُهُ .

وما سَلِمَ من هذا إلّا مَن أرادَ اللَّهُ كرامَتَهُ وارتضاهُ لِقَبُولِ الحقِّ ، وقد قيلَ :

وعَينُ الرِّضا عَن كُلِّ عَيبٍ كليلَةٌ كما أنَّ عَينَ السُّخطِ تُبدي المساويا

وقال آخَرُ :

نَظَروا بعينِ عداوَةٍ لو أنَّها عينُ الرِّضا لاسْتَحْسَنُوا ما استَقبحوا

فإذا كانَ هذا في نَظَرِ العَينِ الذي يُدرِكُ المحسوساتِ ، ولا يتمكَّن من المُكابرَةِ فيها ، فما الظَّنُّ بنظَرِ القَلبِ الذي يُدرِكُ المعانيَ التي هي عُرْضَةُ المكابَرةِ ؟!

واللَّهُ المُستعانُ على معرفَةِ الحقِّ وقَبولِهِ ، ورَدِّ الباطلِ وعدمِ الاغترارِ بِهِ .

* وقولُه : « **بأوَّلِ عارضٍ من شُبهةٍ** »؛ هذا دليلٌ على ضَعفِ عقلِهِ ومعرفتِهِ ، إذ تُؤثِّرُ فيه البداآتُ وتستَفزُّه أَوائلُ الأمورِ ، بخلافِ الثَّابتِ التَّامِّ العاقلِ ، فإنَّهُ لا تستفزُّهُ البداآت ولا تُزعِجهُ وتُقْلِقُهُ ؛ فإنَّ الباطلَ له دهشةٌ وروعَةٌ في أوَّلِهِ ، فإذا ثَبتَ له القَلبُ رُدَّ على عَقِبيهِ .

واللَّهُ يُحِبُّ مِن عبدِهِ العلمَ والأناةَ، فلا يعجَلْ، بل يتثبَّتُ حتى يعلَمَ ويستَيقنَ ما ورَدَ عليهِ، ولا يعجلْ بأمرٍ من قبلِ استحكامِهِ ، فالعجلَةُ والطَّيشُ من الشيطان[1].

فمَن ثَبَتَ عندَ صدمَةِ البداآت استقبلَ أمرَهُ بعلمٍ وحَزْمٍ ، ومَن لم يثبتْ لها استقبله بعجلةٍ وطَيْشٍ ، وعاقِبتُهُ النَّدامةُ ، وعاقبةُ الأَوَّل حَمْدُ أمرِهِ .

ولكنَّ للأَوّلِ آفَةً متى قُرِنَت بالحزم والعزمِ نجا منها ؛ وهي الفَوتُ ، فإنَّهُ لا

(١) وقد وَرَدَ في هذا المعنى حديثٌ صحيحٌ ، انظر - له - تعليقي على « تمييز المحظوظين من المحرومين » (ص ٢٦٩) للمعصوميّ ، ورسالتي « التحذيرات » (ص ١٠) .

يُخافُ منَ التَّثبيتِ إلّا الفَوتُ ، فإذا اقترَنَ به العَزمُ والحزمُ تمَّ أمرُهُ .

ولهذا في الدُّعاءِ الذي رواهُ الإمامُ أحمدُ والنَّسائيُّ[1] عن النَّبيِّ ﷺ : « اللَّهمَّ إنِّي أسأَلُكَ الثَّباتَ في الأمرِ ، والعَزيمَةَ على الرُّشد » .

وهاتانِ الكلمتانِ هما جِمَاعُ الفلاحِ ، وما أُتيَ العَبدُ إلّا مِن تَضْييعِهِما أو تَضْييعِ أحدِهما ، فما أُتِيَ أحدٌ إلّا من بابِ العَجَلَةِ والطَّيشِ واستفزازِ البداآتِ له ، أو من بابِ التَّهاوُنِ والتماوُتِ وتضييعِ الفُرصَةِ بعدَ مُواتاتِها ، فإذا حَصَلَ الثَّباتُ أوَّلًا والعَزْمُ ثانيًا أفلَحَ كلَّ الفلاح ، واللَّهُ وليُّ التَّوفيق .

الصِّنفُ الثَّالث : رجلٌ نَهْمَتُهُ في نيلِ لذَّتهِ ، فهو مُنقادٌ لداعي الشهوَةِ أينَ كانَ ، ولا يَنَالُ درجَةَ وراثَةِ النُّبوَّةِ مع ذلكَ ، ولا ينالُ العلمَ إلّا بهجرِ اللذَّاتِ وتَطليقِ الرَّاحَةِ .

قال مُسلم في « صحيحهِ »[2] : قال يَحيى بن أبي كثيرٍ : لا يُنالُ العلمُ براحَةِ الجسمِ .

وقال إبراهيم الحَرْبيّ : أجمعَ عُقلاءُ كلِّ أمَّةٍ أنَّ النَّعيمَ لا يُدرَكُ بالنَّعَمِ ، ومَن آثَرَ الرَّاحَةَ فاتَتْه الراحةُ ، فما لصاحبِ اللذَّاتِ وما لدرجَةِ وراثَةِ الأنبياءِ !

فدَعْ عَنكَ الكتابَةَ لستَ منها ولو سَوَّدتَ وَجهَكَ بالمِدادِ

---

(١) رواه أحمد (٤ / ١٢٥) والنَّسائي (٣ / ٥٤) والترمذي (٣٤٠٧) والطَّبراني في « الكبير » (٧١٧٥) والحاكم (١٩٧٤) عن شدَّاد بن أوس .

وسندُه فيه جهالةٌ ، كما قال شيخُنا الألباني في « تمام المنّة » (ص ٢٢٥) .

ولكنْ للحديث طرقٌ كثيرةٌ عن شدّاد استوعبها الحافظُ الجليلُ أبو نُعيم الأصبهاني في « حلية الأولياء » (١ / ٢٦٥ - ٢٦٧) يجزمُ النَّاقدُ معها بثبوت الحديث .

(٢) (٦١٢) (١٧٥) .

فإنَّ العلمَ صناعَةُ القَلبِ وشُغلُهُ ، فما لم يَتفرَّغ لصناعَتهِ وشُغلِهِ لم ينلْها ، وله وجهَةٌ واحدَةٌ ؛ فإذا وُجِّهَتْ وجهَتُهُ إلى اللذَّاتِ والشهواتِ انصَرفَت عن العلمِ ، ومَا لم تغلب لذَّةُ إدراكِهِ للعلمِ وشهوتِهِ على لذَّةِ جسمهِ وشهوَةِ نفسهِ لم يَنلْ درجَةَ العلمِ أبدًا ، فإذا صارَت شهوتُهُ في العلمِ ولذَّتُهُ في إدراكِهِ رُجيَ له أن يكونَ من جُملَةِ أهلِهِ .

ولذَّةُ العلمِ لذَّةٌ عقليَّةٌ روحانيَّةٌ من جنسِ لذَّةِ الملائكَةِ ، ولذَّةُ شهواتِ الأكلِ والشرابِ والنِّكاحِ لذَّةٌ حيوانيَّةٌ يُشارِكُ الإنسانَ فيها الحيوانُ ، ولذَّةُ الشرِّ والظُّلمِ والفَسادِ والعلوِّ في الأرضِ شيطانيَّةٌ يشارِكُ صاحبَها فيها إبليسُ وجنودُهُ .

وسائرُ اللذَّاتِ تَبطُلُ بمفارَقَةِ الرُّوحِ البَدَنَ إلّا لذَّةُ العلمِ والإيمانِ ، فإنَّها تكمُلُ بعدَ المُفارَقَةِ ؛ لأنَّ البَدَنَ وشواغلَهُ كانَ يَنقُصُها ويُقلِّلُها ويحجِبُها ، فإذا انطَوَت الرُّوحُ عن البَدَن التذَّت لذَّةً كاملَةً بما حصَّلتْهُ من العلمِ النَّافعِ والعَمَلِ الصَّالحِ .

فَمَن طَلَبَ اللذَّةَ العُظمى وآثَرَ النَّعيمَ المُقيمَ فهو في العلمِ والإيمانِ اللذينِ بهما كمالُ سعادَةِ الإنسانِ .

وأيضًا ؛ فإنَّ تلكَ اللذَّاتِ سريعَةُ الزَّوالِ ، وإذا انقَضَت أعقَبَت همًّا وغمًّا ، وألَمًا يَحتاجُ صاحبُها أن يُداويَهُ بمثلها دَفعًا لألمهِ ، وربَّما كانَ معاودتُهُ لها مُؤلِمًا لهُ كريهًا إليهِ ، لكنْ يحملُهُ عليهِ مداواةُ ذلكَ الغَمِّ والهمِّ .

فأينَ هذا من لذَّةِ العلمِ ولذَّةِ الإيمانِ باللَّهِ ومحبَّتهِ والإقبالِ عليهِ والتَّنعُّمِ بذكرِهِ ؟!

فهذه هي اللذَّةُ الحقيقيَّةُ .

الصِّنفُ الرَّابعُ : مَن حِرصُهُ وهِمَّتُهُ في جمعِ الأموالِ وتثميرِها وادِّخارِها ، فقَد صارَت لذَّتُهُ في ذلكَ ، وفَنِيَ بها عمَّا سواهُ ، فلا يَرى شيئًا أطيَبَ لهُ ممَّا هو فيه ، فَأينَ هذا ودرجَةُ العلمِ ؟!

فهؤلاءِ الأصنافُ الأربعَةُ ليسوا من دعاةِ الدِّينِ ولا من أئمَّةِ العلمِ ولا مِن طَلَبتِهِ الصَّادقينَ في طلبهِ[1]، **ومَن تعلَّقَ منهم بشيءٍ منهُ فهو من المُتسلِّقينَ عليه ، المتشبِّهينَ بحملتِهِ وأهلِهِ** ، المدَّعينَ لوصالِهِ ، المبتوتينَ من حبالِهِ .

وفتنَةُ هؤلاءِ فتنَةٌ لكلِّ مفتونٍ ؛ فإنَّ النَّاسَ يتشبَّهونَ بهم لِمَا يظنُّونَ عندهم من العلمِ ، ويقولونَ : لسنا خَيرًا منهم ولا نَرغبُ بأنفسنا عنهم ! فهم حجَّةٌ لكلِّ مفتونٍ .

ولهذا قال فيهم بعضُ الصَّحابَةِ الكرامِ : احذَروا فتنةَ العالِمِ الفاجرِ والعابِدِ الجاهلِ ؛ فإنَّ فتنتَهما فتنَةٌ لكلِّ مفتونٍ[2] .

* وقولُه : « **أقرَبُ شَبَهًا بهم الأنعامُ السَّائمَةُ** » ؛ وهذا التَّشبيهُ مأخوذٌ من قولِه تعالى : ﴿ إنْ هُم إلَّا كالأنعامِ بَلِ هُم أضلُّ سبيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] ، فما اقْتَصَرَ سبحانهُ على تشبيهِهِم بالأنعامِ حتى جعلَهم أضلَّ سبيلًا منهم .

والسَّائمَةُ : الرَّاعيَةُ .

وشبَّهَ أميرُ المؤمنينَ هؤلاءِ بها لأنَّ همَّتَهم في رَعْيِ الدُّنيا وحُطامها ، واللَّهُ تعالى يُشبِّهُ أهلَ الجهلِ والغيِّ تارَةً بالأنعامِ وتارَةً بالحُمُرِ ؛ وهذا تَشبيهٌ لمَن تعلَّمَ علمًا ولم يَعقِلْهُ ولم يعمَل به ، فهو كالحمارِ الذي يحملُ أسفارًا ، وتارَةً

---

(١) وإنْ حاوَلوا الظهورَ بذلك ، أو التلبُّسَ بصورة أَهلِهِ !

(٢) انظر ما سيأتي (ص ٢١٥) .

بالكَلبِ ؛ وهذا لمَن انسَلَخَ عن العلمِ وأخلَدَ إلى الشهواتِ والهَوى .

* وقولُه كذلكَ : « **يموتُ العلمُ بموتِ حاملِهِ** » ؛ هذا مِن قول النَّبيِّ ﷺ في حديثِ عبداللَّهِ بن عَمْرٍو وعائشَةَ رضيَ اللَّهُ عنهم وغيرهما : « إنَّ اللَّهَ لا يَقبضُ العلمَ انتزاعًا يَنتزعُهُ من صدورِ الرِّجالِ ، ولكنْ يقبضُ العلمَ بَقبضِ العلماءِ ؛ فإذا لم يَبْقَ عالمٌ اتَّخذَ النَّاسُ رؤساءَ جُهَّالًا ، فسُئلوا فَأَفْتَوْا بغَيرِ علمٍ فَضَلُّوا وأضَلُّوا » رواهُ البخاري في « صحيحهِ[1] » .

فذهابُ العلمِ إنَّما هو بذهابِ العلماءِ .

قال ابنُ مسعودٍ يومَ ماتَ عمر رضيَ اللَّهُ عنهُ : إنِّي لأحسبُ تسعَةَ أعشارِ العلمِ اليَومَ قَد ذَهَبَ .

وقال عمر رضيَ اللَّهُ عنهُ : موتُ ألفِ عابدٍ أهوَنُ من موتِ عالِمٍ بَصيرٍ بحلالِ اللَّهِ وحرامِهِ .

* وقولُه : « **اللهمَّ ؛ بلى لن تَخلوَ الأرضُ من مُجتَهدٍ قائمٍ بحجَجِ اللَّهِ** » ؛ ويدلُّ عليهِ الحديثُ الصَّحيحُ عن النَّبيِّ ﷺ : « لا تَزالُ طائفَةٌ من أمَّتي على الحقِّ لا يَضرُّهُم من خَذَلَهُم ولا مَنْ خالَفَهم حتى يأتيَ أمرُ اللَّهِ وهم على ذلكَ[2] » .

---

(١) (برقم : ١٠٠ و ٧٣٠٧) .
ورواه - أيضًا - مسلمٌ (٢٦٧٣) .
وفصَّلَ الحافظُ في « الفتح » (١٣ / ٢٨٥) الكلامَ على رواية عائشة .
وكذا هو مرويٌّ عن أبي هُريرةَ وغيرهِ .

(٢) رواه البخاري (٣٦٤١) ، ومسلم (١٩٢٠) عن مُعاويةَ رضي اللَّه عنه .
وفي البابِ عن عِدَّةٍ من الصَّحابةِ .

ويدُلُّ عليهِ أيضًا ما رواهُ التِّرمذي[١] عن قُتَيبَة : حدَّثنا حمَّادُ بن يَحيى الأَبَحُّ ، عن ثابتٍ ، عن أنسٍ ، قال : قال رسولُ اللّهِ ﷺ : « مَثَلُ أمَّتي مثلُ المطَرِ لا يُدرى أوَّلهُ خَيرٌ أم آخِرهُ » ، قال : هذا حديثٌ حسنٌ غَريبٌ ، وَيُروى عن عبدالرَّحمن بن مَهدي أنَّهُ كانَ يُثبِّت حمَّاد بن يَحيى الأبحَّ ، وكانَ يقولُ : هو من شيوخِنا[٢] .

وفي البابِ عن عمَّارٍ وعبداللّهِ بن عَمرو[٣] .

فلو لم يكُن في أواخرِ الأُمَّةِ قائمٌ بحُجَجِ اللّهِ مُجتَهدٌ لم يكونوا مَوصوفينَ بهذه الخَيريَّة .

---

(١) (برقم : ٢٨٦٩) وحسَّنه ، كما قال المؤلِّف رحمه اللّه .

ورواه – من الطريق نفسِه – أَحمدُ (٣ / ١٣٠ و ١٤٣) ، والطَّيالسي (٢٠٢٣) ، وأَبو الشيخ في « الأَمثال » (٣٣٠) ، والقُضاعي في « مسند الشهاب » (١٣٥١) .

وحمَّادٌ الأَبحُّ فيه ضعفٌ يسيرٌ .

ورواه البزَّار في « مسنده » (٣ / ٣٢٠ – زوائده) من حديث عمران بن حُصَين ، وقال : لا نعلمُه يُروى عن النَّبي ﷺ بإسنادٍ أَحسنَ من هذا .

وصرَّح الهيثمي في « المجمع » (١٠ / ٦٨) بحُسن سنده .

وقال الحافظُ في « الفتح » (٧ / ٤ – ٥) : « وهو حديثٌ حسن ، له طرق قد يرتقي بها إلى الصحَّة » .

نقله شيخُنا الأَلباني في « الصحيحة » (٥ / ٣٥٩) ، ثمَّ قال : « بل هو صحيحٌ يقينًا » .

وانظر تتمَّة التخريج فيه .

وراجع « كشف المتواري » (ص ٢٢ – ٢٧) بقلمي .

(٢) وهذا من تمام كلام الترمذي في « سننه » (٤ / ٢٢٩) .

وأَصل الكلام عن البخاري في « تاريخه الكبير » (٣ / رقم : ٩٧) .

(٣) انظر مصادر التخريج سابقة الذكر .

وأيضًا ؛ فإنَّ هذه الأُمَّةَ أكمَلُ الأُمَمِ ، وخَيرُ أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ ، ونبيُّها خاتَمُ النَّبيِّينَ لا نَبيَّ بَعدَهُ ، فجعَلَ اللَّهُ العلماءَ فيها كلَّما هَلَكَ عالمٌ خَلَفَهُ عالمٌ لئلَّا تُطمَسَ معالمُ الدِّين وتَخفى أعلامُهُ .

وكانَ بنو إسرائيلَ كلَّما هَلَكَ فيهم نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ ، فكانَت تَسوسُهُم الأنبياءُ[1]، والعلماءُ لهذه الأُمَّةِ كالأنبياءِ في بني إسرائيلَ[2].

وأيضًا ؛ ففي الحديثِ الآخَرِ : « يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عدولُهُ يَنفونَ عنهُ تَحريفَ الغالينَ ، وانتحالَ المُبطلينَ ، وتأويلَ الجاهلين[3] » .

وهذا يدُلُّ على أنَّهُ لا يَزالُ محمولًا في القرونِ قَرنًا بعَدَ قرنٍ .

وفي « صحيحِ أبي حاتمٍ »[4] من حَديثِ الخَوْلاني : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لا يَزالُ اللَّهُ يَغرسُ في هذا الدِّينِ غَرسًا يستعملُهم في طاعتِهِ » ، وغرسُ اللَّهِ هم أهلُ العلمِ والعملِ ، فلو خَلَت الأرضُ من عالِمٍ خَلَت من غَرسِ اللَّهِ .

---

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) عن أبي هُريرة .

(٢) وفي ذلك حديثٌ اشتهرَ على الألسنةِ ، ولا أَصلَ له ، فانظر « التذكرة » (ص ١٦٧) للزركشي ، « المقاصد » (٧٠٢) للسَّخاوي ؛ « الدرر المنتثرة » (٢٩٣) للسيوطي .

وانظر « السلسلة الضعيفة » (٤٦٦) لشيخنا الألباني .

(٣) حديثٌ حسن ، ولي في تخريجهِ « جُزءٌ » مُفْرَدٌ .

(٤) يعني « صحيح ابن حِبّان » ، وهو فيه (برقم : ٣٢٦) ، وأخرجه كذلك في « الثقات » (٤ / ٧٧) .

ورواه أحمد (٤ / ٢٠٠)، وابن ماجه (٨)، وابن عدي في « الكامل » (٢ / ٥٨٣)، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٩ / ٦١) من طريق الجرّاح بن سليم البَهْراني عن بكر بن زُرعة عن أبي عِنَبَةَ الخولانيّ .

وصحّح إسناده البوصيري في « الزوائد » (١ / ٤٤) !

وحسْبُه أَنْ يكون حسَنًا لحالِ بكر بن زُرْعة فقد وثَّقه ابنُ حبّان، وروى عنه ثلاثةٌ من الثقات .

* وقولُه : « لكَيلا تبطُلَ حُججُ اللَّهِ وبيِّناتُهُ » ؛ أي : لكَيلا تَذهَبَ من بينِ أَيدي النَّاسِ ، وتبطُلَ مِن صُدورِهم ، وإلّا فالبُطلانُ مُحالٌ عليها ؛ لأنَّها ملزومُ ما يَستحيلُ عليهِ البُطلانُ .

فإنْ قيلَ : فما الفَرقُ بينَ الحُججِ والبيِّناتِ[1] ؟

قيلَ : الفرقُ بينهما أنَّ الحُجَجَ هي الأدلَّةُ العِلْميَّةُ التي يعقلُها القلبُ وتُسمَعُ بالأُذُنِ ؛ قال تعالى في مُناظَرَةِ إبراهيمَ لقومِهِ وتبيينِ بطلانِ ما هم عليهِ بالدَّليلِ العلميِّ : ﴿ وتلكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبراهيمَ على قومِهِ نَرفَعُ درجاتٍ مَن نشاءُ ﴾ [الأنعام : ٨٣]، قال ابنُ زَيدٍ : بعلمِ الحجَّةِ ، وقال تعالى : ﴿ فإنْ حاجُّوكَ فَقُل أسلَمتُ وجهيَ للهِ ومَن اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، وقالَ تعالى : ﴿ والَّذينَ يحاجُّونَ في اللهِ من بَعدِ ما استُجِيبَ لهُ حجَّتُهُم داحضَةٌ عندَ ربِّهم ﴾ [الشورى : ١٦] .

والحُجَّةُ هي اسمٌ لِمَا يُحتجُّ به من حقٍّ وباطلٍ ؛ قال تعالى : ﴿ لئلّا يكونَ للنَّاسِ عليكُم حُجَّةٌ إلّا الَّذينَ ظَلَموا منهم ﴾ [البقرة : ١٥٠]، فإنَّهُم يحتجُّونَ عليكُم بحجَّةٍ باطلَةٍ : ﴿ فلا تَخشَوْهُم واخشَوْني ﴾ [البقرة : ١٥٠]، وقال تعالى : ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُم إلّا أن قالوا ائتوا بآبائنا إنْ كُنتُم صادقين ﴾ [الجاثية : ٢٥] .

والحُجَّةُ المضافَةُ إلى اللَّهِ هي الحقُّ ، وقَد تكونُ الحجَّةُ بمعنى المُخاصَمَةِ ، ومنه قولُهُ تعالى : ﴿ فلذلكَ فادْعُ واستَقِم كما أُمِرتَ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم وقُل آمَنتُ بما أنزَلَ اللهُ من كتابٍ وأُمِرتُ لِأَعدِلَ بينكُم اللهُ ربُّنا

---

(١) تنبيهٌ حسَنٌ جميلٌ .

وربُّكم لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُم لا حُجَّةَ بَيْنَنا وبَينَكُم ﴾ [الشورى : ١٥] ، أي : قَد وَضَحَ الحقُّ واستبانَ وظَهَرَ ، فلا خُصومَةَ بيننا بَعدَ ظهورِهِ ولا مُجادَلَةَ ؛ **فإنَّ الجدالَ شريعَةٌ موضوعَةٌ للتَّعاونِ على إظهارِ الحقِّ**(١) ، فإذا ظَهَرَ الحقُّ ولم يبقَ به خفاءٌ فلا فائدَةَ في الخُصومَةِ .

والجدالُ على بَصيرَةٍ مُخاصَمةُ المُنكرِ ، ومُجادلتُهُ عَناءٌ لا غَنَاءَ فيهِ .

هذا معنى هذه الآيَة .

وقَد يقعُ في وَهَمِ كثيرٍ من الجهّالِ أنَّ الشريعَةَ لا احتجاجَ فيها ، وأنَّ المُرْسَلَ بها ﷺ لم يكُن يحتجُّ على خصومِهِ ولا يُجادلهم !

ويظنُّ جُهَّالُ المنطقيّين وفُروخُ اليونانِ أنَّ الشريعَةَ خطابٌ للجمهورِ لا احتجاجَ فيها ، وأنَّ الأنبياءَ دَعَوا الجمهورَ بطريقِ الخطابَةِ ، والحُجَجُ للخواصِّ وهم أهلُ البرهانِ ! يعنونَ نفوسَهم ومَن سلَكَ طريقتَهم !!

وكلُّ هذا من جهلهم بالشريعَة والقرآنِ ؛ فإنَّ القرآنَ مملوءٌ من الحُجَجِ والأدلَّةِ والبراهينِ في مسائلِ التَّوحيدِ وإثباتِ الصَّانعِ والمعادِ وإرسالِ الرُّسلِ وحدوثِ العالم ، فلا يَذكُرُ المتكلِّمونَ وغيرُهم دليلًا صحيحًا على ذلكَ إلّا وهو في القرآنِ بأَحسنِ عبارَةٍ ، وأوضحِ بيانٍ ، وأتمِّ معنىً ، وأبعَدهِ عن الإيرادات والأَسْوِلَةِ .

وقَد اعترَفَ بهذا حُذَّاقُ المتكلِّمينَ من المتقدِّمينَ والمتأخِّرينَ :

قال أبو حامدٍ في أوَّلِ « الإحياء »(٢) : فإنْ قلتَ : فَلِمَ لم تُورد في أقسامِ

---

(١) لا للغَلَبةِ ، ولا لإظهار العَضَلات (!) ولا لاتّخاذ مواقفَ !!
(٢) (١ / ٢٢) .

العلمِ الكلامَ والفَلسفَةَ وتُبيّن أنَّهما مذمومانِ أو ممدوحانِ ؟

فاعلم أنَّ حاصلَ ما يشتملُ عليهِ الكلامُ من الأدلَّةِ التي ينتفعُ بها فالقرآنُ والأخبارُ مُشتملةٌ عليهِ ، وما خَرَجَ عنهما فهو إمَّا مجادَلةٌ مذمومَةٌ - وهي من البدَع كما سيأتي بيانُهُ - ، وإمَّا مُشاغَبَةٌ بالتَّعلُّقِ بمُناقضاتِ الفِرَق ، وتَطويلٌ بنَقلِ المقالاتِ التي أكثرُها تُرُّهاتٌ وهِذْياناتٌ تَزدريها الطِّباعُ وتمجُّها الأسماعُ ، وبعضها خوضٌ فيما لا يتعلَّقُ بالدِّينِ ، ولم يكن شيءٌ منه مألوفًا في العَصرِ الأوَّلِ ، ولكنْ تَغيَّرَ الآنَ حُكْمُهُ إذ حدَثت البدَعُ الصَّارفَةُ عن مُقتَضى القرآنِ والسُّنَّةِ ؛ فَلَفَّقَتْ لها شُبهًا ، ورتَّبَتْ لها كلامًا مؤلَّفًا ، فصارَ ذلكَ المحظورُ بحُكمِ الضَّرورَةِ مأذونًا فيه !!

وقال الرَّازي في كتابِهِ « أقسام اللذَّات »[1]: لَقَد تأمَّلتُ الكتبَ الكلاميَّةَ والمناهجَ الفلسفيَّةَ؛ فما رأيتُها تَروي غليلًا ولا تَشفي عليلًا، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقَةَ القرآنِ، إقْرأْ في الإثباتِ : ﴿ إليهِ يَصعَدُ الكلمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠]، ﴿ الرَّحمنُ على العَرشِ استَوى ﴾ [طه : ٥]، وأقْرأْ في النَّفي : ﴿ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ﴾ [الشورى : ١١]، **ومَن جرَّبَ مثلَ تَجربتي عرفَ مثلَ معرفتي .**

وهذا الذي أشارَ إليهِ بحسبِ ما فُتِحَ له من دلالَةِ القرآنِ بطَريقِ الخَبَرِ ، وإلَّا فدلالتُهُ البرهانيَّةُ العقليَّةُ التي يشيرُ إليها ويُرشدُ إليها - فتكونُ دليلًا سمعيًّا عقليًّا - أمرٌ تَميَّزَ به القرآنُ ، وصارَ العالِمُ به من الرَّاسخينَ في العلم ، **وهو العلمُ الذي يطمئنُّ إليهِ القلبُ ، وتسكُنُ عندَهُ النَّفسُ ، ويَزكو به العقلُ ، وتَستَنيرُ به البَصيرَةُ ، وتَقوى به الحُجَّةُ .**

---

(١) انظر « درء تعارض العقل والنقل » (١ / ١٦٠) وتعليق محقِّقه الدكتور محمَّد رشاد سالم - رحمه الله - عليه .

ولا سَبيلَ لأحَدٍ من العالَمينَ إلى قَطعِ ما حاجَّ به ، بل مَن خاصَمَ به فَلَجَتْ[1] حُجَّتُهُ ، وكَسَرَ شُبهَةَ خَصمِهِ ، وبه فُتِحَت القلوبُ ، واستُجِيبَ للَّهِ ورسولِهِ .

ولكنَّ أهلَ هذا العلمِ لا تكادُ الأعصارُ تسمحُ منهم إلّا بالواحدِ بعدَ الواحد[2] .

فدلالةُ القرآنِ سمعيَّةٌ عقليَّةٌ قَطعيَّةٌ يقينيَّةٌ[3]، لا تَعترضُها الشبهاتُ ، ولا تَتداولُها الاحتمالاتُ ، ولا يَنصرفُ القلبُ عنها بَعد فهمها أبدًا .

وقالَ بَعضُ المتكلِّمينَ : أفنَيتُ عمري في الكلامِ أطلبُ الدَّليلَ ، وإذا أنا لا أزدادُ إلّا بُعدًا عن الدَّليلِ ، فَرجَعتُ إلى القرآنِ أتدبَّرُهُ وأتفكَّرُ فيه ، وإذا أنا بالدَّليلِ حقًّا معي وأنا لا أشعُرُ به[4]، فقلتُ : واللّهِ ما مَثَلي إلّا كما قال القائلُ :

ومنَ العجائبِ والعجــائبُ جَمَّةٌ   قربُ الحَبيبِ وما إليهِ وصولُ
كالعِيسِ في البَيداءِ يقتُلُها الظَّما   والماءُ فوقَ ظُهورِها مَحمـولُ

قال : فلمَّا رَجعتُ إلى القرآنِ إذا هو الحُكمُ والدَّليلُ ، ورأيتُ فيه من أدلَّةِ اللَّهِ وحُجَجِهِ وبراهينِهِ وبيِّناتِهِ ما لو جُمعَ كلُّ حقٍّ قاله المتكلِّمونَ في كتبهم لكانَت سورَةٌ من سوَرِ القرآنِ وافيَةً بمضمونهِ ؛ مع حسنِ البيانِ ، وفصاحَةِ اللفظِ ، وتَطبيقِ المُفصَّلِ ، وحُسنِ الاحترازِ ، والتَّنبيهِ على مواقعِ الشُّبَهِ ، والإرشادِ إلى جوابها ، وإذا هو كما قيلَ - بل فوقَ ما قيلَ - :

---

(١) يُقال : فَلَجَ بحُجّتهِ : أَحسنَ الإدْلاءَ بها ، فغلبَ خصمَه .

(٢) والتاريخُ شاهِد !

(٣) وليست وهميَّةً أو ظنّيَّةً ؛ كما يحلو لبعض عَقْلانِيِّي العصر الحاضر وصفُها !!

(٤) فليأْخذ درسًا مِن أَسْلافهم (التائبين) خَلَفُهُم التائهون !! ولكنْ .. لا حياةَ لمن تُنادي ...

كَفى وشفَى ما في الفُؤادِ فلَم يَدَع لِذي أرَبٍ في القَولِ جدًّا ولا هزلا

وجَعَلَتْ جيوشُ الكلامِ بَعدَ ذلكَ تَفِدُ إليَّ كما كانَت، وتَتزاحمُ في صَدري ، ولا يَأْذنُ لها القَلبُ بالدُّخولِ فيه، ولا تَلقى منه إقبالًا ولا قَبولًا فترجعُ على أدبارها .

والـمقصودُ أنَّ القرآنَ مملوءٌ بالاحتجاجِ ، وفيه جميعُ أَنواعِ الأدلَّةِ والأقيسَةِ الصَّحيحَةِ .

وأمَرَ اللَّهُ تَعالى رسولَهُ ﷺ فيه بإقامَةِ الحُجَّةِ والمُجادَلَةِ ؛ فقال تعالى : ﴿ وجادِلْهُم بالَّتي هيَ أحسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال : ﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالَّتي هيَ أحسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

وهذه مُناظراتُ القرآنِ معَ الكفَّارِ موجودَةٌ فيه ، وهذه مُناظراتُ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأصحابِهِ لخصومهم ، وإقامَةُ الحُجَجِ عليهم ، لا يُنكِرُ ذلكَ إلّا جاهلٌ مُفْرِطٌ في الجَهلِ .

والمقصودُ : الفرقُ بينَ الحُجَجِ والبيِّناتِ ، فنقولُ : الحُجَجُ : الأدلَّةُ العلميَّةُ ، والبيِّناتُ : جمعُ بيِّنَةٍ ؛ وهي صفَةٌ في الأصلِ ، يقالُ : آيَةٌ بيِّنَةٌ ، وحُجَّةٌ بيِّنَةٌ .

والبيِّنةُ : اسمٌ لكلِّ ما يُبينُ الحقَّ من علامَةٍ منصوبَةٍ أو أمارَةٍ أو دليلٍ علميٍّ، قال تعالى : ﴿ لَقَد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ وأنزَلنا معهم الكتابَ والميزانَ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فالبيِّناتُ : الآياتُ التي أقامها اللَّهُ دِلالَةً على صِدقِهِم من المُعجزاتِ ، والكتابُ هو الدَّعوَةُ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذي بِبكَّةَ مُبارَكًا وهدىً للعالَـمينَ فيهِ آياتٌ بيِّناتٌ مقامُ إبراهيمَ ﴾ [آل عمران : ٩٧]، ومقامُ إبراهيمَ آيةٌ جُزئيَّةٌ مَرْئيَّةٌ بالأبصارِ ، وهو من آياتِ اللّهِ الموجودَةِ في العالـم .

ومنهُ قولُ موسى لِفرعَونَ وقومِهِ : ﴿ قَد جِئتُكُم ببيِّنَةٍ مِن ربِّكم فأَرسِلْ معي بني إسرائيل قالَ إنْ كنتَ جئتَ بآيَةٍ فَأْتِ بها إنْ كنتَ منَ الصَّادقِينَ فألقى عصاه ﴾ [الأعراف : ١٠٥]، وكانَ إلقاءُ العصا وانقلابُها حيَّةً هو البيِّنَةَ .

* وقولُه : « **أُولئكَ الأقلُّونَ عَدَدًا ، الأعظَمونَ عندَ اللّهِ قَدْرًا** » ؛ يعني : هذا الصِّنفُ من النَّاسِ أقلُّ الـخَلقِ عَددًا ، وهذا سببُ غُربتهم ؛ فإنَّهُم قليلونَ في النَّاسِ ، والنَّاسُ على خلافِ طريقتِهِم ، فلهم نَبَأٌ وللنَّاسِ نَبَأٌ، قال النَّبيُّ ﷺ : « بدأَ الإِسلامُ غَريبًا وسيعودُ غَريبًا كما بدأَ فطوبى للغرباء »[1]: فالمؤمنونَ قليلٌ في النَّاسِ ، والعلماءُ قليلٌ في المؤمنينَ ، وهؤلاءِ قليلٌ في العلماءِ .

وإيَّاكَ أن تَغترَّ بما يَغترُّ به الـجاهلونَ فإنَّهُم يقولونَ : لو كانَ هؤلاءِ على حقٍّ لـم يكونوا أقلَّ النَّاسِ عَددًا[2] ، والنَّاسُ على خلافِهِم !!

فاعلَـم أنَّ هؤلاءِ هم النَّاسُ ، ومَن خالفهم فَمُتَشَبِّهون بالنَّاسِ ، وليسوا بناسٍ ، فما النَّاسُ إلّا أهلُ الـحقِّ وإنْ كانوا أقلَّهُم عَددًا .

قالَ ابنُ مَسعودٍ : لا يَكُن أحدُكُم إمَّعَةً - يعني ؛ يقول : أنا مع النَّاسِ - ليوطِّنْ أحدُكُم نفسَهُ على أن يؤمنَ ولو كفَرَ النَّاسُ[3] .

---

(١) رواه مسلم (١٤٥) عن أَبي هُريرة .

(٢) وهي شُبهةُ العاجزين في كلِّ العصور .

(٣) رواه - مختصرًا - ابنُ عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٥) ، والفَسَوي في « المعرفة والتاريخ » (٣ / ٣٩٩) بسنَدٍ حَسَن .

وقَد ذمَّ سبحانهُ الأكثرينَ في غيرِ موضعٍ ، كقولِه : ﴿ وإنْ تُطِعْ أكثَرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوكَ عَن سبيلِ اللهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦]، وقال : ﴿ وما أكثَرُ النَّاسِ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾ [يوسف : ١٠٣]، وقال اللَّهُ تعالى: ﴿ وقليلٌ من عباديَ الشكور ﴾ [سبأ : ١٣] ، وقال : ﴿ وإِنَّ كثيرًا من الخُلَطاء ليَبغي بعضُهم على بَعضٍ إلّا الَّذينَ آمَنوا وعملوا الصَّالحاتِ وقليلٌ ما هم ﴾ [ص : ٢٤] .

وقال بعضُ العارفينَ : انفرادُكَ في طريقِ طلبِكَ دليلٌ على صِدقِ الطَّلب .

مُتْ بداءِ الهَـوى وإلّا فخـاطِرْ واطرُق الحيَّ والعيـونُ نواظـرْ
لا تَخفْ وحشَةَ الطَّريقِ إذا سِر تَ وكُن في خِفارَةِ الحقِّ سائرْ

* وقولُهُ : « **بهم يَدفَعُ اللَّهُ عن حُجَجِهِ حتى يؤدُّوها إلى نُظَرائهم ويزرعوها في قلوبِ أشباههم** » ؛ وهذا لأنَّ اللَّهَ سبحانهُ ضَمِنَ حِفظَ حُجَجِهِ وبيِّناتِهِ ، وأخبَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أنَّهُ : « لا تَزالُ طائفَةٌ من أُمَّتِهِ على الحقِّ لا يضرُّهُم من خَذَلهم ولا مَن خالفهم إلى قيامِ السَّاعَة »(١).

فلا يزالُ غَرسُ اللَّهِ الذينَ غَرسهم في دينهِ يغرِسونَ العلمَ في قلوبِ مَن أهَّلَهُم اللَّهُ لذلكَ وارتَضاهُم ، فيكونوا ورثَةً لهم كما كانوا هم ورَثَةً لمَن قبلَهُم ، فلا تَنقطعُ حُجَجُ اللَّهِ والقائمُ بها منَ الأرضِ .

وفي الأثَرِ المشهورِ : « لا يَزالُ اللَّهُ يَغرسُ في هذا الدِّينِ غَرسًا يستعملُهم بطاعتهِ »(٢).

---

(١) تقدّم تخريجه قبل صَفَحاتٍ .

(٢) حديثٌ مرفوعٌ حسنٌ ، وقد تقدّم تخريجه قريبًا .

وكانَ من دعاءِ بَعضِ مَن تَقدَّمَ : اللهمَّ اجعَلني من غَرسِكَ الذينَ تستعملُهم بطاعتكَ .

ولهذا ما أقامَ اللَّهُ لهذا الدِّينِ مَن يحفظُهُ ثمَّ قبضَهُ إليهِ إلّا وقَد زَرَعَ ما علَّمَهُ منَ العلمِ والحكمَة ؛ إمَّا في قلوبِ أمثالِهِ ، وإمَّا في كُتُبٍ ينتفعُ بها النَّاسُ بعدَهُ .

وبهذا وغيرِهِ فَضَلَ العُلماءُ العُبَّادَ ؛ فإنَّ العالِمَ إذا زَرَعَ علمَه عندَ غيرِهِ ثمَّ ماتَ جَرى عليهِ أجرُهُ وبقي لهُ ذِكْرُهُ ، وهو عمرٌ ثانٍ وحياةٌ أُخرى ، وذلكَ أحقُّ ما تنافَسَ فيه المُتنافِسونَ ورَغبَ فيه الرَّاغبون .

* وقولُه : « هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقَةِ الأمرِ ، فاسْتَلانُوا ما استوعَرَهُ المُتْرَفونَ وأَنِسُوا ممّا استوحَش منه الجاهلون » :

الهجومُ على الرَّجلِ : الدُّخولُ عليهِ بلا استئذانٍ .

ولمّا كانَت طريقُ الآخِرَة وَعِرَةً على أكثَرِ الخَلقِ لمخالفتها لشهواتهم ومُباينتها لإراداتِهم ومألوفاتهم قلَّ سالكوها ، وزهّدهم فيها قلَّةُ علمهم - أو عَدَمُهُ - بحقيقَةِ الأمرِ وعاقبةِ العبادِ ومصيرِهم وما هُيِّئوا له وهُيِّئَ لهم، فقلَّ علمُهم بذلكَ، واسْتلانوا مركبَ الشهوَةِ والهوى على مركبِ الإخلاص والتَّقوى، وتوعَّرَتْ عليهم الطَّريقُ، وبَعُدَت عليهم الشُّقَّةُ ، وصَعُبَ عليهم مُرتقى عقابها وهبوطُ أوديتها وسلوكُ شعابها ؛ فأخلدوا إلى الدَّعَةِ والرَّاحَةِ ، وآثَروا العاجلَ على الآجلِ ، وقالوا : عيشُنا اليومَ نَقدٌ وموعودُنا نَسيئةٌ !! فنظروا إلى عاجلِ الدُّنيا ، وأغمضوا العيونَ عن آجلها ، ووقفوا مع ظاهرها ، ولم يتأمَّلوا باطنَها ، وذاقوا حلاوَةَ مباديها ، وغابَ عنهم مرارَةُ عواقبها ، ودرَّ لهم ثَديُها فطابَ لهم الارتضاعُ، واشتَغلوا به عن التَّفكُّرِ في الفطامِ ومرارَةِ الانقطاعِ ، وقال مُغترُّهُم باللَّهِ وجاحدُهم

لعظمتِهِ وربوبيَّتِهِ مُتمثِّلًا في ذلك :

خُذ ما تَراهُ ودَعِ شيئًا سمعتَ به ....

وأمَّا القائمونَ للَّهِ بحُجَّتِهِ خُلفاءُ نبيِّهِ في أُمَّتِهِ فإنَّهُم لكمالِ علمهم وقوَّتِهِ نَفذَ بهم إلى حقيقَةِ الأمرِ ، وهجمَ بهم عليهِ ، فعايَنوا ببصائرهم ما عَشِيَتْ عنهُ بصائرُ الجاهلينَ ، فاطمأنَّت قلوبُهم به ، وعملوا على الوصولِ إليهِ لِمَا باشَرَها من روحِ اليَقينِ ، ورُفِعَ لهم عَلَمُ السَّعادَةِ فشمَّروا إليهِ ، وأسمعهم مُنادي الإيمانِ النِّداءَ فاستَبَقوا إليهِ ، واستَيقَنَتْ أنفسُهم ما وَعَدَهم به ربُّهُم ؛ فَزَهِدوا فيما سواهُ ، ورغبوا فيما لديهِ .

علموا أنَّ الدُّنيا دارُ ممَرٍّ ومنزلُ عُبورٍ لا مَقعَدَ حُبورٍ ، وأنَّها خيالُ طيفٍ أو سحابَةُ صَيفٍ ، وأنَّ مَن فيها كراكبٍ قالَ[1] تحتَ ظلِّ شجرةٍ ثمَّ راحَ عنها وتَركها[2]، وتيقَّنوا أنَّها أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلٍ :

.... إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدَعُ

وأنَّ واصِفَها صَدَقَ في وصفها إذ يقولُ :

أرى أشقياءَ النَّاسِ لا يَسْأَمونَها ... على أنَّهُم فيــها عُراةٌ وجُــوَّعُ

أراها وإنْ كانَت تُحَـــبُّ فإنَّها ... سحابَةُ صَيفٍ عَن قليلٍ تَقَشَّعُ

فترحَّلَتْ عن قلوبهم مُدبرَةً كما ترحَّلت عن أَهلِها مُولِّيَةً ، وأقبلَت الآخرَةُ إلى قلوبهم مُسرعَةً كما أسرَعَت إلى الخَلقِ مُقبلَةً ، فامتَطَوْا ظهورَ العزائمِ ، وهجروا لذَّةَ المنام – وما ليلُ المحبِّ بنائمٍ – ، علموا طولَ الطَّريقِ وقلَّة المُقامِ

(١) مِن القيلولة ؛ وهي استراحةُ نصفِ النَّهار .

(٢) وفي هذا المعنى حديثٌ صحيح ، يُنظر تخريجُه في « السلسلة الصحيحة » (٤٣٨) و (٤٣٩) لشيخنا العلّامةِ المحدّث محمد ناصر الدين الألباني حفظه اللهُ ونَفَعَ بهِ .

في منزلِ التَّزوُّدِ فسارعوا في الجَهَازِ ، وجدَّ بهم السَّيرُ إلى منازل الأَحباب ، فَقَطَعُوا المراحلَ ، وطَوَوْا المَفَاوِزَ .

وهذا كلُّهُ من **ثمراتِ اليقين** ؛ فإنَّ القلبَ إذا استيقَنَ ما أصابَهُ من كرامَةِ اللّهِ وما أعدَّ لأوليائهِ - بحيثُ كأنَّهُ ينظرُ إليهِ من وراءِ حجابِ الدُّنيا ويعلمُ أنَّهُ إذا زالَ الحجابُ رأى ذلكَ عيانًا - زالت عنهُ الوَحْشَةُ التي يجدُها المتخلِّفونَ ، وَلَانَ له ما استوعَرَهُ المُتْرَفونَ .

وهذه المرتبةُ هي **أوَّلُ مراتبِ اليقين** - وهي علمُهُ وتيقُّنُه - وهي انكشافُ المعلومِ للقَلبِ ، بحيثُ يُشاهدهُ ولا يَشُكُّ فيه كانكشافِ المرئيِّ للبَصرِ .

ثمَّ يَليها **المرتبَةُ الثَّانيَةُ** ؛ وهي مرتبَةُ عينِ اليَقينِ ، ونسبتُها إلى العَينِ كنسبَةِ الأوَّلِ إلى القَلبِ .

ثمَّ يليها **المرتبَةُ الثَّالثَةُ** ؛ وهي حقُّ اليَقينِ ، وهي مباشَرَةُ المعلومِ وإدراكُهُ الإدراكَ التَّامَّ :

فالأُولى كعلمكَ بأنَّ في هذا الوادي ماءً ، والثَّانيَةُ كرؤيتهِ ، والثَّالثَةُ كالشربِ منه .

ومِن هذا ما يُروى[1] في حديث حارثَةَ، وقول النَّبيِّ ﷺ : « كيفَ

---

(١) أَخرجه البزَّار (٣٢)، والعُقيلي في « الضعفاء » (٤ / ٤٥٥) من حديث أَنسٍ ، وصدَّره المصنِّفُ - كما ترى - بصيغة التمريض، وحكم الذهبي في « الميزان » (٣ / ٢٨) ببطلانِه .

وانْظُر « الإصابة » (٢ / ١٧٤ - ١٧٧) للحافظ ابن حجر ، و « تخريج الأَربعين السُّلَميَّة » (رقم : ١٠) للسَّخاوي - بتحقيقي .

ومَالَ شيخُنا في تعليقِه على « الإيمان » (١١٥) - لابن أَبي شيبة - إلى تضعيفِهِ .

وللحديثِ طُرُقٌ وشواهدُ عدَّةٌ، لم أَفرغْ لجَمْعِها ودراستِها، فعسىٰ أَنْ يُيَسِّرَ اللّهُ ذلك قريبًا .

أصبحتَ يا حارثةُ ؟ » قال : أصبحتُ مؤمنًا حقًّا ، قال : « إنَّ لكلِّ قولٍ حقيقةً ، فما حقيقةُ إيمانكَ ؟ » قال : عَزَفَتْ نَفسي عن الدُّنيا وشهواتِها ، فأسهَرتُ لَيلي وأظمأْتُ نَهاري ، وكأنّي أنظرُ إلى عَرشِ ربِّي بارزًا ، وكأنّي أنظُرُ إلى أهلِ الجنَّةِ يتزاوَرونَ فيها ، وإلى أهلِ النَّارِ يتعاوَوْنَ فيها » ، فقال : « عبدٌ نوَّرَ اللَّهُ قلبَهُ » .

فهذا هو هجومُ العلمِ بصاحبِهِ على حقيقَةِ الأمرِ ، ومَن وصلَ إلى هذا استلانَ ما يستوعِرُهُ المُترفُونَ ، وأَنِسَ مما يستوحشُ منه الجاهلونَ .

ومَن لم يَثْبُتْ قَدَمُ إيمانِهِ على هذه الدَّرجَة فهو إيمانٌ ضَعيفٌ، وعلامَةُ هذا انشراحُ الصَّدرِ لمنازلِ الإيمانِ وانفساحُهُ، وطمأنينَةُ القلبِ لأمرِ اللَّهِ، والإنابَةُ إلى ذكرِ اللَّهِ ومحبَّتِهِ والفَرحِ بلقائِهِ والتَّجافي عَن دارِ الغرور .

وهذه هي الحالُ التي كانَت تحصلُ للصَّحابَةِ رضي اللَّه عنهم عندَ النَّبي ﷺ إذا ذكَّرهم الجنَّةَ والنَّارَ ؛كما في التِّرمذي[1] وغيرِهِ من حديثِ الجُريري ، عن أبي عُثمان النَّهْديِّ ، عن حَنظَلَةَ الأسديِّ ، - وكانَ من كُتَّابِ النَّبيِّ ﷺ - أنَّهُ مرَّ بأبي بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ وهو يبكي ، فقال : ما لكَ يا حنظَلَةُ ؟ فقال : نافَقَ حنظَلَةُ يا أبا بكرٍ ، نكونُ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرنا بالجنَّةِ والنَّارِ كأنَّها رأيُ عَينٍ ، فإذا رَجَعْنا إلى الأزواجِ والضَّيعَةِ نَسينا كثيرًا ، قال : فواللَّهِ إنَّا لكذلكَ ، انطَلِقْ بنا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فانطلَقنا ، فلمَّا رآهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ قال : ما لكَ يا حنظَلَةُ ؟! قال : نافَقَ حنظَلَةُ يا رَسولَ اللَّهِ ! نكونُ عندَكَ تُذكِّرنا بالنَّارِ والجنَّةِ كأنَّها رأيُ عينٍ ، فإذا رَجَعنا عافَسْنا الأزواجَ والضَّيعَةَ ونسينا كثيرًا ،

---

(١) (برقم : ٢٥١٤) .

وهو في « صحيح مسلم » (٢٧٥٠) .

قال : فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لو تَدُومون على الحالِ التي تقومون بها من عندي لصافَحَتْكُم الملائكَةُ في مجالسِكُم وفي طُرُقكم وعلى فُرُشكُم ، ولكنْ يا حَنظَلَةُ ساعَةً وساعَةً » ، قال التِّرمذيُّ : هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

وفي التِّرمذي أيضًا نحوُهُ من حديثِ أبي هُريرَة[1] .

والمقصودُ أنَّ الذي يهجمُ بالقَلْبِ على حقيقَةِ الإيمانِ ويُلَيِّنُ له ما يستَوعِرُهُ غيرُه ، ويُؤْنِسُهُ بما يَستَوحِشُ منه سواهُ العلمُ التَّامُّ والحُبُّ الخالصُ .

والحُبُّ تَبَعٌ للعلمِ يَقوى بقوَّتِهِ ، ويضعُفُ بضعفِهِ ، والمُحِبُّ لا يَستوعِرُ طريقًا تُوصِلُهُ إلى محبوبِهِ ولا يَستَوحشُ فيها .

* وقولُهُ : « **أُولئكَ خُلَفاءُ اللَّهِ في الأرضِ ودعاتُهُ إلى دينِهِ** » ؛ هذا حُجَّةُ أحدِ القَولينِ في أنَّهُ يجوزُ أن يُقالَ : فلانٌ خليفَةُ اللَّهِ في أرضِهِ .

واحتجَّ أصحابُهُ[2] أيضًا بقولِه تعالى للملائكَة : ﴿ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، واحتَجُّوا بقولِه تعالى : ﴿ وهوَ الَّذي جَعَلَكُم خلائفَ الأرضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وهذا خِطابٌ لنوعِ الإنسانِ ، وبقولِه تعالى : ﴿ أمَّن يُجيبُ المُضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السُّوءَ ويجعلُكُم خلفاءَ الأرضِ ﴾ [النحل : ٦٢] .

وبقولِ موسى لقومه : ﴿ عَسى ربُّكُم أَنْ يُهلِكَ عدوَّكُم ويستخلفَكُم في الأرضِ فيَنظرَ كيفَ تعمَلونَ ﴾ [الأعرافِ : ١٢٩] .

وبقَولِ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ مُمكِّنٌ لكُم في الأرضِ ، ومُستخلِفُكُم فيها ،

(١) رواه الترمذي (٢٥٢٦) وضعَّفه .
وهو حسنٌ بما قبلَه .
(٢) أي : أَصحاب القول بالجواز .

فناظِرٌ كيفَ تعملون ، فاتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساء »[٢].

وَمَنعَتْ طائفَةٌ هذا الإطلاقَ ، وقالت : لا يُقالُ لأحدٍ : إنَّهُ خليفَةُ اللَّهِ ؛ فإنَّ الخَليفَةَ إنَّما يكونُ عمَّن يَغيبُ ويخْلُفُهُ غيرُهُ ، واللَّهُ تعالى شاهِدٌ غيرُ غائبٍ ، قريبٌ غيرُ بَعيدٍ ، راءٍ وسامعٌ ، فَمُحالٌ أن يَخْلُفَهُ غيرُهُ ، بل هو سبحانهُ الذي يَخْلُفُ عبدَهُ المؤمنَ فيكونَ خليفَتَهُ ؛ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في حديث الدجَّال : « إنْ يخرجْ وأنا فيكُم فأَنا حجيجُهُ دونَكُم ، وإنْ يخرُجْ ولستُ فيكُم فامرؤٌ حجيجُ نَفسهِ ، واللَّهُ خليفَتي على كلِّ مؤمنٍ »، والحديثُ في « الصَّحيح »[١] .

وفي « صحيح مُسلم »[٢] أيضًا من حديثِ عبداللَّهِ بن عُمَرَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ يقولُ إذا سافَرَ : « اللهمَّ أنتَ الصَّاحبُ في السَّفَر والخليفَةُ في الأهلِ ... » الحديث .

وفي « الصَّحيح »[٣] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « اللهمَّ اغفرْ لأبي سلمَة وارفَعْ درجَتَهُ في المَهْدِيِّين واخلُفْهُ في أهلهِ » .

فاللَّهُ تعالى هو خليفَةُ العَبدِ لأنَّ العَبدَ يموتُ فيحتاجُ إلى مَن يخْلُفُهُ في أهلهِ .

قالوا : ولهذا أنكَرَ الصدِّيقُ رضيَ اللَّهُ عنهُ على مَن قال لهُ : يا خَليفَةَ اللَّهِ ! قال : لستُ بخليفَةِ اللَّهِ ، ولكنْ خليفَةُ رسولِ اللَّهِ ، وحَسْبي ذلك[٤].

---

(١) هذه روايةٌ بالمعنى ، والحديثُ - بلفظه الصحيح - مرويٌّ في « صحيح مُسلم » (٢٧٤٢) عن أبي سعيد الخُدْريِّ .

(٢) « صحيح مُسلم » (٢١٧٣) عن النَّواس بن سمعان .

(٣) (١٣٤٢) .

(٤) رواه مُسلم (٩٢٠) عن أُمِّ سَلَمة .

(٤) أخرجه أحمد (٥٩) و (٦٤) ، وابن سعد (٣ / ١٨٣) ، بسندٍ فيه انقطاعٌ . =

قالوا : وأمَّا قولُهُ تعالى : ﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠]، فلا خلافَ أنَّ المرادَ به آدمُ وذريَّتُهُ .

وجمهورُ أهلِ التَّفسيرِ [١] من السَّلَفِ والخَلَفِ على أنَّهُ جَعَلَهُ خليفَةً عمَّن كانَ قبلَهُ في الأرضِ .

وأمَّا قولُهُ تعالى : ﴿ وهوَ الَّذي جعَلكُم خلائفَ الأرضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، فليسَ المرادُ به خلائفَ عن اللَّهُ ، وإنَّما المُرادُ بِهِ أنَّهُ جعَلكُم يَخْلُفُ بعضُكُم بَعضًا ، فكلَّما هَلَكَ قرنٌ خَلَفَهُ قَرنٌ إلى آخرِ الدَّهرِ .

وأمَّا قولُ موسى لقومه : ﴿ ويَسْتَخلفَكُم في الأرضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩]، فليسَ ذلكَ استخلافًا عنهُ ، وإنَّما هو استخلافٌ عن فرعونَ وقومِهِ ؛ أهلكَهُم وجعَلَ قومَ موسى خُلفاءَ مِن بَعدِهم .

وكذا قولُ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ مُستخِلفُكُم في الأرضِ »[٢]، أي : من الأُمَم التي تهلكُ وتكونونَ أنتُم خُلفاءَ من بعدهم .

قلتُ : إنْ أُرِيدَ بالإضافَةِ إلى اللَّهِ أنَّهُ خليفَةٌ عنهُ فالصَّوابُ قولُ الطَّائفَةِ المانعَةِ منها .

وإنْ أُرِيدَ بالإضافَةِ أنَّ اللَّهَ استخلفَهُ عن غَيرِهِ ممَّن كانَ قبلَهُ فهذا لا يمتنعُ

= وقد ثبت من طرق عند الحاكم في « المستدرك » (٣ / ٧٩ - ٨٠) أنَّ الصحابة كانوا يُنادونه بِـ : « يا خليفةَ رسول اللّه » .

وانْظُر « السلسلة الضعيفة » (١ / ١٩٧ - الطبعة الجديدة) وتعليق شيخنا عليه .

(١) انظر « تفسير الطبري » (١ / ١٩٩) ، و « تفسير البغوي » (١ / ٦١) ، و « تفسير ابن كثير » (١ / ١٠٦) .

(٢) تقدَّم تخريجُه .

فيه الإضافَةُ ؛ وحقيقتُها خليفَةُ اللَّهِ الذي جعلَهُ اللَّهُ خَلَفًا عن غيرِهِ .

وبهذا يخرجُ الجوابُ عن قولِ أميرِ المؤمنين : « أُولئكَ خلفاءُ اللَّهِ في أَرْضِهِ » .

فإنْ قيلَ : هذا لا مَدْحَ فيهِ ؛ لأنَّ هذا الاستخلافَ عامٌّ في الأُمَّةِ ، وخِلافَةُ اللَّهِ التي ذَكَرَها أميرُ المؤمنين خاصَّةٌ بخواصِّ الخَلقِ !

ومعلومٌ أنَّ كلَّ الخَلْقِ عبادٌ لهُ ، فخُلفاءُ الأَرضِ كالعِبادِ في قولِهِ : ﴿ والله بَصيرٌ بالعبادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠]، ﴿ وما الله يريدُ ظُلمًا للعبادِ ﴾ [غافر : ٣١]، وخلفاءُ اللَّهِ كعبادِ اللهِ في قولِهِ : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢]، ونظائرِهِ .

وحقيقَةُ اللفظَةِ أنَّ الخليفَةَ هو الذي يَخْلُفُ الذَّاهِبَ ، أي : يجيءُ بعدَهُ ؛ يقال : خلفَ فلانٌ فلانًا ، وأَصْلُهُ خليف بغَيرِ هاءٍ ؛ لأنَّها فعيلٌ بمعنى فاعل ؛ كالعليمِ والقَديرِ ، فدخَلَت التَّاءُ للمبالَغَةِ في الوَصفِ كراويةٍ وعلَّامَةٍ .

ولهذا جُمِعَ جَمْعَ فَعيل، فقيلَ : خُلفاءُ، كشريف وشرفاء، وكريم وكرماء .

ومَن راعى لفظَهُ بعدَ دخولِ التَّاءِ عليه جَمَعَهُ على فعائلَ ، فقال : خلائفَ ؛ كعقيلَة وعقائلَ ، وظريفَة وظرائفَ ، وكلاهما ورَدَ به القرآنُ .

هذا قولُ جماعَةٍ منَ النُّحاةِ .

والصَّوابُ أنَّ التَّاءَ إنَّما دخَلَت فيها للعَدلِ عن الوَصفِ إلى الاسمِ ؛ فإنَّ الكلمَةَ صفَةٌ في الأصلِ ، ثمَّ أُجرِيَت مجرى الأسماء ، فأُلْحِقَت التَّاءُ لذلك ، كما قالوا : نَطيحَةٌ بالتَّاءِ ، فإذا أجروها صفَةً قالوا : شاةٌ نَطيحٌ ، كما يقولونَ : كفٌّ خَضِيبٌ ؛ وإلَّا فلا معنى للمبالغة في (خليفة) حتى تلحقَها تاءُ المبالغة ،

واللَّه أَعلمُ .

* وقولُه : « ودعاتُه إلى دينِهِ » ؛ الدّعاةُ : جمعُ داعٍ ، كقاضٍ وقُضاةٍ ، ورامٍ ورُماةٍ ، وإضافتُهم إلى اللَّهِ للاختصاصِ ، أي : الدُّعاةُ المخصوصونَ به ، الذينَ يَدْعُونَ إلى دينهِ وعبادتهِ ومعرفتهِ ومحبَّتهِ ، وهؤلاءِ هم خواصُّ خَلْقِ اللَّهِ وأفضلُهم عندَ اللَّهِ منزلَةً وأعلاهُم قَدرًا .

يدُلُّ على ذلكَ الوجهِ التَّالي :

○ **الوجهُ الثامن والمِئة ؛ [بين العلم والدعوة] :**

وهو قولُهُ تعالى : ﴿ ومَن أحسَنُ قَولًا مِّمَّن دعا إلى اللهِ وعَمِلَ صالحًا وقالَ إنَّني منَ المُسلمينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

قال الحَسنُ : هو المؤمنُ أجابَ اللَّهَ في دَعوتهِ ، ودعا النَّاسَ إلى ما أجابَ اللَّهَ فيهِ من دعوتهِ، وعملَ صالحًا في إجابتهِ[1]، فهذا حَبيبُ اللَّهِ، هذا وليُّ اللَّهِ .

فمقامُ الدَّعوَةِ إلى اللَّهِ أفضلُ مقاماتِ العَبدِ، قال تعالى: ﴿ وأنَّهُ لـمَّا قامَ عَبدُ اللهِ يَدْعوه كادوا يكونونَ عليهِ لِبَدًا ﴾ [الجنّ : ١٩]، وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ والمَوعظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهم بالتي هيَ أحسنُ ﴾ [النحل : ١٢٥]، جَعَلَ سبحانَهُ مراتبَ الدَّعوَةِ بحَسبِ مراتبِ الخَلقِ :

فالمُستجيبُ القابلُ الذكيُّ الذي لا يعاندُ الحقَّ ولا يأباهُ يُدعى بطريقِ الحكمَةِ .

---

(١) فات هذا الموضعُ من كلام ابن القيِّم على هذه الآيةِ - ومعه مواضعُ أُخَرُ - الأَخَ يُسري السيِّد محمَّد في جَمْعِهِ اللَّطيفِ الطيِّب لِـ « بدائعَ التَّفسيرَ » عن ابن القيِّم ، فانظر (٤ / ١٠٣) منه .

والقابلُ الذي عندَهُ نوعُ غفلَةٍ وتأخُّرٍ يُدعى بالمَوعظَةِ الحسَنَةِ ، وهي الأمرُ والنَّهيُ المقرونُ بالرَّغبَةِ والرَّهبةِ .

والمُعانِدُ الجاحِدُ يُجادَلُ بالتي هيَ أحسنُ .

هذا هو الصَّحيحُ في معنى هذه الآيَةِ ، لا ما يَزعُمُ أَسِيرُ منطقِ اليونانِ أنَّ الحِكمَةَ قياسُ البُرهانِ ، وهو دَعوَةُ الخواصِّ !!

والموعظَةُ الحسَنَةُ قياسُ الخطابَةِ ، وهو دَعوَةُ العوامِّ !!

والمُجادلَةُ بالتي هي أحسَنُ القياسُ الجَدَليُّ ؛ وهو ردُّ شَغَبِ المُشاغِبِ بقياسٍ جَدَليٍّ مُسلَّمِ المقدِّماتِ !!

وهذا باطلٌ ، وهو مبنيٌّ على أُصولِ الفَلسَفَةِ ، وهو مُنافٍ لأُصولِ المسلمينَ وقواعدِ الدِّينِ من وجوهٍ كثيرةٍ ليسَ هذا موضعَ ذكرِها .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل هذهِ سَبيلي أدعو إلى اللهِ على بَصيرَةٍ أنا ومَنِ اتَّبَعني ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

قال الفَرَّاءُ وجماعةٌ : ﴿ ومَنِ اتَّبعني ﴾ معطوفٌ على الضَّمير في ﴿ أدعو ﴾ ، يَعني : ومَن اتَّبعني يَدعو إلى اللَّهِ كما أدعو ، وهذا قولُ الكَلْبي ؛ قال : حقٌّ على كلِّ من اتَّبعَهُ أن يدعُوَ إلى ما دعا إليهِ ويُذَكِّرَ بالقرآنِ والموعظَةِ ، ويقوىٰ هذا القَولُ من وجوهٍ كثيرَةٍ .

قال ابنُ الأنباريِّ : ويجوزُ أن يتمَّ الكلامُ عندَ قولِهِ : ﴿ أدعو إلى اللهِ ﴾، ثمَّ يبتدىءُ بقولِهِ : ﴿ على بَصيرَةٍ أنا ومَن اتَّبعني ﴾؛ فيكونُ الكلامُ على قولِهِ جملتين، أخبَرَ في أُولاهما أنَّهُ يَدعو إلى اللَّهِ، وفي الثَّانيَة بأنَّهُ وأَتباعَهُ على بَصيرَةٍ .

والقولانِ مُتلازمانِ ؛ فلا يكونُ الرَّجلُ مِن أتباعِهِ حقًّا حتى يَدعو إلى ما

دعا إليهِ .

وقولُ الفرَّاء أحسنُ وأقربُ إلى الفصاحَةِ والبلاغَةِ .

وإذا كانَت الدَّعوةُ إلى اللَّهِ أشرَفَ مقاماتِ العَبدِ وأجلَّها وأفضَلَها ، فهي لا تحصُلُ إلّا بالعلمِ الذي يَدعو به وإليهِ ، بل لا بدَّ في كمالِ الدَّعوَةِ من البلوغِ في العلمِ إلى حدٍّ يَصلُ إليهِ السَّعيُ .

ويكفي هذا في شرَفِ العلمِ أنَّ صاحبَهُ يحوزُ به هذا المقامَ ، واللَّهُ يؤتي فَضلَهُ من يشاء .

○ **الوجهُ التاسع والمِئة : [العلم ثمرتُه اليقين] :**

أنَّهُ لو لم يكُن من فوائدِ العلمِ إلّا أنَّهُ يُثمِرُ اليَقينَ الذي هو أعظمُ حياةِ القَلبِ ، وبه طمأنينتُهُ وقوَّتُهُ ونشاطُهُ وسائرُ لوازمِ الحياةِ ، ولهذا مدَحَ اللَّهُ سبحانَهُ أهلَهُ في كتابِهِ ، وأثنى عليهم بقولِه : ﴿ وبالآخِرَةِ هم يُوقِنون ﴾ [البقرة : ٤]، وقولِه تعالى : ﴿ كذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ لقَومٍ يُوقنون ﴾ [الأعراف: ٣٢] ، وقولِه في حقِّ خليلِهِ إبراهيم : ﴿ وكذلكَ نُري إبراهيمَ ملكوتَ السَّمواتِ والأرضِ وَليكونَ من المُوقِنينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥]، وذمَّ مَن لا يَقينَ عندهُ فقال : ﴿ إنَّ النَّاسَ كانوا بآياتنا لا يُوقِنون ﴾ [النمل : ٨٢] .

فإذا باشرَ القلبَ اليَقينُ امتلأَ نورًا ، وانتَفى عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ ، وعُوفي من أمراضِهِ القاتلَةِ ، وامتلأَ شكرًا للَّهِ وذكرًا له ومحبَّةً وخوفًا ، فحيَّ عن بيِّنَةٍ .

واليَقينُ والمحبَّةُ هما رُكنا الإيمانِ وعليهما يَنبني وبهما قِوامُهُ ، وهما يُمُدَّانِ سائرَ الأعمالِ القلبيَّةِ والبَدنيَّةِ ، وعنهما تَصدُرُ ، وبضعفِهما يكونُ ضَعفُ الأعمالِ ، وبقوَّتهما قوَّتُها .

وجميعُ منازلِ السَّائرينَ ومقامات العارفينَ إنَّما تُفْتَحُ بهما ، وهما يُثمرانِ كلَّ عملٍ صالحٍ وعلمٍ نافعٍ وهُدًى مستقيمٍ .

قال الجُنيدُ : اليَقينُ هو استقرارُ العلمِ الذي لا ينقلبُ ولا يتحوَّلُ ولا يتغيَّرُ في القلبِ .

وقال سَهْلٌ : حَرَامٌ على قلبٍ أن يشمَّ رائحةَ اليَقينِ وفيهِ سكونٌ إلى غيرِ اللَّهِ .

وقيلَ : مِن علاماتهِ الالتفاتُ إلى اللَّهِ في كلِّ نازلَةٍ ، والرُّجوعُ إليهِ في كلِّ أمرٍ ، والاستعانَةُ به في كلِّ حالٍ ، وإرادَةُ وجههِ بكلِّ حَركَةٍ وسكونٍ .

وقالَ السَّريُّ : اليَقينُ السُّكونُ عندَ جَوَلانِ المواردِ في صَدرِكَ لتيقُّنِكَ أنَّ حركتَكَ فيها لا تنفعُكَ ولا تَرُدُّ عنكَ مَقْضِيًّا .

قلتُ : هذا إذا لم تكُن الحَرَكةُ مأمورًا بها ، فأَمَّا إذا كانَت مأمورًا بها فاليَقينُ في بَذلِ الجهدِ فيها واستفراغِ الوُسعِ .

وقيل : إذا استكملَ العَبدُ حقيقَةَ اليَقينِ صارَ البلاءُ عندَهُ نعمَةً، والمحنَةُ منحَةً .

فالعلمُ أوَّلُ درجاتِ اليَقين .

ولهذا قيلَ :العلمُ يَستعملُكَ واليَقينُ يحملُكَ ، فاليَقينُ أفضَلُ مواهبِ الرَّبِّ لعبدِهِ ، ولا تثبُتُ قَدَمُ الرِّضا إلَّا على درجَةِ اليَقينِ .

قال اللَّهُ تعالى :﴿ ما أصابَ من مُصيبَةٍ إلَّا بإذنِ اللهِ ومَن يُؤمنْ باللهِ يَهدِ قَلبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] ، قال ابنُ مسعود : هو العبدُ تُصيبُهُ المُصيبَةُ فيعلمُ أنَّها من عند اللَّهِ فيَرضى ويُسَلِّم(١) .

فلهذا لم يحصُل له هدايَةُ القَلبِ والرِّضا والتَّسليمُ إلَّا بيقينهِ .

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، كما في « الدر المنثور » (٨ / ١٨٤) .

○ الوجهُ العاشر والمِئة : [العلمُ فريضة شرعيّة] :

ما رواهُ أبو يعلى الموصلي[1] في « مُسندهِ » من حديثِ أنسِ بن مالكٍ يرفعهُ إلى النَّبيِّ ﷺ قال : « طلبُ العلمِ فَريضَةٌ على كلِّ مُسلمٍ » .

وهذا وإنْ كانَ في سندهِ حفصُ بن سليمان - وقَد ضُعِّفَ - فمعناهُ صحيحٌ ؛ فإنَّ الإيمانَ فَرضٌ على كلِّ واحدٍ ، وهو ماهِيَّةٌ مركَّبةٌ من علمٍ وعملٍ ، فلا يُتصوَّرُ وجودُ الإيمان إلّا بالعلمِ والعَمَلِ .

ثمَّ شرائعُ الإسلامِ واجبةٌ على كلِّ مسلمٍ ، ولا يمكنُ أداؤها إلّا بعدَ معرفتِها والعلمِ بها ، واللَّهُ تعالى أخرجَ عبادَهُ من بطونِ أُمَّهاتِهم لا يعلمونَ شيئًا ، فطلبُ العلمِ فَريضَةٌ على كلِّ مسلمٍ .

وهل تُمْكِنُ عبادَةُ اللَّهِ التي هي حقُّهُ على العبادِ كلِّهم إلّا بالعلمِ ؟

وهَل يُنالُ العلمُ إلّا بطلبِهِ ؟!

ثمَّ إنَّ العلمَ المفروضَ تعلُّمُهُ ضربانِ ؛ ضَربٌ منه فرضُ عَينٍ لا يسعُ مسلمٌ جهلَهُ ؛ وهو أنواعُ :

النَّوعُ الأوَّلُ : علمُ أصولِ الإيمانِ الخمسَة : الإيمانِ باللَّهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلهِ، واليومِ الآخرِ، فإنَّ مَن لم يُؤمن بهذه الخمسِ لم يدخُل في بابِ الإيمانِ ، ولا يستحقُّ اسمَ المؤمن، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ولكنَّ البِرَّ مَن آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ والملائكَةِ والكتابِ والنَّبيِّينَ ﴾ [البقرة : ١٧٧]، وقال : ﴿ ومَن يَكفُر باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ فقَد ضلَّ ضلالًا بَعيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

---

(١) (برقم : ٢٨٣٧) .
وللحديثِ طرقٌ مُتكاثرة جمعها - وخَلَصَ إلى حُسنِه - السيوطيُّ في جزء مفرد ، طُبع بتحقيقي ، وحسَّنه - أيضًا - جماعةٌ من أهل العلمِ .

ولمَّا سألَ جبريلُ رسولَ اللَّهِ ﷺ عن الإيمانِ ؟ قال : « أن تؤمنَ باللَّهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، قال : صَدَقتَ »[1] .

فالإيمانُ بهذه الأصولِ فرعُ معرفتِها والعلمِ بها .

النَّوعُ الثَّاني : علمُ شرائعِ الإسلامِ ، واللازمُ منها علمُ ما يَخُصُّ العَبدَ من فعلها ؛ كعلمِ الوضوءِ والصَّلاة والصِّيامِ والحجِّ والزَّكاةِ وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

النَّوعُ الثَّالثُ : علمُ المُحرَّماتِ الخمسِ ؛ اتَّفقتْ عليها الرُّسُلُ والشرائعُ والكتبُ الإلهيَّة ؛ وهي المذكورةُ في قوله تعالى : ﴿ قُل إنَّما حرَّمَ ربِّي الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ والإثمَ والبَغيَ بغَيرِ الحقِّ وأن تُشركوا باللهِ ما لم يُنزِّل به سُلطانًا وأن تَقولوا على اللهِ ما لا تَعلمونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

فهذه مُحرَّماتٌ على كُلِّ أَحدٍ في كلِّ حالٍ على لسانِ كلِّ رسولٍ ، لا تُباحُ قَطُّ ؛ ولهذا أتى فيها بـ ﴿ إنَّما ﴾ المُفيدَةِ للحصر مُطْلَقًا ، وغيرُها مُحرَّمٌ في وقتٍ مُباحٌ في غَيرِهِ ، كالميتَةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزير ونحوِهِ ، فهذه ليسَت مُحرَّمَةً على الإطلاقِ والدَّوامِ فلم تَدخُل تحتَ التَّحريمِ المحصورِ المطلَق .

النَّوعُ الرَّابعُ : علمُ أحكامِ المُعاشَرَةِ والمُعامَلَةِ التي تحصُلُ بينَهُ وبينَ النَّاسِ خُصوصًا وعُمومًا ، والواجبُ في هذا النَّوعِ يختلفُ باختلافِ أحوالِ النَّاسِ ومنازلهم ، فليسَ الواجبُ على الإمامِ مع رعيَّتِهِ كالواجبِ على الرَّجلِ مع أهلِهِ وجيرتِهِ ، وليسَ الواجبُ على مَنْ نَصَّبَ نفسَهُ لأنواعِ التِّجاراتِ مِن تعلُّمِ أحكامِ البياعاتِ كالواجبِ على مَنْ لا يبيعُ ولا يَشتري إلَّا ما تَدعو الحاجَةُ إليهِ .

(١) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩٠) عن أبي هُريرة .
ورواه مسلم (٨) عن عُمر .

وتَفصيلُ هذه الجملَةِ لا ينضبطُ؛ لاختلافِ النَّاسِ في أسبابِ العلمِ الواجبِ .

وذلكَ يرجعُ إلى ثلاثَةِ أصولٍ : اعتقادٍ، وفعلٍ ، وتركٍ :

فالواجبُ في الاعتقاد مطابقتُهُ للحقِّ في نفسهِ .

والواجبُ في العَمَل معرفةُ مُوافَقَةِ حركاتِ العَبدِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ الاختياريَّةِ للشرعِ أمرًا وإباحَةً .

والواجبُ في التَّركِ معرفَةُ موافقةِ الكفِّ والسُّكونِ لمرضاةِ اللَّهِ ، وأنَّ المطلوبَ منه إبقاءُ هذا الفعلِ على عدمهِ المُستَصْحَبِ ؛ فلا يتحرَّكُ في طلبهِ أو كفِّ النَّفسِ عن فعلهِ على الطَّريقتين .

وقَد دَخَلَ في هذه الجملةِ علمُ حركاتِ القلوبِ والأبدانِ .

وأمَّا فرضُ الكفايَةُ فلا أعلمُ فيهِ ضابطًا صحيحًا ؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُدْخِلُ في ذلكَ ما يظنُّهُ فَرضًا ، فَيُدخِلُ بعضُ النَّاسِ في ذلكَ علمَ الطبِّ وعلمَ الحسابِ وعلمَ الهندَسَةِ والمساحَةِ ، وبعضُهم يَزيدُ على ذلكَ علمَ أُصولِ الصِّناعَةِ كالفِلاحَةِ والحياكَةِ والحِدادَةِ والخِياطَةِ ونحوها ، وبعضهم يَزيدُ على ذلكَ علمَ المنطقِ ، وربَّما جعلَهُ فَرضَ عَينٍ ، وبناهُ على عَدَمِ صحَّةِ إيمانِ المقلِّد !

وكلُّ هذا هَوَسٌ وَخَبطٌ فلا فَرضَ إلّا ما فَرَضَ اللَّهُ ورسولُهُ .

فيا سبحان اللَّهِ ! هل فَرضَ اللَّهُ على كلِّ مسلمٍ أن يكونَ طبيبًا حجَّامًا حاسبًا مهندسًا ، أو حائكًا أو فلَّاحًا أو نجَّارًا أو خيَّاطًا ؟ فإنَّ فَرضَ الكفايَةِ كفَرضِ العَينِ في تعلُّقهِ بعمومِ المكَلَّفِينِ، وإنَّما يخالِفُهُ في سقوطهِ بفعلِ البَعضِ[1] .

ثمَّ على قولِ هذا القائلِ يكونُ اللَّهُ قَد فَرَضَ على كلِّ أحَدٍ جُملَةَ هذه

(١) قاعدةٌ أُصوليَّةٌ مُهمَّةٌ .

الصَّنائع والعلومِ ، فإنَّهُ ليسَ واحدٌ منها فَرضًا على مُعيَّنٍ والآخرُ على مُعَيَّنٍ آخَرَ ، بل عمومُ فَرضيَّتِها مُشْتَرَكَةٌ بينَ العمومِ ، فيجبُ على كلِّ أحَدٍ أن يكونَ حاسبًا أَو حائكًا خيَّاطًا نجَّارًا فلَّاحًا طبيبًا مُهندسًا !

فإنْ قالَ : المجموعُ فرضٌ على المجموعِ ؛ لم يكُن قولُكَ : « إنَّ كلَّ واحدٍ منها فَرضُ كفايَةٍ » صَحيحًا ؛ لأنَّ فرضَ الكفايَة يجبُ على العمومِ .

وأمَّا المنطقُ فلو كانَ علمًا صحيحًا كانَ غايَتُهُ أن يكونَ كالمساحَةِ والهَندَسَةِ ونحوها ، فكيفَ وباطلُهُ أضعافُ حقِّهِ ؟! وفسادُهُ وتناقُضُ أصولهِ واختلافُ مبانيهِ يوجِبُ مراعاتِها الذِّهنَ أن يزيغَ في فكرهِ .

ولا يؤمنُ بهذا إلَّا مَنْ قَد عَرفَهُ وعرَفَ فسادَهُ وتناقُضَه ومُناقضَةَ كثيرٍ منه للعَقلِ الصَّريحِ .

وهذا الشافعيُّ وأحمدُ وسائرُ أئمَّة الإسلامِ وتصانيفُهم ، وأئمَّةُ العَربيَّة وتصانيفهم ، وأئمَّة التَّفسيرِ وتصانيفهم لمَن نَظَرَ فيها ؛ هَل راعَوْا فيها حدودَ المنطقِ وُأوضاعَهُ ؟ وهل صحَّ لهم علمُهم بدونهِ ؟ أم لا ؟ بل هم كانوا أجلَّ قَدْرًا ، وأعظَمَ عقولًا من أن يَشْغَلُوا أفكارَهم بِهِذْيانِ المنطقيِّين .

ومـا دَخَلَ المنطقُ على علـمٍ إلّا أفسَدَهُ وغيَّرَ أوضاعهُ وشوَّشَ قواعدَهُ .

ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ : إِنَّ علومَ العَربيَّةِ من التَّصريفِ والنَّحوِ واللغَةِ والمعاني والبيانِ ونحوها تعلُّمها فرضُ كفايَةٍ لتوقُّفِ فَهمِ كلامِ اللَّهِ ورسولهِ عليها .

ومِنَ النَّاسِ مَن يَقولُ : تعلُّمُ أصولِ الفقهِ فرضُ كفايَةٍ لأنَّهُ العلمُ الذي يُعرَفُ به الدَّليلُ ومرتبتُهُ ، وكيفيَّةُ الاستدلال ...

وهذه الأقوالُ وإنْ كانَت أقربَ إلى الصَّواب من القَولِ الأوَّلِ ، فليسَ وجوبُها عامًّا على كلِّ أحدٍ ، ولا في كلِّ وقتٍ ، وإنَّما تجبُ وجوبَ الوسائلِ في بَعضِ الأزمانِ وعلى بَعضِ الأشخاصِ ، بخلافِ الفَرضِ الذي يعُمُّ وجوبُهُ كلَّ أحدٍ ؛ وهو علمُ الإيمانِ وشرائع الإسلامِ ، فهذا هو الواجبُ ، وأمَّا ما عَداهُ ؛ فإنْ توقَّفَت معرفتُهُ عليهِ فهو من بابِ **ما لا يتمُّ الواجبُ إلّا بهِ** ، ويكونُ الواجبُ منهُ القَدْرَ المُوصِلَ إليهِ دونَ المسائلِ التي هي فَضْلَةٌ لا يفتقرُ معرفَةُ الخطابِ وفهمُهُ إليها .

فلا يُطْلَقُ القولُ بأنَّ علمَ العربيَّة واجبٌ على الإطلاقِ ؛ إذ الكثيرُ منهُ ومن مسائلهِ وبحوثهِ لا يتوقَّفُ فهمُ كلامِ اللَّهِ ورسولهِ عليها ، وكذلكَ أُصولُ الفقهِ ؛ القَدْرُ الذي يتوقَّفُ فهمُ الخطابِ عليهِ منه تجبُ معرفتُهُ دونَ المسائلِ المقرَّرَةِ والأبحاثِ التي هي فَضلَةٌ ، فكيفَ يُقالُ : إنَّ تعلُّمَها واجبٌ ؟!

وبالجملَةِ ؛ فالمطلوبُ الواجبُ من العَبدِ من العلومِ والأعمالِ [ما] إذا توقَّفَ على شيءٍ منها كانَ ذلكَ الشيءُ واجبًا وجوبَ الوسائلِ .

ومعلومٌ أنَّ ذلكَ التَّوقُّفَ يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ والأزمانِ والألسنَةِ والأذهانِ ، فليسَ لذلكَ حدٌّ مُقدَّرٌ[1] ، واللَّهُ أعلم .

فهذا النَّبيُّ الكريمُ كانَ عالمًا بقَدْرِ العلمِ وأهلِهِ ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهِ .

○ **الوجهُ الحادي عشر بعد المِئة : [العلمُ كشَّافٌ للحقائق]** :

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى خَلَقَ الخَلْقَ لعبادتهِ الجامعَةِ لمحبَّتهِ وإيثارِ مرضاتهِ ،

---

(١) وهذا كلامٌ علميٌّ مُحرَّرٌ يَحُلُّ إشكالًا ينقدحُ في أذهان كثير من الطلبة : ما هو حدُّ العلمِ الواجب ؟! وما هو المقدار المفروضُ تعلُّمُهُ على طُلّاب العلم ؟!

ولعلَّ في كلام إمامنا - رحمه اللَّه - الجوابَ الشافي على هذا الإشكال الخافي .

المُستلزمَةِ لمعرفتِهِ ، ونَصَبَ للعبادِ عِلْمًا لا كمالَ لهم إلّا بِهِ ؛ وهو أن تكونَ حركاتُهم كلُّها واقعةً على وَفْقِ مرضاتِهِ ومحبَّتِهِ ، ولذلكَ أرسَلَ رُسُلَهُ ، وأنزَلَ كتبَهُ ، وشرَعَ شرائعَهُ .

فكمالُ العَبدِ الذي لا كمالَ له إلّا بِهِ أن تكونَ حركاتُهُ مُوافقةً لِمَا يُحبُّهُ اللَّهُ منهُ ويَرضاهُ له ، ولهذا جَعَلَ اتِّباعَ رسولِهِ دليلًا على محبَّتِهِ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُم اللهُ ويَغفِرْ لكُم ذُنوبَكُم واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فالمُحِبُّ الصَّادقُ يرى خيانَةً منه لمحبوبِهِ أَنْ يتحرَّكَ بحركَةٍ اختياريَّةٍ في غَيرِ مرضاتِهِ ، وإذا فَعَلَ فعلًا ممَّا أُبيحَ له بموجبِ طبيعتِهِ وشهوتِهِ تابَ منه كما يتوبُ من الذَّنبِ .

ولا يزالُ هذا الأمرُ يَقوى عندهُ حتى تنقلبَ مُباحاتُهُ - عنده - كلُّها طاعاتٍ ، فيحتسبُ نومَهُ وفِطْرَهُ وراحتَهُ كما يحتَسبُ قومَتَهُ وصومَهُ واجتهادَهُ ، وهو دائمًا بينَ سرَّاءَ يشكُر اللَّهَ عليها وضرَّاءَ يَصبرُ عليها ، فهو سائرٌ إلى اللَّهِ دائمًا في نومِهِ ويقظتِهِ .

قال بَعضُ العلماءِ: الأكياسُ عاداتهُم عباداتٌ، والحمقى عباداتهُم عاداتٌ.

وقال بعضُ السَّلفِ : حبَّذا نومُ الأكياسِ وفِطْرُهم ، يَغْبِنونَ به سَهرَ الحمقى وصومَهم .

فالمُحِبُّ الصَّادقُ إنْ نَطَقَ نَطَقَ للَّهِ وباللَّهِ ، وإنْ سكَتَ سَكَتَ للَّهِ ، وإنْ تحرَّكَ فبأمرِ اللَّهِ ، وإنْ سكنَ فسكونُهُ استعانَةٌ على مَرْضاةِ اللَّهِ فهو للَّهِ وباللَّهِ ومعَ اللَّهِ .

ومعلومٌ أنَّ صاحبَ هذا المقامِ أحوَجُ خَلْقِ اللَّهِ إلى العلمِ ؛ فإنَّهُ لا تَتَميَّزُ له الحَرَكَةُ المحبوبَةُ للَّهِ من غيرها ، ولا السُّكونُ المحبوبُ له من غيرهِ إلّا بالعلمِ ، فليسَتْ حاجتُهُ إلى العلمِ كحاجَةِ مَن طَلَبَ العلمَ لذاتهِ ، ولأنَّهُ في نفسهِ صفَةُ كمالٍ ، بل حاجتُهُ إليهِ كحاجتِهِ إلى ما به قِوَامُ نَفسهِ وذاتهِ ، ولهذا اشتدَّتْ وَصَاةُ شيوخِ العارفينَ لِمُريديهم بالعلمِ وطلبهِ ، وأنَّهُ مَنْ لم يَطلبِ العلمَ لم يُفلح ، حتى كانوا يعدُّونَ مَنْ لا علمَ له مِنَ السِّفْلَةِ .

قال ذو النُّون وقد سُئلَ : مَنِ السِّفْلَةُ ؟ فقال : مَن لا يَعرف الطَّريقَ إلى اللَّهِ تعالى ولا يتعرَّفُهُ .

وقال أبو يَزيدَ[1]: لو نَظَرتُم إلى الرَّجلِ وقَد أُعطيَ من الكراماتِ حتى يتربَّعَ في الهواءِ فلا تَغترُّوا به حتى تَنظروا كيفَ تجدونهُ عندَ الأمرِ والنَّهيِ وحفظِ الحدُودِ ومعرفَةِ الشريعَة .

وقال أبو حَمزَة البزَّاز : مَن عَلِمَ طَريقَ الحقِّ سَهُلَ عليهِ سلوكُهُ ، ولا دَليلَ على الطَّريقِ إلّا متابَعةُ الرَّسولِ في أقوالهِ وأفعالهِ وأحوالهِ .

وقالَ محمَّد بن الفَضل الصُّوفي الزَّاهد : ذهابُ الإسلامِ على يَدي أربعَةِ أصنافٍ من النَّاسِ :صنفٌ لا يعملونَ بما يعلمون، وصنفٌ يعملونَ بما لا يعلمون، وصنفٌ لا يعملونَ ولا يعلمون، **وصنفٌ يمنعونَ النَّاسَ من التَّعلُّم**.

قلتُ : **الصِّنفُ الأوَّلُ** مَن له علمٌ بلا عملٍ ؛ فهو أضرُّ شيءٍ على العامَّةِ ؛ فإنَّهُ حُجَّةٌ لهم في كلِّ نَقيصَةٍ ومبْخَسَةٍ .

والصِّنفُ الثَّاني : العابدُ الجاهلُ ؛ فإنَّ النَّاسَ يُحَسِّنونَ الظَّنَّ به لعبادتهِ وصلاحهِ فيقتَدونَ بهِ على جهلهِ .

(١) هو البِسْطاميُّ ؛ وفيه كلامٌ عقائديٌّ طويلٌ !!

وهذانِ الصِّنفانِ هما اللذانِ ذكرهما بعضُ السَّلفِ في قوله : « احذَروا فتنةَ العالِمِ الفاجِرِ والعابدِ الجاهلِ، فإنَّ فتنتَهما فتنَةٌ لكلِّ مفتونٍ[1] » ؛ فإنَّ النَّاسَ إنَّما يَقتَدونَ بعلمائهم وعُبَّادهم، فإذا كانَ العُلماءُ فجَرَةً والعُبَّادُ جَهَلَةً عمَّت المُصيبَةُ بهما وعظُمَت الفتنَةُ على الخاصَّةِ والعامَّةِ .

والصِّنفُ الثَّالثُ : الذينَ لا علمَ لهم ولا عَمَل ؛ وإنَّما هم كالأنعامِ السَّائمَة.

والصِّنفُ الرَّابعُ : نُوَّابُ إبليسَ في الأرضِ ؛ وهم الذينَ يُثَبِّطونَ النَّاسَ عن طلبِ العلمِ والتَّفقُّهِ في الدِّينِ ؛ فهؤلاءِ أضرُّ عليهم من شياطينِ الجنِّ ؛ فإنَّهم يَحُولونَ بينَ القلوبِ وبينَ هُدى اللَّهِ وطريقهِ .

فهؤلاءِ الأربَعَةُ أصنافٍ هم الذينَ ذَكَرَهُم هذا العارفُ رحمةُ اللَّهِ عليهِ .

وهؤلاءِ كلُّهُم على شفا جُرُفٍ هارٍ ، وعلى سبيلِ الهَلَكةِ، وما يَلْقى العالِمُ الدَّاعي إلى اللَّهِ ورسولِهِ ما يلقاهُ من الأذى والمحارَبَةِ إلَّا على أيديهم[2]، واللَّهُ يَستعملُ مَن يشاءُ في سخطِهِ كما يستَعملُ مَن يحبُّ في مرضاتِهِ ، إنَّهُ بعبادهِ خبيرٌ بَصيرٌ .

ولا ينكشفُ سرُّ هذه الطَّوائفِ وطريقَتُهم إلَّا بالعلمِ ، فعادَ الخَيرُ بحذافيرهِ إلى العلمِ ومُوجبهِ ، والشرُّ بحذافيرهِ إلى الجهلِ ومُوجِبهِ .

---

(١) رواه الآجُرّي في « أَخلاق العلماء » (٦٣) ونُعَيم بن حمَّاد في « زوائد الزُّهد » (٧٥) عن سفيان الثوري من قوله .

(٢) وهكذا الشأْنُ في كُلِّ زمانٍ ومكان ، مِن أَهل البدعِ والبهْتان ، وأَذناب الحُكْمِ والسُّلطان !!

○ الوجهُ الثاني عشر بعد المِئة : [العُلماءُ أُمناءُ الشريعةِ] .

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعَلَ العلماءَ وُكلاءَ وأُمناءَ على دينهِ ووَحيِهِ ، وارتضاهم لحفظِهِ والقيامِ به والذَّبِّ عنه ، وناهيكَ بها منزَلَةً شريفَةً ومنقبَةً عظيمَةً، قال اللهُ تعالى: ﴿ ذلكَ هُدى اللهِ يَهدي به مَن يشاءُ مِن عبادِهِ ولو أشرَكوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون أُولئكَ الذينَ آتيناهم الكتابَ والحُكم والنُّبوَّةَ فإنْ يكفُرْ بها هؤلاءِ فَقَد وكَّلْنا بها قومًا ليسوا بها بكافرينَ ﴾ [الأنعام : ٨٨ - ٨٩] .

وقَد قيلَ : إنَّ هؤلاءِ القومَ هم الأنبياءُ ، وقيلَ : أصحابُ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، وقيل : كلُّ مؤمنٍ .

هذه أُمَّهاتُ الأقوالِ بعدَ أقوالٍ مُتفرِّعةٍ عن هذه، كقولِ مَن قال : هُم الأنصار أو : المهاجرونَ والأنصارُ، أو : قومٌ من أبناءِ فارس، وقالَ آخَرونَ : هم الملائكَةُ(١).

قالَ ابنُ جرير(٢): وأولى هذه الأقوالِ بالصَّوابِ : أنَّهُم الأنبياءُ الثَّمانيَةَ عَشرَ الذينَ سمَّاهُم في الآياتِ قبلَ هذه الآيَةِ .

قالَ : وذلكَ أنَّ الخَبَرَ في الآياتِ قبلها عنهم مَضى، وفي التي بعدَها عنهم ذُكِرَ ، فما يليها بأنْ يكونَ خبرًا عنهم أَوْلى وأحقُّ بأن يكونَ خَبَرًا عن غيرهم ، فالتَّأويلُ : فإنْ يَكفُرْ قومُكَ من قريشٍ يا محمَّدُ بآياتنا وكذَّبوا بها وجَحَدوا حَقيقتَها فقد استحفظْناها واستَرعَيْنا القيامَ بها رُسُلَنا وأنبياءَنا من قبلكَ ؛ الذينَ لا يجحَدونَ حقيقتَها ولا يُكذِّبونَ بها ، ولكنَّهم يُصدِّقون بها ويؤمنون بصحَّتها .

---

(١) انظر « الدر المنثور » (٣ / ٣١٢) .

(٢) في « جامع البيان » (٧ / ٢٦٣) .

قلتُ : السُّورَةُ مكّيّةٌ ، والإشارةُ بقولِه : ﴿ هؤلاءِ ﴾ إلى من كفرَ به من قومِه أَصلًا ، ومَن عَداهم تَبَعًا ، فيدخُلُ فيها كلُّ من كَفَرَ بما جاءَ به من هذه الأُمّةِ ، والقومُ المُوكَّلونَ بها هم الأَنبياءُ أَصلًا ، والمؤمنون بها تَبَعًا ، فيدخُلُ من قامَ بحفظِها والذَّبِّ عنها والدَّعوة إِليها .

ولا ريبَ أَنَّ هذا للأَنبياءِ أَصلًا وللمؤمنين بهم تَبَعًا ، وأَحقُّ مَن دخَلَ فيهم أَتباعُ الرّسول خُلَفاؤهُ في أُمّتِه وورثَتُهُ ، فهم المُوكَّلونَ بها ، وهذا ينتظمُ الأَقوالَ التي قيلت في الآية .

○ **الوجهُ الثالث عشرَ بعد المِئة : [العُلَماءُ عدولُ الأُمّة] :**

وهو ما رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ من وُجوهٍ متعدِّدَةٍ [١] أَنَّهُ قالَ : « يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلفٍ عُدولُهُ ؛ ينفونَ عنه تحريفَ الغالينَ ، وانتحالَ المبطلينَ ، وتأويلَ الجاهلينَ » : فهذا الحملُ المُشارُ إليهِ في هذا الحديثِ هو التَّوكُّلُ المذكورُ في الآيَةِ ، فأخبرَ ﷺ أَنَّ العلمَ الذي جاءَ به يحملُهُ عُدُولُ أُمّتِهِ من كلِّ خَلَفٍ ، حتى لا يَضيعَ ويَذهَبَ .

وهذا يتضمَّنُ تَعديلَهُ ﷺ لحمَلَةِ العلمِ الّذي بُعِثَ به[٢]، وهو المُشارُ إليهِ في قولِهِ : « هذا العلم » .

فكلُّ من حَمَلَ العلمَ المشارَ إليهِ لا بدَّ وأن يكونَ عَدلًا ، ولهذا اشتَهَرَ عند الأُمّةِ عدالَةُ نَقَلَتِهِ وحَمَلَتِهِ اشتهارًا لا يقبلُ شكًّا ولا امتراءً .

---

(١) مِن أَجل ذا صحّحه الإمامُ أَحمدُ والحافظُ العلائيُّ وغيرُهما ، ولي في تخريجه « جُزءٌ » مُفْرَد ، وانظر « مفتاح دار السعادة » (١ / ٢١٩ و ٤٥١ و ٤٩٥) وتعليقي عليه ، وهو أَصلُ كتابنا هذا . .

(٢) قارن بتعليقي على « الباعث الحثيث » (١ / ٢٨٣) للحافظ ابن كثير - بشرح العلّامة أَحمد شاكر ، وتعليق شيخنا الأَلباني - .

ولا ريبَ أنَّ مَن عدَّلَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ لا يُسْمَعُ فيهِ جَرحٌ ، فالأئمَّةُ الذينَ اشتَهروا عند الأُمَّةِ بنقلِ العلمِ النَّبويِّ وميراثِهِ كلُّهُم عدولٌ بتَعديلِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ولهذا لا يُقبلُ قَدحُ بَعضهم في بَعضٍ ، وهذا بخلافِ مَن اشتَهَرَ عندَ الأُمَّةِ جَرحُهُ والقَدحُ فيهِ كأئمَّةِ البدع ومَن جَرى مجراهم من المُتَّهَمين في الدِّينِ ؛ فإنَّهُم ليسوا عندَ الأُمَّةِ مِن حَمَلَةِ العلمِ .

فما حَمَلَ علمَ رسولِ اللَّهِ ﷺ إلّا عدلٌ ، ولكنْ قَد يُغْلَطُ في مُسمَّى العدالَةِ ، فَيُظَنُّ أنَّ المُرادَ بالعَدلِ مَن لا ذَنْبَ له ! وليسَ كذلك ، بل هو عدلٌ مُؤتَمَنٌ على الدِّينِ ، وإنْ كانَ منهُ ما يتوبُ إلى اللَّهِ منهُ ؛ فإنَّ هذا لا يُنافي العَدالَةَ كما لا ينافي الإيمانَ والولايَة .

○ **الوجهُ الرابع عشر بعد المِـئـة : [بقاءُ العلمِ بقاءُ الدين والدنيا] :**

إنَّ بقاءَ الدِّينِ والدُّنيا في بقاءِ العلمِ ، وبذهابِ العلمِ تَذهبُ الدُّنيا والدِّين ، فقوامُ الدِّينِ والدُّنيا إنَّما هو بالعلمِ ، قال الأوزاعيُّ : قال ابنُ شهابٍ الزُّهْريّ : الاعتصامُ بالسُّـنَّـةِ نجاةٌ ، والعلمُ يُقبَضُ قبضًا سريعًا ، فَنَعْشُ العلمِ ثباتُ الدِّينِ والدُّنيا ، وذهابُ العلمِ ذهابُ ذلكَ كلِّهِ[1].

وقال ابنُ وَهبٍ : أخبَرَني يَزيدُ ، عن ابنِ شهابٍ قال : بَلَغَنا عن رجالٍ من أهلِ العلمِ أنَّهُم كانوا يقولونَ : الاعتصامُ بالسُّنَّةِ نجاةٌ ، والعلمُ يُقْبَضُ قبضًا سريعًا ، فَنَعْشُ العلمِ ثباتُ الدِّينِ والدُّنيا وذهابُ العلمِ ذهابُ ذلكَ كلِّهِ .

○ **الوجهُ الخامس عشر بعد المِـئـة : [العلم رِفْعةٌ لصاحِبِه] :**

أنَّ العلمَ يَرفَعُ صاحبَهُ في الدُّنيا والآخرَةِ ما لا يَرفعُهُ المُلْكُ ولا المالُ ولا

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨١٧) ، وابنُ عبدالبرّ في « الجامع » (١٠١٨) .

غَيرُهما ، فالعلمُ يَزيدُ الشريفَ شرفًا ويَرفعُ العبدَ المملوكَ حتى يُجْلِسَهُ مجالسَ الملوكِ، كما ثَبَتَ في « الصَّحيح »[1] من حديث الزُّهري ، عن أبي الطُّفَيل ، أنَّ نافعَ بن عبدالحارث أتى عُمرَ بن الخطَّاب بِعُسْفانَ – وكان عُمَرُ استعملَهُ على أهلِ مكَّةَ – فقال له عُمَرُ : مَن استخلفتَ على أهلِ الوادي ؟ قال : استخلفتُ عليهم ابنَ أبزى، فقال : مَن ابنُ أبزى ؟ فقال : رجلٌ مِن موالينا، فقال عمر : استخلفتَ عليهم مولىً ؟ فقال : إنَّهُ قارىءٌ لكتابِ اللَّهِ عالمٌ بالفرائضِ، فقال عمر : أَمَا إِنَّ نبيَّكُم ﷺ قد قال : « إنَّ اللَّهَ يَرفعُ بهذا الكتابِ أقوامًا ويَضعُ به آخَرينَ » .

قال أبو العاليَةِ : كنتُ آتي ابنَ عبَّاسٍ وهو على سريرِهِ وحولَهُ قريشٌ فيأخذُ بيدي ، فَيُجلِسُني مَعَهُ على السَّرير فتغامزَ بي قريشٌ ، ففطنَ لهم ابن عبَّاس فقال : كذا هذا العلمُ ، يَزيدُ الشَّريفَ شرفًا ويُجلِسُ المملوكَ على الأَسِرَّةِ .

وقال إبراهيمُ الحربيّ : كانَ عطاءُ بن أَبي رباحٍ عَبدًا أسوَدَ لامرأَةٍ من أَهل مكَّةَ ، وكانَ أنفُهُ كأنَّهُ باقِلَّاءُ، قال : وجاءَ سليمانُ بن عبدالملكِ أميرُ المؤمنينَ إلى عطاءٍ هو وابناهُ ، فجلسوا إليهِ وهو يُصلِّي ، فلمَّا صلَّى انفتَلَ إليهم ، فما زالوا يسألونهُ عن مناسكِ الحجِّ وقد حوَّلَ قفاهُ إليهم ، ثمَّ قال سُليمانُ لابنَيهِ : قُوما ، فقاما ، فقال : يا بَنِيَّ ! لا تَنِيا في طَلَبِ العلمِ فإنِّي لا أنسى ذُلَّنا بينَ يَدي هذا العَبدِ الأسودِ .

قال الحربيُّ : وكانَ محمَّدُ بن عبدالرَّحمنِ الأَوْقَصُ عُنُقُهُ داخلٌ في بدنهِ ، وكان منكباهُ خارجَيْنِ كأنَّهما زُجَّان[2].

---

(١) « صحيح مسلم » (٨١٧) .

(٢) قال في « القاموس المحيط » (ص ٢٤٤) : « الزُّجّ – بالضمّ – : طَرَف المِرْفَق ، =

فقالت له أُمُّهُ : يا بُنيَّ لا تكونُ في مجلسِ قومٍ إلّا كنتَ المضحوكَ منهُ المسخورَ بهِ ، فعليكَ بطلبِ العلمِ ؛ فإنَّهُ يَرفعُكَ ، فَوَلِيَ قضاءَ مكَّةَ عشرينَ سنةً .

قال : وكانَ الخصمُ إذا جلسَ إليهِ بين يَديهِ يرعُدُ حتى يقومَ .

قال : ومرَّت بهِ امرأةٌ يومًا وهو يقول : اللهمَّ أَعتِقْ رَقَبتي من النَّارِ، فقالت له : يا ابنَ أخي وأيُّ رقبَةٍ لكَ ؟!

وقال يَحيى بنُ أَكثَمَ : قال الرشيدُ : ما أنبلُ المراتبِ ؟ قلتُ : ما أنتَ فيه يا أميرَ المؤمنين، قال : فتعرفُ أجلَّ منِّي ؟ قلتُ : لا، قال : لكنِّي أعرفُهُ ؛ رجلٌ في حَلْقَةٍ يقول : حدَّثنا فلانٌ عن فلانٍ عَن رسولِ اللَّهِ ﷺ ، قال : قلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ أهذا خَيرٌ منكَ وأنتَ ابنُ عمِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ ووليُّ عَهد المؤمنينَ ؟ قال : نعم ، ويلَكَ ، هذا خَيرٌ منِّي ، لأنَّ اسمَهُ مقترِنٌ باسمِ رسولِ اللَّهِ ، لا يموتُ أبدًا ، ونحنُ نموتُ ونفنى والعلماءُ باقونَ الدَّهرَ[1] .

وقال خيثمَةُ بن سُليمانُ : سمعتُ ابنَ أبي الخناجِر يقول : كنَّا في مجلسِ يزيدَ بن هارون والنَّاسُ قَد اجتَمعوا إليهِ ، فمرَّ أميرُ المؤمنينَ فوقَفَ علينا في المجلس ، وفي المجلس أُلوفٌ فالتَفَتَ إلى أصحابِهِ ، وقال : **هذا المُلْكُ** .

وفي « تاريخ بغداد »[2] للخَطيب : عن الأستاذ ابن العَميد قال : ما كنتُ أظنُّ أنَّ في الدُّنيا حلاوَةً ألذَّ من الرِّياسَةِ والوزارَةِ التي أَنا فيها ، حتى شهدتُ مُذاكرَة سُليمان بن أيُّوب بن أحمد الطَّبراني وأبي بكرِ الجِعَابِيِّ بحضرتي ،

= والحديدةُ في أَسفل الرمح » .

وهذا إشارةٌ إلى ضَعْفِهِ ، وقِصَر عُنُقِه .

(١) « شرف أَصحاب الحديث » (ص ٩٩) .

(٢) وعنه الذهبيُّ في « سير أعلام النُّبلاء » (١٦ / ١٢٤) .

فكانَ الطَّبرانيُّ يغلبُ بكثرةِ حفظِهِ ، وكانَ الجِعَابِيُّ يغلبُ الطَّبرانيَّ بفطنتهِ وذكاءِ أهلِ بَغدادَ ، حتى ارتفَعَتْ أصواتُهما ولا يكادُ أحدُهما يغلبُ صاحبَهُ ، فقال الجِعَابيُّ : عندي حديثٌ ليسَ في الدُّنيا إلّا عندي ، فقال : هاتِهِ ؟ فقال : حدَّثنا أبو خَليفةَ : حَدَّثنا سليمانُ بن أيُّوبَ ، وحدَّثَ بالحديثِ ، فقال الطَّبراني : أَنا سليمانُ بن أيُّوب ومنِّي سمعَ أبو خليفَةَ ، فاسْمَعْ منِّي حتى يَعلو إِسنادُكَ ، فإنَّكَ تَروي عن أبي خَليفَةَ عنِّي ، فَخَجِلَ الجِعَابيُّ وغَلَبَهُ الطَّبراني .

قال ابنُ العَميد : فوَدِدْتُ في مكاني أنَّ الوزارَةَ والرِّياسَةَ ليتَها لم تكُن لي وكنتُ الطَّبرانيَّ ، وفَرِحتُ مثلَ الفَرَحِ الذي فَرِحَ به الطَّبراني لأجلِ الحديثِ . أو كما قال .

وقال المُزَني : سمعتُ الشافعيَّ يقول : مَن تعلَّمَ القرآنَ عظُمَت قيمتُهُ ، ومَن نَظَرَ في الفقهِ نَبُلَ مِقدارُهُ ، ومن تعلَّمَ اللغَةَ رقَّ طبعُهُ ، ومَن تعلَّمَ الحسابَ جزلَ رأيُهُ ، **ومَن كتبَ الحديثَ قويت حُجَّتُهُ** ، ومَن لم يَصُن نفسَهُ لم ينفعْهُ علمُهُ .

وقَد رُوِيَ هذا الكلامُ عن الشافعي من وجوهٍ متعدِّدَةٍ .

وقال سفيانُ الثَّوريُّ : من أرادَ الدُّنيا والآخرَةَ فعليهِ بطلبِ العلمِ .

وقال عبدُاللّٰهِ بنُ داودَ : سمعتُ سفيانَ الثَّوري يقول : إنَّ هذا الحديثَ عِزٌّ ، فمَن أَرادَ بهِ الدُّنيا وجَدَها ، ومَن أرادَ به الآخرَةَ وجَدها .

وقالَ النَّضرُ بنُ شُمَيلٍ : مَن أرادَ أن يشرُفَ في الدُّنيا والآخرَة فلْيتعلَّم العلمَ، وكفى بالمرءِ سعادَةً أن يُوثَقَ به في دينِ اللّٰهِ، ويكونَ بينَ اللّٰهِ وبينَ عبادهِ .

وقال حمزَةُ بن سعيدٍ المصريُّ : لمَّا حَدَّثَ أبو مُسلمٍ اللَّخميُّ أوَّلَ يومٍ حدَّثَ قال لابنهِ : كم فَضَلَ عندنا من أثمانِ غَلَّاتنا ؟ قال : ثلاثمائة دينارٍ،

قال : فرِّقْها على أصحابِ الحديث والفقراءِ شكرًا أنَّ أباكَ اليومَ شهدَ على رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقُبِلَتْ شهادتُهُ .

وفي كتابِ « الجليس والأنيس »[1] لأبي الفَرجِ المعافى بن زكريَّا الجَرِيري : حدَّثنا محمَّد بن الحُسين بن دُريدٍ : حدَّثنا أبو حاتم ، عن العُتْبي ، عن أبيهِ ، قال : ابْتَنَى مُعاويَةُ بالأبطح مجلسًا ، فجلَسَ عليهِ ومعهُ ابنُهُ قَرَظَةُ ، فإذا هو بجماعَةٍ على رِحَالٍ لهم ، وإذا شابٌّ منهم قَد رَفَعَ عقيرتَهُ يتغنَّى :

مَن يُساجِلْني يُساجِلْ ماجدًا ... يملإِ الدَّلْوَ إلى عَقدِ الكُرَب

قال : من هذا ؟ قال : عبدُاللَّهِ بن جعفَر ، قال : خلُّوا له الطَّريقَ .

ثمَّ إذا هو بجماعَةٍ فيهم غلامٌ يتغنَّى :

بينما يذكُرنَني أبْصَرْنَني ... عندَ قِيدِ المِيلِ يَسعى بي الأغَرّ

قُلنَ تَعْرِفنَ الفتى قُلنَ نَعَم ... قَد عَرَفناهُ وهَل يَخفى القَمَر

قالَ : مَن هذا ؟ قالوا : عمرُ بن أبي ربيعةَ، قال : خلُّوا له الطَّريقَ فلْيَذهَب .

قال : ثمَّ إذا هو بجماعَةٍ، وإذا فيهم رجلٌ يُسألُ ، فيُقالُ لهُ : رمَيتُ قبلَ أن أحلِقَ ؟ وحَلَقتُ قبلَ أن أرمي ؟ في أشياءَ أَشْكَلَتْ عليهم من مناسكِ الحجِّ ، فقال : مَن هذا ؟ قالوا : عبدُاللَّهِ بن عمر ، فالتَفَتَ إلى ابنهِ قَرَظَةَ ، وقال : هذا واللَّهِ شرفُ الدُّنيا والآخرَة .

وقال سُفيان بن عُيَينَة : أرفعُ النَّاسِ منزلَةً عندَاللَّهِ مَن كانَ بينَ اللَّهِ وبينَ عبادِهِ ، وهم الأنبياءُ والعلماءُ .

---

(١) (٣ / ١٨١) .

وقالَ سَهلٌ التُّسْتَري : مَن أرادَ أن ينظرَ إلى مجالسِ الأنبياءِ فلْينظر إلى مجالس العلماءِ ، يجيءُ الرَّجلُ فيقول : يا فلان أيْشٍ تقولُ في رجلٍ حَلَفَ على امرأتِهِ بكذا وكذا ؟ فيقولُ : طَلِقَتِ امرأتُهُ ، ويجيءُ آخرُ فيقول : حَلَفتُ بكذا وكذا ! فيقولُ : ليسَ يحنَثُ بهذا القولِ ، وليسَ هذا إلّا لنبيٍّ أو عالمٍ ، فاعرِفوا لهم ذلك .

○ **الوجهُ السادس عشر بعد المِئة : [العلمُ يُميِّزُ صاحبَه] :**

إنَّ النُّفوسَ الجاهلَةَ التي لا علمَ عندَها قَد أُلبِسَتْ ثوبَ الذلِّ والإزراءُ عليها والتنقُّصُ بها أسرعُ منه إلى غيرها .

وهذا أمرٌ معلومٌ عندَ الخاصِّ والعامِّ ؛ قال الأعمَش : إنِّي لأرى الشيخَ لا يَروي شيئًا من الحديثِ فأَشتَهي أن ألطُمَهُ .

وقال أَبو مُعاويَةُ : سمعتُ الأعمشَ يقولُ : مَن لم يطلبِ الحديثَ أَشتَهي أن أصفعَهُ بنعلي .

وقال عَثَّامُ بن عليٍّ : سمعتُ الأعمشَ يقول : إذا رأيتَ الشيخَ لم يقرأ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ فاصفَع له فإنَّهُ من شيوخِ القَمْراءِ .

قال أبو صالح : قلتُ لأبي جَعفَرَ : ما شيوخُ القَمْراء ؟ قال : شيوخٌ دهريُّونَ يجتمعونَ في ليالي القَمر يتذاكرون أيَّام النَّاسِ ، ولا يُحْسِنُ أحدُهم أن يتوضَّأ للصَّلاة[1] .

وكان سفيانُ الثَّوريُّ إذا رأى الشيخَ لم يكتب الحديثَ قال : لا جزاكَ اللَّهُ خيرًا عن الإسلام !

---

(١) وقد رأينا منهم الكثيرين !!

وقال المُزَني : كان الشافعي إذا رأى شيخًا سألَهُ عن الحديث والفقهِ ؟ فإنْ كانَ عندَهُ شيءٌ ، وإلّا قالَ له : لا جزاكَ اللّهُ خيرًا عن نفسِكَ ولا عَن الإسلامِ ، قَد ضيَّعتَ نَفسَكَ وضيَّعتَ الإسلامَ .

وكانَ بعضُ خُلَفاء بني العبَّاسِ يلعبُ بالشِّطْرنج[1]، فاستأذَنَ عليه عمُّهُ، فأذِنَ لهُ وغطَّى الرُّقعَةَ، فلمَّا جَلَسَ قال له : يا عمّ هل قرأتَ القرآن ؟ قال : لا، قال : فهل كتَبتَ شيئًا من السُّنَّة ؟ قال : لا، قال : فَهَل نظرتَ في الفقهِ واختلافِ النَّاسِ ؟ قال : لا، قال : فَهَل نَظَرتَ في العربيَّةِ وأيام النَّاس ؟ قال : لا، فقال الخليفَةُ : اكشِف الرُّقعَة، ثمَّ أتمَّ اللعبَ، وزالَ احتشامُهُ وحياؤهُ منه، فقال له مُلاعِبُهُ : يا أميرَ المؤمنينَ تكشفُها ومعنا مَن تحتشمُ منه ؟ قال : اسكُت فما معنا أحدٌ !!

وهذا لأنَّ الإنسانَ إنَّما يتميَّزُ عن سائرِ الحيوانِ بما خُصَّ بهِ من العلمِ والعَقلِ والفَهمِ ، فإذا عَدِمَ ذلكَ لم يَبْقَ فيهِ إلّا القَدْرُ المشتركُ بينهُ وبينَ سائرِ الحيوانات ، وهو الحيوانيَّةُ البَهيميَّةُ ، ومثلُ هذا لا يَستَحي منهُ النَّاسُ ولا يمنعونَ بحضرتهِ وشهودهِ ممَّا يُستَحيَىٰ منهُ من أُولي الفَضلِ والعلمِ .

○ **الوجهُ السابع عشر بعد المئة : [العلمُ كَنزٌ] :**

أنَّ كلَّ صاحبِ بضاعَةٍ سوى العلم إذا عَلِمَ أنَّ غَيرَ بضاعتهِ خيرٌ منها زَهَدَ في بضاعتهِ ورَغِبَ في الأُخرى ووَدَّ أنَّها له عِوَضَ بضاعتهِ إلّا صاحبَ بضاعَةِ العلمِ ؛ فإنَّهُ ليسَ يحبُّ أنَّ له بحظِّهِ منها حظًّا أصلًا .

قال أبو جَعفَر الطحاويُّ : كنتُ عندَ أحمَدَ بن أبي عِمْرانَ فمرَّ بنا رجلٌ من بني الدُّنيا ، فَنَظرتُ إليهِ وشُغِلتُ به عمَّا كنتُ فيه من المذاكرَةِ ، فقال لي :

---

(١) لشيخ الإسلام ابن تيميّة « قاعدةٌ في تحريم الشِّطْرنج » ، وهي مطبوعةٌ .

كأنِّي بك قَد فكَّرتَ فيما أُعطِي هذا الرَّجلُ من الدُّنيا ؟! قلتُ لهُ : نَعم، قال : هَل أدلُّكَ على خَلَّةٍ ؟ هل لكَ أن يحَوِّلَ اللَّهُ إليكَ ما عندَهُ من المالِ ويُحَوِّلَ إليهِ ما عندكَ من العلم فتَعيشَ أنتَ غنيًا جاهلًا ويَعيشَ هو عالمًا فقيرًا ؟! فقلتُ : ما أختارُ أن يُحوِّلَ اللَّهُ ما عندي من العلمِ إلى ما عندَهُ ، فالعلمُ غنىً بلا مالٍ ، وعزٌّ بلا عَشيرَةٍ ، وسلطانٌ بلا رجالٍ .

وفي ذلكَ قيل :

العلمُ كَنزٌ وذُخرٌ لا نَفادَ لهُ ... نِعْمَ القَرينُ إذا ما صاحِبٌ صُحِبا
قَد يَجمَعُ المرءُ مالًا ثمّ يُحْرَمُهُ ... عمَّا قليلٍ فَيَلْقىٰ الذُّلَّ والحَرَبا
وجامعُ العِلمِ مَغْبوطٌ بهِ أبدًا ... ولا يُحاذِرُ منهُ الفَوْتَ والسَّلَبا
يا جامِعَ العِلمِ نِعْمَ الذُّخرِ تجمعُهُ ... لا تَعدِلَنَّ بهِ دُرًّا ولا ذَهبا

○ **الوجهُ الثامن عشر بعد المِئة : [العلمُ مِن أَحسن الجزاء] :**

أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبرَ أنَّهُ يجزي المُحسنين أجرَهُم بأحسَنِ ما كانوا يعملونَ.

وأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ يجزي على الإحسانِ بالعلمِ ، وهذا يدُلُّ على أنَّهُ مِن أحسَنِ الجزاءِ :

أمَّا المقامُ الأوَّل : ففي قولِه تعالى : ﴿ والَّذي جاءَ بالصِّدقِ وصدَّقَ به أولئكَ هم المُتَّقون لهم ما يشاؤونَ عندَ ربِّهِم ذلكَ جزاءُ المُحسنين ليُكفِّرَ اللهُ عنهُم أسوأَ الَّذي عملوا ويَجزيَهُم أجرَهُم بأحسَنِ الَّذي كانوا يعملون ﴾ [الزمر : ٣٣ - ٣٥]، وهذا يتناول الجزاءَين الدُّنيَويَّ والأُخرَويَّ .

وأمَّا المقامُ الثَّاني : ففي قولِهِ تعالى : ﴿ ولمَّا بَلَغَ أشدَّهُ آتيناهُ حُكمًا وعِلمًا وكذلكَ نَجزي المُحسنين ﴾ [يوسف : ٢٢] .

قال الحسَنُ : مَن أحسَنَ عبادَةَ اللَّهِ في شبيبتِهِ لقَّاهُ اللَّهُ الحكمَةَ عندَ كِبَرِ سنِّهِ ، وذلك قولُه : ﴿ ولَّما بَلَغَ أشُدَّهُ آتيناهُ حُكمًا وعلمًا وكذلكَ نَجزي المُحسنين ﴾ [يوسف : ٢٢] .

ومن هذا قولُ بَعض العلماءِ : تقولُ الحكمَةُ : مَن التمَسني فلم يَجدْني فلْيعمَلْ بأحسَنِ ما يعلمُ ، ولْيتركْ أقبحَ ما يعلمُ ، فإذا فَعَلَ ذلكَ فأنا معهُ وإنْ لم يَعرفْني .

○ الوجهُ التاسع عشر بعد المِئة : [العلمُ حياةُ القلوب] :

أَنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعَلَ العلمَ للقلوبِ كالمَطَرِ للأرضِ ، فكما أنَّهُ لا حياةَ للأرضِ إلّا بالمَطَرِ ، فكذلكَ لا حياةَ للقَلْبِ إلّا بالعلمِ .

وفي « الموطَّأ »(١): قال لُقمانُ لابنِهِ : يا بُنيَّ جالسِ العلماءَ وزاحِمْهم بركبتيكَ ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى يُحيي القلوبَ المَيْتَةَ بنورِ الحكمَةِ كما يُحيي الأرضَ بوابلِ المَطَر .

ولهذا ؛ فإنَّ الأرضَ إنَّما تحتاجُ إلى المَطَرِ في بَعضِ الأوقاتِ ، فإذا تتابعَ عليها احتاجَتْ إلى انقطاعِهِ ، وأمَّا العلمُ فيَحتاجُ إليهِ القلبُ بعَدَدِ الأنفاسِ ، ولا يزيدُهُ كثرتُهُ إلّا صلاحًا ونفعًا .

○ الوجهُ العشرون بعد المِئة : [العلمُ والسؤال] :

أنَّ كثيرًا من الأخلاقِ التي لا تُحمَدُ في الشخصِ - بل يُذَمُّ عليها - تُحمَدُ في طَلَبِ العلمِ كالمَلَقِ وتَركِ الاستحياءِ والذُّلِّ والتَّردُّد إلى أبوابِ العلماءِ ونحوها .

---

(١) (٢ / ٩٩٠) .

وقد أُثِرَ عن بَعضِ السَّلَفِ قولُهم : « ليسَ المَلَق من أخلاقِ المؤمنينَ إلّا في طَلَبِ العلمِ »[1].

وقال ابنُ عبَّاس : ذَلَلتُ طالبًا فَعززتُ مطلوبًا .

وقال : وَجَدتُ عامَّةَ علمِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ عندَ هذا الحيِّ من الأنصارِ ، إنْ كنتُ لَأَقِيلُ عندَ بابِ أحدِهم ، ولو شئتُ أُذِنَ لي ، ولكنْ أَبتَغي بذلكَ طِيبَ نَفسِهِ .

وقال أبو إسحاقَ : قال عليٌّ : كلماتٌ لو رَحَلْتُم المَطِيَّ فيهنَّ لأفنيتموهنَّ قبلَ أن تُدرِكوا مثلَهنَّ : لا يَرجُوَنَّ عَبدٌ إلّا ربَّهُ ، ولا يَخافَنَّ إلّا ذَنْبَهُ ، ولا يَستحي مَن لا يَعلَمُ أن يتعلَّمَ ، **ولا يَستحي إذا سُئِلَ عمَّا لا يعلمُ أن يقولَ : لا أعلمُ**، واعلموا أنَّ منزلَةَ الصَّبرِ من الإيمانِ كمنزلَةِ الرَّأسِ من الجَسَدِ ، فإذا ذَهَبَ الرَّأسُ ذَهَبَ الجَسَدُ ، وإذا ذَهَبَ الصَّبرُ ذَهَبَ الإيمانُ .

ومن كلامِ بَعضِ العُلماءِ[2]: لا يَنالُ العلمَ مُستحيٍ ولا مُتكبِّرٌ ؛ هذا يمنعُهُ حياؤهُ من التَّعلُّم ، وهذا يمنعهُ كِبْرُهُ .

وإنَّما حُمِدَتْ هذه الأخلاقُ في طَلَبِ العلمِ لأنَّها طريقٌ إلى تحصيلِهِ ، فكانَت من كمالِ الرَّجلِ ومُفْضِيَةً إلى كمالِهِ .

ومِن كلامِ الحَسَن : مَن استَتَرَ عَن طَلَبِ العلمِ بالحياءِ لَبِسَ للجَهلِ سربالَهُ ، فاقطَعوا سرابيلَ الحياءِ فإنَّهُ مَن رَقَّ وجهُهُ رَقَّ علمُهُ .

وقال الخليلُ : منزلَةُ الجَهلِ بينَ الحياءِ والأَنَفَةِ

---

(١) قارن بـ « شعب الإيمان » (٤ / ٢٢٤) .

(٢) علَّقه البخاري في « صحيحه » (١ / ٣٧) من قول مُجاهدٍ ..

ومن كلامِ عليٍّ رَضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ : قُرِنَت الهَيبَةُ بالخَيبَةِ ، والحياءُ بالحِرمان .

وقال إبراهيمُ لمنصورٍ : سَلْ مسألَةَ الحَمقى ، واحفَظ حِفظَ الأكياسِ ، وكذلكَ سؤالُ النَّاسِ هو عيبٌ ونَقصٌ في الرَّجلِ ، وذِلَّةٌ تُنافي المروءَةَ إلّا في العلمِ ؛ فإنَّهُ عَينُ كمالِهِ ومُروءَتِهِ وعِزِّهِ ، كما قال بَعضُ أهلِ العلمِ : خَيرُ خصالِ الرَّجلِ السُّؤالُ عن العلمِ .

وقيلَ : إذا جَلَسْتَ إلى عالمٍ فَسَلْ تَفقُّهًا لا تَعنُّتًا .

وقال رُؤبَةُ بنُ العجَّاج : أتيتُ النَسَّابَةَ البَكريَّ ، فقال : مَن أنتَ ؟ قلت : أنا ابنُ العَجَّاجِ، قال : قَصَّرتَ وعرَّفتَ ! لعلَّكَ كقومٍ إنْ سَكَتُّ لم يسألوني ، وإن تكلَّمتُ لم يَعُوا عَنِّي !؟ قلتُ : أرجو أنْ لا أكونَ كذلكَ ، قال : ما أعداءُ المروءَةِ ؟ قلت : تخبرني، قال : بنو عمِّ السُّوءِ ، إنْ رأوا حَسَنًا سَتَروهُ ، وإنْ رَأَوْا سيِّئًا أذاعوهُ، ثمَّ قال : إنَّ للعلمِ آفَةً ونَكَدًا وهُجنَةً ؛ فآفتُهُ نسيانُهُ ، ونكدُهُ الكذِبُ فيه ، وهُجْنَتُهُ نَشرُهُ عندَ غيرِ أهلِهِ .

وأنشَدَ ابنُ الأعرابيّ :

ما أقرَبَ الأشياءَ حينَ يَسوقُها ... قَدَرٌ وأبعدَها إذا لَم تُقْدَرِ
فَسَلِ الفَقيهَ تَكُن فَقيهًا مثلَهُ ... مَن يَسْعَ في علمٍ بِذُلٍّ يمهَرِ
فتَدبَّرِ العلمَ الذي تُفتي بهِ ... لا خَيرَ في علمٍ بِغَيرِ تَدبُّرِ
ولَقَد يجدُّ المَرءُ وهو مُقصِّرٌ ... ويخيبُ جَدُّ المَرءِ غَيرَ مقصِّرِ
ذَهَبَ الرِّجالُ المُقتَدى بفعالهم ... والمُنكِرونَ لكلِّ أمرٍ مُنكَرِ
وبقيتُ في خَلَفٍ يُزيِّنُ بَعضُهم ... بعضًا ليَدفَعَ مُعْوِرٌ عن مُعْوِرِ

وللعلـم ستُّ مراتبَ :

أوَّلُها : حسنُ السُّؤال .

الثَّانيَةُ : حُسنُ الإنصاتِ والاستماعِ .

الثَّالثَةُ : حُسنُ الفَهمِ .

الرَّابعَةُ : الحِفظُ .

الخامسَةُ : التَّعليمُ .

السَّادسَةُ : - وهي ثمرتُهُ - وهي العَمَلُ به ومُراعاةُ حدودهِ .

فمِنَ النَّاسِ مَن يُحرَمُهُ لعَدَمِ حُسنِ سؤالهِ ؛ إمَّا أنَّه لا يَسأَلُ بحالٍ ، أو يسألُ عن شيءٍ وغيرُهُ أهمُّ منهُ ؛ كمَن يسألُ عن فُضولهِ التي لا يضرُّ جَهلُهُ بها ، وَيدَعُ ما لا غنى لهُ عن معرفتهِ ، وهذه حالُ كثيرٍ من **الـجُهَّالِ الـمتعلِّمينَ** .

ومنَ النَّاسِ من يُحْرَمُهُ لسوءِ إنصاتهِ ، فيكونُ الكلامُ والـمُماراةُ آثَرَ عندهُ وأحبَّ إليهِ من الإنصاتِ ؛ وهذه آفَةٌ كامنةٌ في أكثَرِ النُّفوسِ الطَّالبَةِ للعلمِ ، وهي تمنعُهُم علمًا كثيرًا[1] ولو كانَ حَسَنَ الفهم .

ذكرَ ابنُ عبدالبَرِّ[2] عن بَعضِ السَّلفِ أنَّهُ قال : مَن كانَ حَسَنَ الفَهمِ رديءَ الاستماعِ لم يقُم خَيرُهُ بشرِّهِ .

وذكرَ عبدُاللَّهِ بن أحمدَ في كتابِ « العِلَل »[3] لهُ قال : كانَ عُروَةُ بن الزُّبير يُحِبُّ مُماراةَ ابن عبَّاسٍ فكانَ يَخزِنُ علمَهُ عنهُ ، وكانَ عُبَيْدُاللَّهِ بن

---

(١) صَدَقَ يرحمه اللَّه ، وهذا أَمرٌ مشاهدٌ ملموسٌ !

(٢) في « الجامع » (٦٩٩) .

(٣) لم أَرَه فيما راجعتُ مِن مطبوعتهِ .

عَبْداللَّه بن عُتبَةَ يُلَطِّفُ لهُ في السُّؤال فيُعِزُّهُ بالعلمِ عِزًّا .

وقال ابنُ جُريجٍ : لم أستخرج العلمَ الذي استخرجتُ من عطاءٍ إلّا برِفْقي بهِ .

وقال بَعضُ السَّلفِ : إذا جالَسْتَ العالِمَ فكُن على أن تَسمَعَ أحرَصَ منكَ على أن تقولَ .

وقَد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذلكَ لذِكرى لِمَن كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السَّمعَ وهو شهيد ﴾ [ق : ٣٧] .

فتأمَّلْ ما تحتَ هذه الألفاظِ من كُنوزِ العلمِ وكيفَ تفتحُ مراعاتُها للعَبدِ أبوابَ العلمِ والهُدى ! وكيفَ يَنغلِقُ بابُ العلمِ عنهُ من إهمالِها وعَدَمِ مراعاتِها ! فإنَّهُ سبحانهُ ذَكَرَ عن آياتِهِ المتلُوَّةِ المسموعَةِ والمرئيَّةِ المشهودَةِ إنَّما تكونُ تَذكرَةً لمَن كانَ لهُ قلبٌ ؛ فإنَّ مَن عَدِمَ القَلبَ الواعي عن اللَّهِ لم ينتفعْ بكلِّ آيَةٍ تَمُرُّ عليهِ ولو مرَّتْ بهِ كلُّ آيَةٍ !

ومرورُ الآياتِ عليهِ كَطُلوعِ الشمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ ومرورِها على مَن لا بَصَرَ لهُ ، فإذا كانَ له قلبٌ كانَ بمنزلَةِ البَصيرِ إذا مَرَّتْ به المرئيَّاتُ فإنَّهُ يراها ، ولكنَّ صاحبَ القَلبِ لا يَنتفعُ بقلبِهِ إلّا بأمرَين :

أحدهما : أن يُحضِرَهُ ويُشهِدَهُ لِمَا يُلقى إليهِ ، فإذا كانَ غائبًا عنهُ مسافرًا في الأمانيِّ والشهواتِ والخيالاتِ لا يَنتفعُ به ، فإذا أحضَرَهُ وأشهَدَهُ لم يَنتفعْ إلّا بأن يُلقي سمعَهُ ويُصغي بكُلِّيَّتهِ إلى ما يُوعَظُ به ويُرشَدُ إليهِ .

وها هنا ثلاثَةُ أمور :

أحدها : سلامَةُ القَلبِ وصحَّتُه وقَبولُه .

الثَّاني : إحضارُهُ وجَمْعُهُ ومنعُهُ مِنَ الشرودِ والتَّفرُّقِ .

الثَّالث : إلْقاءُ السَّمعِ وإصغاؤهُ ، والإقبالُ على الذِّكر .

فَذَكَرَ اللهُ تعالى الأُمورَ الثلاثةَ في هذه الآيةِ .

قال ابنُ عطيَّةَ[1]: القلبُ هُنا عبارَةٌ عن العَقلِ ؛ إذ هو محلُّهُ ، والمعنى : لمَن كانَ لهُ قلبٌ واعٍ ينتفعُ به

قال : وقال الشِّبْلي : قلبٌ حاضرٌ مع اللَّهِ لا يغفلُ عنهُ طرفَةَ عَينٍ .

وقولُه : ﴿ أو ألقى السَّمعَ وهوَ شهيدٌ ﴾ [ق : ٣٧]، معناهُ : صَرَفَ سمعَهُ إلى هذه الأنباءِ الواعظَةِ ، وأثبتَهُ في سمعِهِ ، فذلكَ إلقاءٌ له عليها ، ومنهُ قولُه : ﴿ وألقَيتُ علَيكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ [طه : ٣٩]، أي : أثبتُّها عليكَ .

وقولُه : ﴿ وهو شهيدٌ ﴾ قال بَعضُ المتأوِّلينَ : معناهُ : وهو شاهدٌ مُقبِلٌ على الأَمرِ غَيرُ مُعرضٍ عنهُ ولا مُفكِّرٍ في غَيرِ ما يَسمعُ .

قال : وقال قتادَةُ : هي إشارَةٌ إلى أهلِ الكتابِ ، فكأنَّهُ قال : إنَّ هذه العبَرَ لَتذكرَةٌ لمَن له فَهمٌ فتدبَّرَ الأمرَ ، أو لمَن سَمعها من أهلِ الكتابِ فَشهِدَ بصحَّتها لعلمِهِ بها من كتابِ التَّوراةِ وسائرِ كتبِ بني إسرائيل .

قال : فَـ ﴿ شهيدٌ ﴾ على التَّأويل الأوَّلِ من المشاهَدَةِ ، وعلى التَّأويلِ الثَّاني من الشهادَةِ .

وقالَ الزجَّاجُ : معنى ﴿ مَنْ كانَ له قلبٌ ﴾ : مَن صَرَفَ قلبَهُ إلى التَّفهُّمِ ،

---

(١) في « تفسيره » (١٥ / ١٨٨) .

أَلَا ترى أنَّ قولَهُ : ﴿ صُمٌّ بكمٌ عُميٌ ﴾ أنَّهُم لم يَستمعوا استماعَ مستفهمٍ مُسترشدٍ فجُعِلوا بمنزلَةِ من لم يَسمع ، كما قال الشاعر :

.... أصمُّ عمَّا شاءَهُ سَميعُ

ومعنى ﴿ أو ألقى السَّمعَ ﴾ استمعَ ولم يَشْغَل قلبَهُ بغَيرِ ما يستمعُ ، والعَرَبُ تقولُ : ألقِ إليَّ سمْعَكَ ، أي : استمع منِّي ، ﴿ وهو شهيدٌ ﴾ أي : قلبُهُ فيما يسمعُ .

قال : وجاءَ في التَّفسير أنَّهُ يَعني بهِ أهلَ الكتابِ الذينَ عندهم صفَةُ النَّبيِّ ﷺ.

فالمعنى : أو ألقى السَّمعَ وهو شهيدٌ أنَّ صفَةَ النَّبيِّ ﷺ في كتابهِ .

وأَيضًا ؛ فإنَّ الآيةَ تضمنَّتْ تقسيمًا وترْديدًا بين قسمينِ ؛ أَحدُهما : مَن كان له قلبٌ ، والثَّاني : مَن ألقى السَّمعَ وحَضَرَ بقلبِهِ ولم يَغب ، فهو حاضِرُ القَلْبِ شاهِدُهُ لا غائبُهُ .

وهذا - واللَّهُ أعلم - سرُّ الإتيانِ بـ ﴿ أو ﴾ دونَ الواو ؛ لأنَّ المنتفعَ بالآياتِ من النَّاسِ نوعان :

أحدهما : ذو القَلْبِ الواعي الزَّكي الذي يكتفي بهدايتِهِ بأدنى تنبيهٍ ولا يحتاجُ أَنْ يَستجلبَ قلبَهُ ويُحضِرَهُ ويجمَعَهُ مِن مواضعِ شتاتِهِ، بل قلبُهُ واعٍ زكيٌّ قابلٌ للهُدى غَيرُ معرضٍ عنهُ، فهذا لا يحتاجُ إلّا إلى وصولِ الهُدى إليهِ فَقَط؛ لكمالِ استعدادهِ وصحَّةِ فطرتهِ ، فإذا جاءَهُ الهُدى سارَعَ قلبُهُ إلى قَبولهِ كأنَّهُ كانَ مكتوبًا فيهِ ، فهو قَد أدركهُ مُجملًا ثمَّ جاءَ الهدى بتفصيلِ ما شهدَ قلبُهُ بصحَّتهِ مجملًا .

وهذه حالُ أكملِ الخَلْقِ استجابَةً لدعوَةِ الرُّسلِ ، كما هي حالُ الصدِّيقِ الأكبَرِ رضيَ اللَّهُ عنهُ .

النَّوعُ الثَّاني : مَنْ ليسَ له هذا الاستعدادُ والقبولُ ؛ فإذا ورَدَ عليهِ الهُدى أصغى إليهِ بسمعهِ وأحضَرَ قلبَهُ وجمعَ فكرتَهُ عليهِ وعلم صحَّتَهُ وحُسنَهُ بنظرهِ واستدلالهِ ، وهذه طريقَةُ أكثرِ المستجيبينَ ، ولهم نُوِّعَ ضَربُ الأمثالِ وإقامَةُ الحُجَج ، وذِكرُ المعارضاتِ والأجوبَةِ عنها ، والأوَّلونَ هم الذينَ يُدْعَوْنَ بالحكمَةِ ، وهؤلاءِ يُدْعَوْنَ بالموعظَةِ الحَسَنَةِ ، فهؤلاءِ نوعا المُستجيبين .

وأمَّا المُعارِضونَ المُدَّعونَ للحقِّ فنوعان :

نوعٌ يُدْعَوْنَ بالـمُجادَلَةِ بالتي هي أحسَنُ ، فإنِ استجابوا وإلّا فالمُجالَدَةُ ؛ فهؤلاءِ لا بُدَّ لـهم من جدالٍ أو جِلادٍ .

ومَن تأمَّلَ دعوَةَ القرآنِ وجَدَها شاملَةً لهؤلاءِ الأقسامِ ، مُتناولةً لها كلِّها ؛ كما قال تعالى : ﴿ أُدعُ إلى سَبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ والمَوعظَةِ الحَسنَةِ وجادِلْهُم بالتي هيَ أحسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

فهؤلاءِ المَدْعوُّون بالكلامِ .

وأمَّا أهلُ الجِلاد فهم الذين أمَرَ اللَّهُ بقتالِهم حتى لا تكونَ فتنَةٌ ويكونَ الدِّينُ كلُّهُ للَّهِ[1].

وأمَّا مَن فسَّرَ الآيَةَ بأنَّ المرادَ بـ ﴿ مَن كانَ لهُ قلبٌ ﴾ هو المُستَغني بفطرتهِ عن علمِ المَنطقِ وهو المؤيَّدُ بقوَّةٍ قُدْسيَّةٍ ينالُ بها الحدَّ الأوسَطَ بسرعَةٍ فهو لكمالِ فطرتهِ مُستغنٍ عن مُراعاةِ أوضاعِ المنطقِ ! والمرادُ بـ ﴿ مَن ألقى السَّمعَ وهو شهيدٌ ﴾ من ليسَت لهُ هذه القوَّةُ ؛ فهو محتاجٌ إلى تعلُّم المنطق ليوجبَ له مراعاتَه، وإصغاءَهُ إليهِ أن لا يَزيغَ في فكرهِ ! وفسَّرَ قولَهُ : ﴿ أُدعُ إلى

(١) كما في آية ١٩٣ من سورة البقرة .

سبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ ﴾ أنَّها القياسُ البرهانيُّ ! و ﴿ الموعظَة الحسنَة ﴾ القياسُ الخطابيُّ ! ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسَنُ ﴾ القياسُ الجدليّ !

فهذا ليسَ من تفاسير الصَّحابَةِ ولا التَّابعينَ ولا أحدٍ مِن أئمَّةِ التَّفسير ، بل ولا من تفاسير المُسلمين ، **وهو تحريفٌ لكلامِ اللَّهِ تعالى** ، وحَمْلٌ لهُ على اصطلاحِ المنطقيَّةِ المبخوسَةِ الحظِّ منَ العَقلِ والإيمانِ .

وهذه من جنسِ تفاسيرِ القرامطَةِ والباطنيَّةِ وغُلاةِ الإسماعيليَّة لِمَا يُفسِّرونَه من القرآن ويُنزلونَهُ على مذاهبهم الباطلَةِ .

والقرآنُ بريءٌ من ذلكَ كلِّهِ ، مُنزَّهٌ عن هذه الأباطيل والهذْياناتِ .

وباللَّهِ التَّوفيق .

والمقصودُ بيانُ حرمانِ العلمِ من هذه الوجوهِ السِّتَّة :

أحدُها : تركُ السُّؤال .

الثَّاني : سوءُ الإنصاتِ وعَدَمُ إلقاءِ السَّمع .

الثَّالثُ : سوءُ الفهم .

الرَّابعُ : عَدَمُ الحفظ .

الخامس : عَدَمُ نشرهِ وتعليمهِ؛ فإنَّ من خَزَنَ علمَهُ ولم ينشرْهُ ولم يُعلِّمْهُ ابتلاهُ اللَّهُ بنسيانهِ وذهابهِ منهُ **جزاءً من جنسِ عملهِ** ، وهذا أمرٌ يَشهدُ به الحِسُّ والوجودُ .

السَّادس : عَدَمُ العملِ به ؛ فإنَّ العملَ بهِ يُوجِبُ تذكُّرَهُ وتدبُّرَهُ ومُراعاتَه والنَّظرَ فيهِ ، فإذا أهمَلَ العمَلَ به نَسِيَهُ .

قال بَعضُ السَّلَفِ : كنَّا نَستعينُ على حفظِ العلمِ بالعملِ به(١).

(١) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العَمَل » (١٤٩) .

وقال بعضُ السَّلفِ أيضًا : العلم يَهتفُ بالعملِ، فإنْ أجابهُ حلَّ وإلَّا ارتَحلَ(١).

فالعملُ به من أعظم أسبابِ حفظهِ وثباتِهِ، وتركُ العَمَل به إضاعةٌ لهُ .

فما استُدِرَّ العلمُ ولا استُجلِبَ بمثلِ العملِ ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وآمِنوا برسولهِ يُؤتِكُم كِفلَينِ من رحمتهِ ويجعَلْ لكُم نورًا تمشونَ به ﴾ [الحديد : ٢٨] .

وأمَّا قولُهُ تعالى : ﴿ واتَّقوا اللهَ وَيعُلِّمُكُم اللهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]، فليسَ من هذا البابَ ، بل هما جُملتان مُستقلَّتان : طلبيَّةٌ ؛ وهي الأمرُ بالتَّقوى ، وخبريَّةٌ ؛ وهي قولُه تعالى : ﴿ ويُعلِّمُكُم اللهُ ﴾ أي : ما تتَّقونَ ، وليستَ جوابًا للأمرِ بالتَّقوى ، ولو أُريدَ بها الجزاءُ لأتى بها مجزومَةً مُجرَّدَةً عن الواو ، فكانَ يقولُ : (فاتَّقوا اللَّهُ يعلِّمْكُم) أو : (إنْ تتَّقوهُ يُعلِّمْكُم) كما قال : ﴿ إنْ تتَّقوا اللهَ يجعَلْ لكُم فرقانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩]، فتدبَّرْهُ(٢) .

○ الوجهُ الحادي والعشرون بعد المِئة : [العالِمُ وغيرُهُ لا يستويان] :

أَنَّ اللَّهَ سبحانهُ نَفى التَّسويَةَ بينَ العالِم وغيرِهِ ، كما نَفى التَّسويَةَ بين الخبيثِ والطَّيِّبِ ، وبينَ الأعمى والبَصير ، وبينَ النُّورِ والظُّلمَةِ ، وبينَ الظِّلِّ والحَرُورِ ، وبينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحاب النَّارِ ، وبينَ الأبكمِ العاجزِ الذي لا يقدرُ على شيءٍ ومَن يأمُرُ بالعَدلِ وهو على صراطٍ مُستقيم ، وبينَ المؤمنين والكُفَّارِ ، وبينَ الذينَ آمَنوا وعملوا الصَّالحاتِ والمُفسدينَ في الأرضِ ، وبينَ المتَّقين والفجَّار ...

---

(١) رواه الخطيب في « الاقتضاء » (٤١) عن ابن المُنْكَدِر .

(٢) قارن بـ « تمييز المحظوظين عن المحرومين » (ص ١١٦) للمعصومي - بتحقيقي .

فهذه عَشرَةُ مواضعَ في القرآنِ[1] نَفى فيها التَّسويَةَ بين هؤلاءِ الأصنافِ ، وهذا يدُلُّ على أنَّ منزلَة العالِمِ من الجاهلِ كمنزلَةِ النُّورِ من الظُّلمَةِ ، والظِّلِّ من الحَرُور ، والطَّيِّبِ من الخَبيثِ .

ومنزلةُ كلِّ واحدٍ من هذه الأصنافِ مع مُقابِلهِ .

وهذا كافٍ في شَرفِ العلمِ وأهلِهِ، بل إذا تأمَّلْتَ هذه الأصنافَ كلَّها ، ووَجَدْتَ نَفيَ التَّسويَةِ بينها راجعًا إلى العلمِ وموجبِهِ فيه وَقَعَ التَّفضيلُ وانتفَت المساواةُ .

○ الوجهُ الثاني والعشرون بعد المِئة : [العلمُ سبيلُ النجاةِ] :

أنَّ سُليمانَ لمَّا توعَّدَ الهُدْهُدَ بأنْ يُعَذِّبَهُ عذابًا شديدًا أو يذبَحَهُ ؛ إنَّما نجا منه بالعلمِ ، وَأَقْدَمَ عليهِ في خطابِهِ لهُ بقولِهِ : ﴿ أحطتُ بما لم تُحِط بِهِ ﴾ [النَّمل : ٢٢] ، وهذا الخطابُ إنَّما جرَّأهُ عليهِ العلمُ ، وإلّا فالهُدهُد مع ضعفِهِ لا يتمكَّنُ في خِطابِهِ لِسُلَيمانَ مع قوَّتِهِ بمثل هذا الخِطَابِ لولا سلطانُ العلم .

ومن هذا الحكايَةُ المشهورَةُ أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ سُئلَ عن مسألَةٍ ؟ فقالَ : لا أعلمُها ، فقال أحدُ تلامذتِهِ : أنا أعلمُ هذه المسألَةَ ، فَغَضِبَ الأستاذُ وهمَّ به، فقال له : أيُّها الأستاذُ ! لستَ أعلمَ من سليمانَ بنِ داودَ ولو بَلَغْتَ في العلمِ ما بلغتَ ، ولستُ أنا أجهلَ من الهدهدِ وقد قال لسليمان : ﴿ أحطتُ بما لم تُحِط به ﴾ فلم يَعتَبْ عليهِ ولم يُعنِّفْهُ .

○ الوجهُ الثالث والعشرون بعد المِئة : [العلمُ شَرفٌ لصاحبِه] :

أَنَّ مَن نالَ شيئًا مِن شرفِ الدُّنيا والآخرَةِ فإنَّما نالَهُ بالعلمِ .

---

(١) والآياتُ في ذلك معروفةٌ .

وتأمَّلْ ما حَصَلَ لآدمَ من تَمْييزِهِ على الملائكَةِ واعترافِهم له بتعليمِ اللَّهِ لهُ الأسماءَ كلَّها ، ثمَّ ما حَصَلَ لهُ مِن تدارُكِ المُصيبَةِ والتَّعويضِ عن سُكنى الجنَّةِ بما هو خَيرٌ له منها بعلمِ الكلمات التي تلقَّاها من ربِّهِ .

وما حَصَلَ ليوسُفَ من التَّمكين في الأرضِ والعزَّةِ والعظَمَةِ بعلمِهِ بعبارةِ[1] تلكَ الرُّؤيا ، ثمَّ علمِهِ بوجوهِ استخراج أخيهِ من إخوتهِ بما يُقِرُّونَ به ويَحكُمونَ هم بهِ ، حتى آلَ الأمرُ إلى ما آل إليهِ من العِزِّ والعاقبَةِ الحميدَةِ وكمالِ الحالِ التي توصَّلَ إليها بالعلمِ ، كما أشارَ إليه سبحانهُ في قولِه : ﴿ كذلكَ كِدْنا ليوسفَ ما كانَ ليأخُذَ أخاهُ في دينِ المَلِك إلّا أنْ يشاءَ اللهُ نرفعُ درجاتٍ مَن نشاءُ وفَوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦]، جاءَ في تفسيرها : نَرفعُ درجاتِ مَن نشاءُ بالعلمِ كما رفعنا درجَةَ يوسفَ على إخوتهِ بالعلمِ .

وقال في إبراهيم ﷺ : ﴿ وتلكَ حُجَّتُنا آتيْناها إبراهيمَ على قومهِ نَرفَعُ درجاتٍ مَن نشاءُ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

فهذه رِفعَةٌ بعلمِ الحُجَّةِ ، والأوَّلِ رِفعَةٌ بعلمِ السِّياسَةِ .

وكذلكَ ما حَصَلَ للخَضِر بسبَبِ علمهِ من تَلْمَذَةِ كليمِ الرَّحمن له وتلطُّفهِ معه في السُّؤال ، حتى قال : ﴿ هَل أتَّبِعُكَ على أن تُعلِّمَنِ ممَّا عُلِّمْتَ رُشدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] .

وكذلكَ ما حَصَلَ لسُليمانَ من علمِ منطقِ الطَّيرِ حتى وَصَلَ إلى مُلْكِ سبأ وقهَرَ مَلِكَتَهم واحْتَوىٰ على سريرِ مُلكها، ودخولها تحتَ طاعتهِ ، ولذلكَ قال : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ عُلِّمْنا مَنطِقَ الطَّيرِ وأُوتينا من كلِّ شيءٍ إنَّ هذا لهو الفَضلُ

---

(١) أيْ : بتعبير .

المُبين ﴾ [النمل : ١٦] .

وكذلكَ ما حَصَلَ لداودَ من علمِ نَسْجِ الدُّروعِ من الوقايةِ من سلاحِ الأعداءِ .

وعدَّدَ سبحانه هذه النِّعمَةَ بهذا العلم على عبادهِ فقال : ﴿ وَعَلَّمْناهُ صَنعَةَ لَبُوسٍ لكُم لِتُحصِنَكُم مِنْ بأسِكُم فَهَل أنتُم شاكرون ﴾ [الأنبياء : ٨٠] .

وكذلكَ ما حَصَلَ للمسيحِ من علمِ الكتابِ والحِكمَةِ والتَّوراةِ والإنجيلِ ما رَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ إليهِ وفضَّلَهُ وكَرَّمَهُ .

وكذلكَ ما حَصَلَ لسيِّدِ ولدِ آدم ﷺ من العلمِ الذي ذَكَرَهُ اللَّهُ به نعمةً عليهِ ، فقال : ﴿ وأنزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تكُن تَعلم وكانَ فَضلُ اللهِ عليكَ عظيمًا ﴾ [النِّساء : ١١٣] .

○ **الوجهُ الرابع والعشرون بعد المِئة : [العلمُ سبيل الكمال] :**

أَنَّ اللَّهَ سبحانهُ أثنى على إبراهيمَ خليلِهِ بقولِهِ تعالى : ﴿ إنَّ إبراهيم كانَ أُمَّةً قانِتًا للهِ حنيفًا ولم يكُن من المشركين شاكرًا لأنعُمِهِ اجْتباهُ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢١] .

فهذه أربعةُ أنواعٍ من الثَّناءِ ؛ افتتحها بأنَّهُ أُمَّةٌ ، والأُمَّةُ هو القُدوَةُ الذي يُؤتَمُّ به، قال ابن مسعودٍ : والأُمَّةُ المعلِّمُ للخَيرِ[1]، وهي فُعلةٌ من الائتمام ، كقُدوَةٍ وهو الذي يُقتَدى به .

والفَرقُ بينَ الأُمَّةِ والإمام من وجهَين :

---

(١) رواه الطَّبراني في « الكبير » (٩٠٠٧)، وعبدالرزّاق في « تفسيره » (٢ / ٣٦١) . وانظر « الدر المنثور » (٥ / ١٣٦) .

أحدهما : أنَّ الإمامَ كُلُّ ما يُؤتَمُّ به سواءٌ كانَ بقصدِهِ وشعورِهِ أَوْ لا ؛ ومنه سُمّي الطَّريقُ إمامًا ، كقولِهِ تعالى : ﴿ وإنْ كانَ أصحابُ الأيكَةِ لظالمين فانتقمنا منهم وإنَّهما لَبِإمامٍ مُبينٍ ﴾ [الحجر : ٧٨ - ٧٩]، أي : بطريقٍ واضحٍ لا يَخفى على السَّالكِ .

ولا يُسمَّى الطَّريقُ أمَّةً .

الثَّاني : أنَّ الأُمَّةَ فيهِ زيادَةُ معنىً ؛ وهو الذي جَمَعَ صفاتِ الكمالِ من العلمِ والعملِ بحيثُ بقي فيها فَرِدًا وحدَهُ ، فهو الجامعُ لخصالٍ تفرَّقَت في غيرِهِ ، فكأنَّهُ بايَنَ غَيرَهُ باجتماعِها فيهِ وتفرُّقِها أو عدمِها في غيرِهِ .

ولفظُ الأُمَّةِ يُشعِرُ بهذا المعنى، لِمَا فيه من الميمِ المُضعَّفَة الدَّالَّةِ على الضَّمِّ بمَخرجها وتكريرِها ، وكذلكَ ضمُّ أَوَّلِهِ ؛ فإنَّ الضَّمَّةَ من الواوِ ومَخرجُها ينضمُّ عندَ النُّطقِ بها ، وأتى بالتَّاءِ الدَّالَّةِ على الوحدَةِ كالغُرفَةِ واللُّقمَةِ ، ومنه الحديثُ : « إنَّ زَيدَ بن عمرو بن نُفيلٍ يُبعَثُ يومَ القيامَةِ أُمَّةً وحدَهُ »[1].

فالضمُّ والاجتماعُ لازمٌ لمعنى الأُمَّةِ ، ومنهُ سُمِّيَت الأُمَّةُ التي هي آحادُ الأُمَمِ ؛ لأنَّهُم النَّاسُ المجتمعون على دينٍ واحدٍ أو في عَصرٍ واحدٍ .

الثَّاني :قولُهُ : ﴿ قانتًا للهِ ﴾ ، قال ابنُ مسعود : القانتُ المطيعُ ، والقُنوتُ يُفسَّر بأشياءَ كلِّها ترجعُ إلى دوامِ الطَّاعَةِ .

---

(١) رواه أبو يَعْلَى (٩٧٣) عن سعيد بن زَيْد بسندٍ حسَّنه الهيثميُّ في « المجمع » (٩ / ٤١٧) .

وقد رُويتْ زيادةٌ في هذا الحديثِ مُنكرة ، كما تراها ونَقْدَها في حاشية « معجم الطبراني الكبير » (١ / ١٥١ - ١٥٢ - ط٢) للأخ الشيخ حمدي السلفي ، والتعليق على « فقه السيرة » (٨٥ - ٨٦) لشيخنا العلّامة الألباني .

وللقَدْرِ المرفوعِ من الحديث - وهو الذي أورده المصنِّفُ - شواهدُ عدّة .

الثَّالث : قولُهُ : ﴿ حنيفًا ﴾ ، والحنيفُ المُقبِلُ على اللَّهِ ، ويلزمُ هذا المعنى ميلُهُ عمَّا سواهُ ، فالمَيلُ لازمُ معنى الحنيفِ ، لا أنَّهُ موضوعُهُ لغَةً .

الرَّابع : قولُه : ﴿ شاكرًا لأنعُمهِ ﴾، والشُّكْرُ للنِّعَمِ مبنيٌّ على ثلاثَةِ أركانٍ : الإقرارُ بالنِّعمَةِ وإضافتُها إلى المنعِمِ بها ، وصرفُها في مرضاتِهِ ، والعملُ فيها بما يُحِبُّ ، فلا يكونُ العَبدُ شاكرًا إلّا بهذه الأشياءِ الثَّلاثَة .

والمقصودُ أنَّهُ مدحَ خليلَهُ بأربَعِ صفاتٍ كلِّها تَرجعُ إلى العلمِ ، والعملِ بموجبِهِ ، وتعليمِهِ ونشرِهِ .

فعادَ الكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعملِ بموجبِهِ ودعوةِ الخلقِ إليهِ .

○ **الوجهُ الخامس والعشرون بعد المِئة : [العلمُ طريقُ البَركة] :**

قولُه سبحانهُ عن المسيحِ أنَّهُ قال: ﴿ إنِّي عَبدُ اللهِ آتانيَ الكتابَ وجَعَلني نبيًّا وجَعَلَني مُباركًا أينما كنتُ ﴾ [مريم : ٣٠ - ٣١]، قال سُفيانُ بن عُيَينَة : جَعَلَني مباركًا أينما كنتُ ، قال : مُعلِّمًا للخَيرِ ؛ وهذا يدُلُّ على أنَّ تعليمَ الرَّجلِ الخَيرَ هو البَرَكَةُ التي جَعَلها اللَّهُ فيهِ ، فإنَّ البَرَكَةَ حُصولُ الخَيرِ ونماؤُهُ ودوامُهُ .

وهذا في الحقيقَةِ ليسَ إلّا في العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ وتعليمِهِ ، ولهذا سمَّى سبحانهُ كتابَهُ مُباركًا ، كما قال تعالى : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أنزلناهُ ﴾ [الأنبياء : ٥٠]، وقال : ﴿ كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ ﴾ [ص : ٢٩]، وَوَصَفَ رسولَهُ بأنَّهُ مُباركٌ كما في قولِ المسيحِ : ﴿ وجَعَلني مُباركًا أينما كُنتُ ﴾ [مريم : ٣١] فبركةُ كتابِهِ ورسولِهِ هي سببُ ما يحصُلُ بهما من العلمِ والهدى والدَّعوَةِ إلى اللَّهِ .

○ الوجهُ السادس والعشرون بعد المِئة : [العلمُ موروثُ الأجر] :

ما في « الصَّحيح »[1] عن أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنهُ عن ﷺ أنَّهُ قال : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقَطَعَ عملُهُ إلّا من ثلاث : صَدَقَةٍ جاريةٍ ، أو علمٍ ينتفعُ بهِ ، أو ولدٍ صالحٍ يَدعو لهُ » .

وهذا من أعظمِ الأدلَّةِ على شرفِ العلمِ وفضلهِ وعِظَمِ ثَمَرتهِ ؛ فإنَّ ثوابَهُ يَصِلُ إلى الرَّجلِ بعدَ موتهِ ما دامَ يُنتَفعُ بهِ ، فكأنَّهُ حيٌّ لم ينقطع عملُهُ معَ ما لَهُ من حياةِ الذِّكرِ والثَّناءِ ، فَجَرَيانُ أجرهِ عليهِ إذا انقَطَعَ عن النَّاسِ ثوابُ أعمالهم حياةٌ ثانيَةٌ .

وخَصَّ النَّبيُّ ﷺ هذه الأشياءَ الثَّلاثَة بوصولِ الثَّوابِ مِنها إلى الميِّتِ لأنَّهُ سببٌ لحصولها ، والعَبدُ إذا باشرَ السَّبَبَ الذي يتعلَّقُ به الأمرُ والنَّهيُ يترتَّبُ عليهِ مُسَبَّبُهُ وإنْ كانَ خارجًا عن سعيهِ وكسبهِ ، فلمّا كانَ هو السَّبَبَ في حصولِ هذا الوَلدِ الصَّالحِ والصَّدَقةِ الجاريَةِ والعلمِ النَّافعِ جرى عليهِ ثوابُهُ وأجْرُهُ لتسبُّبهِ فيهِ ، فالعَبدُ إنَّما يُثابُ على ما باشَرَهُ أو على ما تولَّدَ منهُ .

وقَد ذكرَ تعالى هذينِ الأصلينِ في كتابهِ في سورَةِ براءَة [١٢٠] ، فقال : ﴿ ذلكَ بأنَّهُم لا يُصيبهُم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ اللهِ ولا يَطَئونَ مَوطئًا يَغيظُ الكُفَّارَ ولا ينالونَ من عَدُوٍّ نَيلًا إلّا كُتِبَ لهم بهِ عَمَلٌ صالحٌ إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المُحسنين ﴾ .

فهذه الأمورُ كلُّها مُتَوَلِّداتٌ عن أفعالهم ، غَيرُ مقدورَةٍ لهم ، وإنَّما المقدورُ لهم أسبابُها التي باشروها .

---

(١) رواه مسلمٌ (برقم : ١٦٣١) .

ثمَّ قال : ﴿ ولا يُنفِقونَ نَفَقَةً صَغيرَةً ولا كَبيرَةً ولا يَقطَعونَ واديًا إلّا كُتِبَ لهم لِيَجزِيَهُم اللّهُ أحسَنَ ما كانوا يَعمَلونَ ﴾ [التوبة : ١٢١]، فالنَّفَقَةُ وقطعُ الوادي أفعالٌ مقدورَةٌ لهم ...

وقالَ في القسمِ الأوَّلِ : ﴿ كُتبَ لهم بِهِ عملٌ صالحٌ ﴾؛ لأَنَّ المتولِّدَ حاصلٌ عن شيئين : أفعالِهم وغيرِها ، فليسَت أفعالُهم سببًا مُستقلًّا في حصولِ المتولِّدِ ، بل هي جزءٌ من أجزاءِ السَّبَبِ ، فيُكتبُ لهم من ذلكَ ما كانَ مقابلًا لأفعالهم .

وأيضًا ؛ فإنَّ الظَّمَأَ والنَّصَبَ وغَيظَ العَدُوِّ ليسَ من أفعالهم ، فلا يُكتَبُ لهم نفسُهُ ، ولكنْ لمَّا تولَّدَ عن أفعالهم كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ .

وأمَّا القسمُ الآخرُ : وهو الأفعالُ المقدورَةُ نفسُها - كالإنْفاقِ وقَطعِ الوادي - فهو عملٌ صالحٌ فيُكتبُ لهم نفسُهُ ؛ إذ هو مقدورٌ لهم حاصلٌ بإرادتهم وقدرتِهم ، فعادَ الثَّوابُ إلى الأَسبابِ المقدورَةِ والمتوَلِّدِ عنها ، وباللَّهِ التَّوفيق .

○ **الوجهُ السابع والعشرون بعد المِئة : [العلمُ سبيلُ العَفْوِ] :**

ما ذكرهُ ابنُ عَبدِالبرِّ[1] عن عبداللَّهِ بن داودَ ، قال : إذا كانَ يومُ القيامَةِ عَزَلَ اللَّهُ تباركَ وتعالى العلماءَ عَن الحسابِ فيقول : ادخلوا الجنَّةَ على ما كانَ فيكُم إنِّي لم أجعَل علمي فيكُم إلّا لخَيرٍ أردتُهُ بكُم .

فإنْ قيلَ : فقواعدُ الشرعِ تَقتَضي أن يُسامحَ الجاهلُ بما لا يُسامَحُ به العالِمُ ، وأنَّهُ يُغفَرُ له ما لا يُغفَرُ للعالِمِ ؛ فإنَّ حُجَّةَ اللَّهِ عليهِ أقومُ منها على الجاهلِ ، وعِلْمُهُ بقبحِ المعصيَةِ وبُغضِ اللَّهِ لها وعقوبتِه عليها أعظمُ من علمِ

---

(١) في « جامع بيان العلم » (٢٣١)، وعبداللَّه بن داود هو الخُرَيْبي؛ من ثقات عُبَّاد المسلمين .

الجاهلِ ، ونعمَةُ اللَّهِ عليهِ بما أَودَعَهُ من العلمِ أعظمُ من نعمتهِ على الجاهلِ .

وقَد دلَّت الشريعَةُ وحكمُ اللَّهِ على أنَّ مَن حُبِيَ بالإنعامِ وخُصَّ بالفَضلِ والإكرامِ ثمَّ أسامَ نَفسَهُ مَعَ ميلِ الشهواتِ ، فأرتَعها في مراتعِ الهَلَكاتِ ، وتجرَّأَ على انتهاكِ المُحرَّماتِ ، واستخفَّ بالتَّبِعاتِ والسيِّئاتِ ، أنَّهُ يُقابَلُ من الانتقامِ والعَتْبِ بما لا يُقَابَلُ به مَن ليسَ في مرتبتهِ .

وعلى هذا جاءَ قولُهُ تعالى : ﴿ يا نساءَ النَّبيِّ مَن يأْتِ مِنكُنَّ بفاحشَةٍ مُبيِّنَةٍ يُضاعَفْ لها العَذابُ ضِعفَينِ وكانَ ذلكَ على اللَّهِ يَسيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠] ، ولهذا كانَ حدُّ الحُرِّ ضِعْفَيْ حدِّ العَبدِ في الزِّنا والقَذفِ وشُربِ الخَمرِ لكمالِ النِّعمَةِ على الحُرِّ .

وقال بعضُ السَّلفِ : يُغفَرُ للجاهلِ سَبعونَ ذنبًا قبلَ أن يُغفرَ للعالِمِ ذَنبٌ .

وقال بعضُهم أيضًا : إنَّ اللَّهَ يُعافي الجهَّالَ ما لا يُعافي للعُلَماءِ(١).

فالجوابُ : إنَّ هذا الذي ذكرتُموهُ حقٌّ لا ريبَ فيهِ ، ولكنَّ مِن قواعدِ الشرعِ والحِكمَةِ أيضًا أنَّ مَنْ كثُرَت حسناتهُ وعظُمَت ، وكانَ لهُ في الإسلامِ تأثيرٌ ظاهرٌ فإنَّهُ يُحتَمَلُ لهُ ما لا يُحتملُ لِغيرهِ ويُعفى عنه ما لا يُعفى عن غيرهِ ؛ فإنَّ المعصيَةَ خَبَثٌ ، والماءُ « إذا بَلَغَ قلَّتينِ لم يحمل الخَبَثَ »(٢)، بخلافِ الماءِ

---

(١) انظر « ذمّ من لا يعمل بعلمه » (١١) لابن عساكر - بتحقيقي .

(٢) إشارة إلى الحديث المشهور « إذا بلغ الماء قُلّتين لم يحمل الخبث » ، وهو حديثٌ صحيحٌ ؛ صحّحه جماعةٌ كبيرةٌ مِن أَهل العلمِ ، منهم الشافعي ، وأَحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبّان ، والدارقطني ، والبيهقي ، وغيرهم كثير .

وللحافظ العلائي « جزءٌ » في تخريجهِ وتصحيحِه ، طُبع بتحقيق أَخينا في اللّهِ الشيخ أَبي إِسحاق الحُويني ، وفّقه اللّهُ .

ومُراد المُؤلّفِ مِنْ الاستدلالِ به أَنّ مَن بَلَغَ القَدْرَ الكافيَ من الثقةِ والعدالةِ ، لا يضرُّهُ نقدُ الناقدين ، ولا قدحُ القادحين .

القَليلِ فإنَّهُ يَحمِلُ أدنى خَبَثٍ يقعُ فيه ، ومِن هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ لعُمَر : « وما يُدريكَ لعلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ على أهلِ بَدرٍ فقال : اعمَلوا ما شئتُم فَقَد غَفَرتُ لكُم »(١).

وهذا هو المانعُ لهُ ﷺ من قَتلِ مَن جَسَّ عليهِ وعلى المُسلمينَ وارتكبَ مثلَ ذلكَ الذَّنبِ العَظيمِ ، فأخبرَ ﷺ أنَّهُ شَهدَ بدرًا ، فدلَّ على أنَّ مقتَضى عقوبتِهِ قائمٌ لكنْ منعَ مِن تَرتُّبِ أثرِهِ عليهِ ما لَهُ مِنَ المشهدِ العَظيمِ ، فوَقَعَت تلكَ السَّقْطَةُ العَظيمَةُ ، مُغتَفَرَةً في جنبِ ما لَهُ من الحسناتِ .

ولمَّا حضَّ النَّبيُّ ﷺ على الصَّدَقَةِ فأخرَجَ عثمانُ رضيَ اللَّهُ عنهُ تلكَ الصَّدَقَةَ العَظيمَةَ ، قال : « ما ضرَّ عثمان ما عملَ بَعدها »(٢).

وقال لطلحَةَ لمَّا تطأطأَ للنَّبيِّ ﷺ حتى صَعِدَ على ظهرِهِ إلى الصَّخرَةِ : « أوجَبَ طَلحَةُ »(٣).

وهذا موسى كليمُ الرَّحمنِ عزَّ وجَلَّ ألقى الألواحَ(٤) التي فيها كلامُ اللَّهِ الذي كتَبَهُ لهُ ، ألقاها على الأرضِ حتى تكسَّرَت ، ولَطَمَ عَينَ مَلَكِ المَوتِ

---

(١) رواه البُخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) عن عليّ رضي اللَّه عنه .

(٢) حديثٌ حسنٌ ؛ رواه الترمذي (٣٧٠١) ، والحاكم (٣ / ١٠٢) ، وأحمد (٥ / ٦٣) ، وعبداللَّه بن أحمد في « زوائد المسند » (٤ / ٧٥) ، والبغوي في « تفسيره » (١ / ٢٨٣) ، والبيهقي في « دلائل النُّبوّة » (٥ / ٣١٥) ، وابن أَبي عاصم في « السنَّة » (٢ / ٥٨٧ و ٥٩٢) من طرقٍ عدّة بألفاظٍ متعدِّدة .

وانظر « البداية والنِّهاية » (٥ / ٦)، والتعليق على « فقه السيرة » (٦١) لشيخنا الأَلباني .

(٣) رواه أَحمد (١ / ١٦٥) ، والترمذي (١٦٩٢) و (٣٧٣٨) ، وابن أَبي شيبة (١٢ / ٩١) ، وأَبو يعلى (٦٧٠) ، والحاكم (٣ / ٣٧٣) ، وصححه الحاكم والترمذي .

(٤) كما في آية : ١٥٤ من سورة الأعراف .

فَفَقَأَها[1] وعاتَبَ ربَّهُ ليلَةَ الإِسرى في النَّبيِّ ، وقال : شابٌّ بُعِثَ بَعدي يدخل الجنَّةَ من أُمَّتِهِ أكثَرُ ممَّا يَدخلُها من أمَّتي[2]، وأخَذَ بلحيَةِ هارونَ وجرَّهُ إليهِ[3] وهو نبيُّ اللَّهِ ، وكلُّ هذا لم يَنْقُص من قَدرِهِ شيئًا عندَ ربِّهِ ، وربُّهُ تعالى يُكرِمُهُ ويُحِبُّهُ ؛ فإِنَّ الأمرَ الذي قامَ به موسى ، والعدوَّ الذي برزَ له ، والصَّبرَ الذي صَبَرَهُ ، والأذى الذي أُوذِيَهُ في اللَّهِ أمرٌ لا تُؤثِّرُ فيه أمثالُ هذه الأمورِ ولا تُغيِّرُ في وجهِهِ ، ولا تَخْفِضُ منزلَتَهُ .

وهذا أمرٌ معلومٌ عندَ النَّاسِ مُستقرٌّ في فطَرهم أنَّ مَن لهُ أُلوفٌ من الحسناتِ فإنَّهُ يُسامَحُ بالسَّيِّئَةِ والسَّيِّئَتَينِ ونحوِها [4] ، حتى إِنَّهُ ليختلجُ داعي عقوبتِهِ على إساءتِهِ ، وداعي شُكرِهِ على إحسانِهِ فيغلبُ داعي الشكرِ لداعي العقوبَةِ ، كما قيلَ :

وإذا الحبيبُ أتى بِذَنْبٍ واحِدٍ جاءَت محاسنُهُ بألفِ شفيعِ

وقال آخرُ :

فإنْ يكُنِ الفعلُ الذي ساءَ واحدًا فأفعالُهُ اللَّاتي سَرَرْنَ كثيرُ

---

(١) كما رواه البخاري (١٣٣٩) ، ومسلم (٢٣٧٢) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) عن أَنس بن مالك عن مالك بن صعصعة .

(٣) كما في آية : ٩٤ من سورة طه .

(٤) ولا بُدَّ - ها هنا - مِن قَيدٍ مهمٍّ عُرِفَ من خلال الوقوف على منهج المؤلِّف - رحمه الله - وتتبُّعِهِ ، وهو أَنَّ قَيْدَ غَلَبَةِ الحسنات للسيِّئات ، إنَّما هي بعد استقرار قاعدة المنهج الصحيح في التَّلقِّي عن الشرع ؛ كتابًا وسُنَّة ، وبفهم سَلَفِ الأُمَّة ، وأَمَّا سوى ذلك فهو - في الأَصل - مبنيٌّ على شفا جُرُفٍ هار !!

واللَّهُ سبحانهُ يُوازِنُ يومَ القيامَةِ بينَ حسناتِ العَبدِ وسيِّئاتِهِ فأيُّهما غَلَبَ كانَ التَّأثيرُ لهُ ، فيَفعلُ بأهلِ الحسناتِ الكثيرَةِ الذين آثَروا محابَّهُ ومراضِيَهُ وغَلَبَتْهم دواعي طَبعِهِم أحيانًا من العَفوِ والـمُسامَحَةِ ما لا يَفعلُهُ معَ غَيرهم .

وأيضًا ؛ فإنَّ العالِمَ إذا زَلَّ فإنَّهُ يُحسِنُ إسراعَ الفَيئَةِ[1] وتدارُكَ الفارطِ ومُداواةَ الجرحِ ، فهو كالطَّبيبِ الحاذقِ البَصيرِ بالـمَرَضِ وأسبابِهِ وعلاجِهِ ، فإنَّ زوالَهُ على يَدهِ أسرَعُ من زوالِهِ على يَدِ الجاهلِ .

وأيضًا ؛ فإنَّ معَهُ من معرفتهِ بأمرِ اللَّهِ وتصديقهِ بوعدِه ووعيدِه ، وخشيتهِ منه ، وإِزْرائِه على نفسهِ بارتكابِه ، وإيمانِه بأَنَّ اللَّه حَرَّمَهُ ، وأنَّ لهُ ربًّا يغفرُ الذَّنبَ ويأخُذُ بهِ ، إلى غيرِ ذلكَ من الأمورِ الـمحبوبَةِ للرَّبِّ ما يغمَرُ الذَّنْبَ ، ويُضْعِفُ اقتضاءَهُ ، ويُزيلُ أثرَهُ ، بخلافِ الجاهلِ بذلكَ أو أكثرِهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ معهُ إِلَّا ظُلمَةُ الخطيئَةِ وقُبحُها وآثارُها الـمُرْدِيَةُ ، فلا يَستوي هذا وهذا .

وهذا **فَصلُ الـخطابِ** في هذا الموضعِ ، وبهِ يتبيَّنُ أَنَّ الأمرينِ حقٌّ ، وأنَّهُ لا مُنافاةَ بينهما ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من العالِمِ والجاهلِ إنَّما زادَ قُبحُ الذَّنبِ منهُ على الآخَرِ بسبَبِ جَهلِهِ وتجرُّدِ خطيئتهِ عمَّا يُقاوِمُها ، ويُضعِفُ تأثيرَها ، ويُزيلُ أثَرَها ، فعادَ القُبحُ في الموضعَينِ إلى الجَهلِ وما يستلزمُهُ ، وقلَّتُهُ وضعفُهُ إلى العلمِ وما يستلزمُهُ .

وهذا دليلٌ ظاهرٌ على شرفِ العلمِ وفَضلِهِ ، وباللَّهِ التَّوفيقُ .

---

(١) أي : الرجوع .

○ الوجهُ الثامن والعشرون بعد المِئة : [الاشتغال بالعلمِ عبادةٌ] :

أَنَّ العالِمَ المُشتَغِلَ بالعلمِ والتَّعليمِ لا يزالُ في عبادَةٍ ، فَنفسُ تعلُّمِهِ وتَعليمِهِ عبادَةٌ ، قال ابنُ مَسعودٍ :لا يَزالُ الفَقيهُ يُصلِّي، قالوا : وكيفَ يصلِّي ؟ قال : ذِكْرُ اللَّهِ على قلبِهِ ولسانِهِ .

ذكرهُ ابنُ عبدالبرِّ[١].

وفي حديثِ مُعاذٍ مرفوعًا وموقوفًا : « تعلَّموا العلمَ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للَّهِ خَشْيَةٌ ، وطلبَهُ عبادَةٌ ومُذاكرتَهُ تسبيحٌ .. » والصَّوابُ أنَّهُ موقوفٌ[٢] .

وقال ابنُ وهبٍ : كنتُ عندَ مالكِ بنِ أنسٍ ، فحانَت صلاةُ الظُّهرِ أو العَصرِ وأنا أقرأُ عليهِ وأَنظُر في العلمِ بينَ يَديهِ ، فجمعتُ كُتُبي وقُمتُ لأركعَ ، فقال لي مالِكٌ : ما هذا ؟ فقلت : أقومُ إلى الصَّلاةِ، فقال : إنَّ هذا لعَجَبٌ ! ما الذي قُمتَ إليهِ أفضَلَ منَ الذي كنتَ فيه إذا صحَّتْ فيهِ النِّيَّةُ[٣].

وقال الرَّبيعُ : سمعتُ الشافعيَّ يقولُ : طَلَبُ العملِ أفضلُ منَ الصَّلاةِ النَّافلَةِ[٤].

وقال سفيانُ الثَّوريُّ : ما من عَمَلٍ أفضَلُ من طَلَبِ العلمِ إذا صحَّت فيهِ النِّيَّةُ[٥].

---

(١) (٢٥٩) بدون إسناد .

(٢) انظر تعليقي على « المِفتاح » (١ / ٣٩٤ و ٥٣٢) .

(٣) رواه ابن عبدالبَر (١١٦) .

(٤) رواه أَبو نُعيم في « الحلية » (٩ / ١١٩) .

(٥) رواه ابن عبدالبَر (١١٩) .

وقال رجلٌ للمُعافي بن عِمْرانَ : أيُّما أحبُّ إليك ؛ أقومُ أُصَلّي الليلَ كلَّهُ أو أكتبُ الحديثَ ؟ فقال : حَديثٌ تَكتبُهُ أحبُّ إليَّ من قيامكَ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخرِهِ[١].

وقال أيضًا : كتابةُ حَديثٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ مِن قيامِ ليلَةٍ[٢].

وقال ابن عبَّاسٍ : تذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلَةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها[٣].

وفي « مسائلِ إسحاقَ بن منصورٍ » : قلتُ لأحمَدَ بن حنبلٍ : قولُه : تَذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلَةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها، أيُّ علمٍ أرادَ ؟ قال : هو العلمُ الذي ينتفعُ به النَّاسُ في أمرِ دينهم، قلتُ : في الوضوءِ والصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ والطَّلاقِ ونحوِ هذا ؟ قال : نعم .

قال إسحاقُ : وقال لي إسحاقُ بن راهويهِ : هو كما قالَ أحمدُ[٤].

وقال أبو هرَيرَةَ رضي اللَّه عنه : لأن أجلسَ ساعَةً فأفْقَهَ في ديني أحبُّ إليَّ من إحياءِ ليلَةٍ إلى الصَّباحِ[٥].

وقال محمَّد بن عليّ الباقر : عالِمٌ يُنتفَعُ بعلمهِ أفضلُ من ألفِ عابدٍ[٦].

وقال أيضًا[٧]: روايَةُ الحديثِ وبثُّهُ في النَّاس أفضلُ من عبادَةِ ألفِ عابدٍ .

---

(١) رواه الخطيب في « شرَف أَصحاب الحديث » (٨٤) .

(٢) رواه ابن عبدالبّر (١١٢) .

(٣) ذكره ابن عبدالبّر (١٠٧) معلَّقًا ، ووصله الدارمي (١ / ١٤٩) بنحوِه .

(٤) رواه مِن طريق إسحاقَ ابنُ عبدالبّر (١٠٨) .

(٥) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقِّه » (١ / ٢٥) .

(٦) علَّقه ابن عبدالبّر (١٣٠) .

(٧) ذكره ابن عبدالبّر (١٣١) لكنْ عن جعفر بن محمَّد !

ولـمّا كانَ طَلَبُ العلمِ والبحثُ عنهُ وكتابتُهُ والتَّفتيشُ عليهِ من عَمَلِ القَلبِ والجوارح كانَ مِن أفضَلِ الأعمالِ ، ومنزلتُهُ من عَملِ الجوارحِ كمنزلَةِ أعمالِ القَلبِ من الإخلاصِ والتَّوكُّلِ والمحبّةِ والإنابَةِ والخشيَةِ والرِّضا ونحوها من الأعمالِ الظَّاهرَةِ .

فإنْ قيلَ : فالعلمُ إنَّما هو وسيلَةٌ إلى العَمَلِ ومُرادٌ له ، والعَمَلُ هو الغايَةُ ، ومعلومٌ أنَّ الغايَةَ أشرَفُ من الوسيلَةِ ، فكيفَ تُفضَّلُ الوسائلُ على غاياتها ؟

قيلَ : كلٌّ منَ العلمِ والعملِ ينقسمُ قسمين :

منهُ ما يكونُ وسيلَةً .

ومنهُ ما يكونُ غايَةً .

فليسَ العلمُ كلُّهُ وسيلَةً مُرادَةً لغيرها ؛ فإنَّ العِلمَ باللَّهِ وأسمائهِ وصفاتِهِ هو أشرَفُ العلومِ على الإطلاقِ ، وهو مطلوبٌ لنفسهِ مُرادٌ لذاتِهِ ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبعَ سمواتٍ ومِنَ الأرضِ مِثْلَهُنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لتَعلموا أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ اللهَ قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً ﴾ [الطلاق : ١٢]، فَقَد أخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ونزَّلَ الأمرَ بينهنَّ لِيُعْلِمَ عبادَهُ أنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ، وعلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ ، فهذا العلمُ هو غايَةُ الخَلْقِ المطلوبَةُ ؛ وقال تعالى : ﴿ فاعْلَمْ أنَّهُ لا إلهَ إلّا اللهُ ﴾ [محمَّد : ١٩] .

فالعلمُ بوحدانيَّتِهِ تعالى وأنَّهُ لا إلهَ إلّا هو مطلوبٌ لذاتِهِ وإنْ كانَ لا يُكتَفى به وحدَهُ ، بل لا بدَّ معهُ من عبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ له ، فهما أمرانِ مطلوبانِ لأنفُسِهما : أَن يُعرَفَ الرَّبُّ تعالى بأسمائهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ ، وأن يُعبَدَ بموجِبِها ومُقتَضاها ، فكما أنَّ عبادتَهُ مطلوبَةٌ مُرادَةٌ لذاتها ، فكذلكَ العلمُ بِهِ

ومعرفتُهُ .

وأَيضًا ؛ فإنَّ العلمَ مِن أفضَلِ أنواعِ العباداتِ - كما تَقَدَّم تَقريرُهُ - فهو مُتضمِّنٌ للغايَةِ والوَسيلَةِ .

وقولُكم : إِنَّ العمَلَ غايَةٌ ! إمَّا أَنْ تُريدوا بِه العملَ الذي يدخُلُ فيه عملُ القلبِ والجوارح ، أَو العملَ المختَصَّ بالجوارحِ فَقَط ؟!

فإنْ أُرِيدَ الأوَّلُ فهو حقٌّ ، وهو يدُلُّ على أنَّ العلمَ غايَةٌ مطلوبَةٌ لأنَّهُ من أعمالِ القَلبِ ، - كما تَقَدَّمَ - .

وإنْ أريدَ به الثَّاني - وهو عملُ الجوارحِ فَقَط - فليسَ بصحيحٍ ؛ فإنَّ أعمالَ القلوبِ مقصودَةٌ ومرادَةٌ لذاتها ، بَل في الحقيقَةِ أعمالُ الجوارحِ وسيلَةٌ مُرادةٌ لغَيرها؛ فإنَّ الثَّوابَ والعقابَ والمَدْحَ والذَّمَّ وتوابِعَها هو للقَلب أصلًا وللجوارحِ تبعًا، وكذلكَ الأعمالُ المقصودُ بها أوَّلًا صلاحُ القَلبِ واستقامتُهُ وعبوديَّتُهُ لربِّهِ ومليكِهِ، وجُعِلَت أعمالُ الجوارحِ تابعَةً لهذا المقصودِ مُرادَةً، وإِنْ كانَ كثيرٌ منها مُرادًا لأجلِ المصلَحَةِ المترتِّبَةِ عليهِ؛ فَمِن أَجَلِّها صلاحُ القَلبِ وزكاؤُهُ وطهارتُهُ واستقامَتُهُ، فعُلِمَ أنَّ الأعمالَ منها غايَةٌ ومنها وسيلَةٌ، وأَنَّ العلمَ كذلكَ .

وأيضًا ؛ فالعلمُ الذي هو وسيلَةٌ إلى العمَلِ فَقَط إذا تجرَّدَ عن العملِ لم ينتفع به صاحبهُ فالعمَلُ أشرَفُ منهُ .

وأمَّا العلمُ المقصودُ الذي تنشأُ ثمرتُهُ المطلوبَةُ منه من نَفسِهِ فهذا لا يُقالُ : إنَّ العمَلَ المجرَّدَ أشرَفُ منهُ ! فكيفَ يكونُ مُجرَّدُ العبادَة البَدنيَّةِ أفضلَ من العلمِ باللَّهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ في خلقِهِ وأمرِهِ ، ومنَ العلمِ بأعمالِ

القلوبِ وآفاتِ النُّفوسِ والطُّرقِ التي تُفْسِدُ الأعمالَ وتمنعُ وصولَها من القَلبِ إلى اللَّهِ ، والمسافاتِ التي بينَ الأعمالِ والقَلبِ ، وبينَ القَلبِ والرَّبِّ تعالى ، وبما تُقطعُ تلكَ المسافاتُ ، إلى غيرِ ذلكَ من علمِ الإيمانِ وما يُقوِّيهِ وما يُضْعِفهُ ؟!..

فكيفَ يُقال : إنَّ مجرَّدَ التَّعبُّد الظَّاهرِ بالجوارحِ أفضَلُ من هذا العلمِ ؟! بل من قامَ بالأمرينِ فهو أكملُ فإذا كانَ في أحدهما فضلٌ فَفَضلُ هذا العلمِ خيرٌ من فَضلِ العبادَةِ ، فإذا كانَ في العَبدِ فَضْلَةٌ[1] عن الواجبِ كانَ صَرفُها إلى العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ أفضَلَ من صَرفها إلى مجرَّدِ العبادَةِ .

فهذا فَصلُ الخطابِ في هذه المسألَةِ ، واللَّهُ أعلم .

○ **الوجهُ التاسع والعشرون بعد المِئة : [العلمُ سبيلُ السعادةِ] :**

ما رواهُ الإمامُ أحمد والتِّرمذي[2] من حديثِ أبي كبشَةَ الأنْماريِّ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّما الدُّنيا لأربَعَةِ نَفرٍ : عبدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مالًا وعلمًا فهو يتَّقي في مالهِ ربَّهُ ويَصِلُ فيهِ رَحِمَه ويعلمُ للَّهِ فيهِ حقًّا ، فهذا بأحسَنِ المنازلِ عندَ اللَّهِ، ورجلٍ آتاهُ اللَّهُ علمًا ولم يؤتهِ مالًا ، فهو يقولُ : لو أنَّ لي مالًا لعَملتُ بعَملِ فلانٍ، فهو بنيَّتهِ وهما في الأجرِ سواء، ورجلٍ آتاهُ اللَّهُ مالًا ولم يُؤتهِ علمًا، فهو يُخبِّطُ في مالهِ ولا يتَّقي فيهِ ربَّهُ ولا يَصِلُ فيهِ رحِمَهُ ولا يعلَمُ للَّهِ فيهِ حقًّا ،

(١) أي : زيادة .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (٤ / ٢٣٠ و ٢٣١) ، والبيهقي (٤ / ١٨٩) ، والبغوي في « شرح السنَّة » (١٤ / ٢٨٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢ / رقم ٨٧٠) من طُرق عن أبي كبشةَ ، وحسَّنه الترمذي ، ووافقه العراقي في « تخريج الإحياء » (٣ / ١٩١) وصحَّحه شيخنا الألباني في « صحيح سُنن ابن ماجه » (٣٤٠٦) .

(تنبيهٌ) : لم أرَ الحديثَ في النُّسخة المطبوعة من « المستدرك » ، واللَّهُ أعلم .

فهذا بِأَسْوَإ المنازلِ عنداللَّهِ، ورجلٍ لم يُؤتِهِ اللَّهُ مالًا ولا علمًا فهو يقولُ : لو أنَّ لي مالًا لعملتُ بعملِ فلانٍ، فهو بنيَّتِهِ وهما في الوِزْرِ سواءٌ » حديثٌ صحيحٌ ؛ صحَّحهُ التِّرمذي والحاكمُ وغيرهما .

فقسَّم النَّبيُّ ﷺ أهلَ الدُّنيا أربعَةَ أقسامٍ :

خيرُهم مَن أوتيَ علمًا ومالًا؛ فهو مُحسِنٌ إلى النَّاسِ وإلى نفسِهِ بعلمِهِ ومالِهِ .

ويليهِ في المرتبَةِ مَن أوتيَ علمًا ولم يُؤتَ مالًا وإنْ كانَ أجرُهما سواءً ، فذلكَ إنَّما كانَ بالنيَّةِ ، وإلَّا فالمُنفِقُ المُتصدِّق فوقَهُ بدرَجَةِ الإنفاقِ والصَّدَقَةِ ، والعالمُ الذي لا مالَ لهُ إنَّما ساواهُ في الأجرِ بالنيَّةِ الجازمَةِ المقترنِ بها مقدورُها وهو القولُ المجرَّد .

الثَّالث : مَن أُوتيَ مالًا ولم يُؤتَ علمًا ، فهذا أسوأُ النَّاسِ منزلَةً عندَ اللَّهِ ؛ لأنَّ مالَهُ طريقٌ إلى هلاكِهِ ، فلو عَدِمَهُ لكانَ خيرًا له ، فإنَّهُ أُعطيَ ما يتزوَّدُ بِهِ إلى الجنَّةِ فجعلَهُ زادًا إلى النَّار .

الرَّابع : مَن لم يُؤتَ مالًا ولا علمًا ، ومَن نيَّتهُ أنَّهُ لو كانَ له مالٌ لعملَ فيه بمعصيَةِ اللَّهِ ، فهذا يَلي الغنيَّ الجاهلَ في المرتبةِ ويُساويهِ في الوِزْرِ بنيَّتهِ الجازمَةِ المقتَرنِ بها مقدورُها ، وهو القولُ الذي لم يَقْدر على غيرهِ .

فقسَّمَ السُّعداءَ قسمين ، وجَعَلَ العلمَ والعمَلَ بموجبِهِ سببَ سعادتِهما ، وقسَّمَ الأشقياءَ قسمين ، وجَعَلَ الجَهلَ وما يترتَّبُ عليهِ سبَبَ شقاوتهما .

فعادَت السَّعادَةُ بجُملتها إلى العلمِ ومُوجبِهِ ، والشقاوَةُ بجُملتها إلى الجَهلِ وثمرتِهِ .

○ الوجهُ الثلاثون بعد المِئة : [بين العلم والتفكُّر] :

ما ثَبَتَ عن بَعضِ السَّلَفِ أنَّهُ قال : تفكُّرُ ساعَةٍ خيرٌ من عبادَةِ ستِّينَ سنةً .

وسأَلَ رجلٌ أمَّ الدَّرداءِ عن أَبي الدرداءِ - بَعدَ موتِهِ - عن عبادتِهِ ؟ فقالت : كانَ نهارُهُ أجمعُهُ في تأْديَةِ التَّفكُّرِ .

وقال الحَسنُ : تفكُّر ساعَةٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ .

وقال الفُضَيلُ : التَّفكُّر مِرآةٌ تُريكَ حسناتِكَ وسيِّئاتِكَ .

وقيلَ لإبراهيم : أنَّكَ تُطيلُ الفكرَة ؟ فقال : الفكرَةُ مُخُّ العَقلِ .

وكان سفيانُ الثوريُّ كثيرًا ما يتمثَّلُ :

إذا المرءُ كانَت لهُ فِكرَةٌ ففي كُلِّ شيءٍ لهُ عبرَةٌ

وقال الحَسَنُ في قولِه تعالى : ﴿ سأصرِفُ عَن آياتي الَّذينَ يتَكَبَّرونَ في الأرضِ بغَيرِ الحقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦]، قال : أمنعُهم التفكُّرَ فيها(١).

وقال بعضُ العارفين : لو طالَعَتْ قلوبُ المُتَّقينَ بفكرِها إلى ما قُدِّرَ في حُجُبِ الغَيبِ من خَيرِ الآخرَةِ لم يَصْفُ لهم في الدُّنيا عَيشٌ ولم تَقَرَّ لهم فيها عَينٌ .

وقال الحَسَنُ : طولُ الوحدَةِ أتمُّ للفكرَةِ ، وطولُ الفكرةِ دليلٌ على طريقِ الجنَّةِ .

وقال وَهبٌ : ما طالَت فكرَةُ أحَدٍ قطُّ إلّا علمَ ، وما علمَ امرؤٌ قطُّ إلّا عملَ .

وقال عُمر بن عبدالعَزيز : الفكرَةُ في نِعَمِ اللّهِ من أفضَلِ العبادَةِ .

---

(١) ذَكرَ السُّيوطي في « الدر المنثور » (٣ / ٥٦٢) عن السُّدِّي وابن جُرَيج نحوَ ذلك .

وقال عبدُاللَّهِ بن المُبارك لبعضِ أصحابِهِ وقد رآهُ مُفكِّرًا : أينَ بَلَغتَ ؟ قال : الصِّراطَ .

وقال بِشْرٌ : لو فكَّرَ النَّاسُ في عظمَةِ اللَّهِ ما عَصَوْهُ .

وقال ابنُ عبَّاس : ركعتانِ مُقتصِدتانِ في تفكُّرٍ خَيرٌ من قيامِ ليلَةٍ بلا قَلبٍ .

وقال أبو سُليمان : الفكرُ في الدُّنيا حجابٌ عن الآخِرَةِ وعقوبَةٌ لأهلِ الولايَةِ ، والفكرَةُ في الآخِرَةِ تُورِثُ الحكمَةَ وتُحْيِي القلوبَ .

وقال ابنُ عبَّاسٍ : التَّفكُّرُ في الخَير يَدعو إلى العَمَلِ به .

وقال الحَسَنُ : إنَّ أَهلَ العلمِ لم يزالوا يعودونَ بالذِّكرِ على الفكرِ ، والفكرِ على الذِّكرِ ، ويُناطِقونَ القلوبَ حتى نَطَقَت بالحكمَةِ .

ومِن كلامِ الشافعيِّ : استَعينوا على الكلامِ بالصَّمتِ وعلى الاستنباطِ بالفكرَةِ .

وهذا لأنَّ الفكرَةَ عملُ القلبِ ، والعبادَةُ عملُ الجوارح ، والقلبُ أشرَفُ من الجوارح ، فكانَ عملُهُ أشرَفَ من عملِ الجوارح .

وأيضًا ؛ فالتَّفكُّرُ يُوقِعُ صاحِبَهُ من الإيمانِ على ما لا يُوقِعُهُ العملُ المجرَّدُ ؛ فإنَّ التَّفكُّرَ يُوجِبُ له من انكشافِ حقائقِ الأمورِ وظهورها لهُ ، وتميُّزِ مراتبها في الخَيرِ والشرِّ ، ومعرفَةِ مفضولِها من فاضلِها ، وأقبحِها من قبيحِها ، ومعرفَةِ أسبابها الموصلَةِ إليها ، وما يُقاوِمُ تلكَ الأسبابَ ويدفعُ مُوجِبَها ، والتمييزِ بين ما يَنبَغي السَّعيُ في تحصيلِهِ وبينَ ما يَنبغي السَّعيُ في دَفعِ أسبابِهِ ، والفَرقِ بينَ الْوَهَم والخيالِ المانعِ لأكثرِ النُّفوسِ من انتهازِ الفُرَصِ بعدَ إِمْكانها وبين السَّبَبِ المانعِ حَقيقَةً فيشتغلُ به دونَ الأوَّلِ .

فما قَطَعَ العَبدَ عن كمالِهِ وفلاحِه وسعادتِهِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ قاطِعٌ أعظمُ من الوَهَمِ الغالبِ على النَّفسِ والخيالِ الذي هو مركبُها - بل بحرُها - الذي لا تنفَكُّ سابحَةً فيه ، وإنَّما يُقطَعُ هذا العارضُ بفكرَةٍ صحيحَةٍ وعزمٍ صادقٍ يُمَيِّزُ به بينَ الوَهمِ والحقيقَةِ .

وكذلكَ إذا فكَّرَ في عواقِبِ الأمورِ ، وتجاوَزَ فكرُهُ مباديَها ، وضَعَهَا مواضِعَها ، وعَلِمَ مراتبَها ، فإذا وَرَدَ عليه واردُ الذَّنْبِ والشهوةِ فتجاوزَ فكرةَ لذَّتِهِ وشهوةِ وفَرِحِ النَّفسِ به إلى سوءِ عاقبتِهِ وما يترتَّبُ عليهِ من الألمِ والحزنِ الذي لا يُقاوِمُ تلكَ اللذَّةَ والفرحَةَ .

ومَن فكَّرَ في ذلكَ فإنَّهُ لا يكادُ يُقْدِمُ عليه ، وكذلكَ إذا وَرَدَ على قلبهِ واردُ الرَّاحَةِ والدَّعَةِ والكَسَلِ والتَّقاعُدِ عن مشقَّةِ الطَّاعاتِ وتَعَبِها حتى عَبَرَ بفكرِهِ إلى ما يترتَّبُ عليها من اللذَّاتِ والخَيراتِ والأفراحِ التي تغمُرُ تلكَ الآلامَ التي في مباديها بالنِّسبَةِ إلى كمالِ عواقبِها .

وكلَّما غاصَ فِكْرُهُ في ذلكَ اشتدَّ طلبُهُ لها ، وسَهُلَ عليهِ معاناتُها ، واستقبلَها بنشاطٍ وقُوَّةٍ وعَزيمَةٍ ، وكذلكَ إذا فكَّرَ في مُنتهى ما يَسْتَعْبِدُهُ من المالِ والجاهِ والصُّوَرِ ، ونَظَرَ إلى غايَةِ ذلكَ بعَينِ فكرِهِ استَحى من عَقلِهِ ونَفسِهِ أن يكونَ عبدًا لذلكَ ، كما قيلَ :

لَو فكَّرَ العاشِقُ في مُنتَهى ... حُسنِ الذي يَسبيهِ لم يَسْبِهِ

وكذلكَ إذا فكَّرَ في آخرِ الأطعمَةِ المُفتَخَرَةِ التي تفانَتْ عليها نفوسُ أشباهِ الأنعامِ وما يَصيرُ أمرُها إليهِ عندَ خروجِها ارتَفَعَت هِمَّتُهُ عن صرفِها إلى الاعتناءِ بها وجَعْلِها معبودَ قلبِهِ الذي إليه يتوجَّهُ ، وله يَرضى ويغضبُ ، ويَسعى

ويكدحُ ، ويُوالي ويُعادي ؛ كما جاءَ في « المُسنَدِ »[1] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال : « إنَّ اللَّهَ جَعَلَ طعامَ ابنِ آدمَ مثلَ الدُّنيا وإنْ قَزَّحَهُ ومَلَّحَهُ فإنَّهُ يعلمُ إلى ما يَصيرُ » أو كما قال ﷺ .

فإذا وَقَعَ فِكرُهُ على عاقبَةِ ذلكَ وآخرِ أمرِهِ وكانَت نفسُهُ حُرَّةً أبيَّةً ربأَ بها أن يجعَلَها عبدًا لِمَا آخِرُهُ أنتَنُ شيءٍ وأخبثُهُ وأفحشُهُ !

إذا عُرِفَ هذا فالفكرُ هو إحضارُ معرفتَين في القلبِ لِيُستثمرَ منهما معرفَةٌ ثالثَةٌ ، ومثالُ ذلكَ إذا أَحضَرَ في قلبِهِ العاجلَةَ وعيشَها ونَعيمَها وما يقترنُ به من الآفاتِ وانقطاعِهِ وزوالِهِ، ثمَّ أحضَرَ في قلبِهِ الآخرَةَ ونعيمَها ولذَّتَها ودوامَهُ وفضلَهُ على نعيمِ الدُّنيا وجَزَمَ بهذين العِلْمَين أثمرَ لهُ ذلكَ علمًا ثالثًا ؛ وهو أنَّ الآخرَةَ ونعيمَها الفاضلَ الدَّائمَ أَوْلى عندَ كلِّ عاقلٍ بإيثارِهِ من العاجلَةِ المُنقطعَةِ المُنغَّصَةِ .

ثمَّ لهُ في معرفَةِ الآخرَةِ حالتانِ :

إحداهما : أن يكونَ قَد سمعَ ذلكَ من غيرِهِ من غَيرِ أن يُباشرَ قلبَهُ بَردُ اليَقين به ، ولم يُفْضِ قلبُهُ إلى مُكافَحَةِ حقيقَةِ الآخرَةِ .

وهذا حالُ أكثَرِ النَّاسِ، فيتجاذبُهُ داعيان : أحدُهما داعي العاجلَةِ وإيثارِها ، وهو أقوى الدَّاعِيَينِ عندَهُ لأنَّهُ مُشاهَدٌ لهُ محسوسٌ ، وداعي الآخرَةِ ، وهو أضعَفُ الدَّاعِيَينِ عندهُ لأنَّهُ داعٍ عن سماعٍ ، لم يُباشِر قلبَهُ اليقينُ بِهِ ولا كافَحَهُ

(١) رواه عبداللَّه بن أحمد في « زوائد المسند » (٥ / ١٣٦) ، وابن أَبي عاصم في « الزُّهد » (٢٠٥) ، وأَبو الشَّيخ في « الأَمثال » (٢٦٩) ، وابن حِبَّان (٧٠٢) من طرق عن أُبيّ بن كعب .

وجوَّد إِسنادَه المنذريُّ في « الترغيب والترهيب » (٣ / ١٤٣) .

لكنْ فيه عنعنةُ الحَسَن - وهو البصريُّ - .

نعم ؛ له شواهد تقوِّيه ، فانظر « السلسلة الصحيحة » (٣٨٢) .

حقيقتُهُ العلميَّةُ ، فإذا تَرَكَ العاجلَةَ للآخرَةِ تُرِيهِ نَفسَهُ بأنَّهُ قَد تَرَكَ معلومًا لـمظنونٍ أو متحقِّقًا لـموهومٍ، فلسانُ الحالِ ينادي عليهِ : لا أدع ذَرَّةً منقودَةً لدُرَّةٍ موعودَةٍ !

وهذه الآفَةُ هي التي منعَت النُّفوسَ من الاستعدادِ للآخرَةِ وأن يُسعى لها سَعيَها ، وهي من ضَعفِ العلمِ بها وتيقُّنها ، وإلّا فمعَ الجزمِ التَّامِّ الذي لا يُخالجُ القَلْبَ فيهِ شكٌّ لا يَقعُ التَّهاوُنُ بها وعَدمُ الرَّغبَةِ فيها ، ولهذا لو قُدِّمَ لرجلٍ طعامٌ في غايَةِ الطِّيبِ واللذَّةِ وهو شديدُ الحاجَةِ إليهِ ، ثمَّ قيلَ لهُ : إنَّهُ مَسمومٌ ؛ فإنَّهُ لا يُقْدِمُ عليهِ لعلمهِ بأنَّ سوءَ ما تَجْني عاقبةُ تناولهِ تَربو في المضرَّةِ على لذَّةِ أكلهِ ، فما بالُ الإيمانِ بالآخِرَةِ لا يكونُ في قلبهِ بهذه المنزلَةِ ؟

ما ذاكَ إلّا لضَعفِ شجرَةِ العلمِ والإيمانِ بها في القلبِ ، وعَدَمِ استقرارها فيه ، وكذلك إذا كان سائرًا في طريقٍ فقيلَ له : إنَّ بها قُطَّاعًا ولصوصًا يقتلونَ مَن وجدوهُ ويأخذونَ متاعَهُ ! فإنَّهُ لا يسلُكُها ، إلّا عَلى أحدِ وَجهَينِ ؛ إمَّا أن لا يُصدِّق المُخبِرَ ، وإمَّا أن يَثِقَ من نَفسهِ بغَلَبَتِهِم وقَهرِهِم والانتصارِ عليهم ، وإلّا فَمَعَ تَصديقهِ للمُخْبِرِ تَصديقًا لا يتمارى فيهِ وعلمهِ من نَفسهِ بَضعفهِ وعجزهِ عن مقاومتهم فإنَّهُ لا يَسلُكُها ، ولو حَصَلَ لهُ هذانِ العِلْمانِ فيما يرتكبُهُ من إيثارِ الدُّنيا وشهواتها لـم يُقْدِمْ على ذلكَ ، فعُلِمَ أنَّ إيثارَهُ للعاجلَةِ وتَركَ استعدادِهِ للآخرَةِ لا يكونُ قَطُّ مع كمالِ تَصديقهِ وإيمانهِ أبدًا .

الحالَة الثَّانيَة : أن يتيَقَّنَ ويجزمَ جزمًا لا شكَّ فيهِ بأنَّ لهُ دارًا غَيرَ هذه الدَّار ، وَمَعادًا لهُ خُلِقَ ، وأنَّ هذه الدَّارَ طَريقٌ إلى ذلك المعادِ ومنزلٌ من منازلِ السَّائرينَ إليهِ ، ويعلمُ معَ ذلكَ أنَّها باقيَةٌ ، ونَعيمَها وعذابَها لا يزولُ ، ولا نسبَةَ لهذا النَّعيم والعَذابِ العاجلِ إليهِ إلّا كما يُدخِلُ الرَّجلُ أصبعَهُ في اليَمِّ ثمَّ

ينزعُها ، فالذي تَعَلَّقَ بها منهُ هو كالدُّنيا بالنِّسبةِ إلى الآخرةِ[1]، فيُثمرُ لهُ هذا العلمُ إيثارَ الآخرةِ وطلَبَها ، والاستعدادَ التَّامَّ لها ، وأن يَسعى لها سَعْيَها .

وهذا يُسَمَّى تفكُّرًا، وتذكُّرًا، ونَظَرًا، وتأمُّلًا، واعتبارًا، وتدبُّرًا، واستبصارًا .

وهذه معانٍ مُتقاربَةٌ تجتمعُ في شيءٍ وتفترقُ في آخَر :

فَيُسمَّى **تفكُّرًا** ؛ لأنَّهُ استعمالُ الفكرَةِ في ذلكَ وإحضارُهُ عندَهُ .

ويُسمَّى **تذكُّرًا** ؛ لأنَّهُ إحضارٌ للعلمِ الذي يجبُ مُراعاتُهُ بَعدَ ذهولِهِ وغَيبتِهِ عنهُ ، ومنهُ قولُه تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائفٌ من الشيطانِ تَذَكَّروا فإذا هُم مُبصِرونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

ويُسمَّى **نَظرًا** ؛ لأنَّهُ التفاتٌ بالقَلبِ إلى المنظورِ فيهِ .

ويُسمَّى **تأمُّلًا** ؛ لأنَّهُ مُراجَعَةٌ للنَّظَرِ كرَّةً بعدَ كرَّةٍ حتى يتجلَّى لهُ وينكشفَ لقلبِهِ .

ويُسمَّى **اعتبارًا** ؛ - وهو افتعالٌ منَ العُبورِ - لأنَّهُ يعبُرُ منهُ إلى غَيرِهِ فيعبُرُ من ذلكَ الذي قَد فكَّرَ فيهِ إلى معرفَةٍ ثالثةٍ، وهي المقصودُ من الاعتبارِ ، ولهذا : يُسمَّى **عِبرَةً** ؛ وهي على بناءِ الحالاتِ كالجِلسَةِ والرِّكبَةِ والقِبلَةِ ؛ إيذانًا بأنَّ هذا العلمَ والمعرفَةَ قَد صارَ حالًا لصاحبِهِ يعبُرُ منهُ إلى المقصودِ به ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبْرَةٌ لأُولي الألباب ﴾ [النازعات : ٢٦] .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ في ذلكَ لعِبرَةً لمَن يَخْشى ﴾ [النازعات : ٢٦]، وقال : ﴿ إنَّ في ذلكَ لعبرَةً لأُولي الأبصار ﴾ [النور : ٤٤] .

---

(١) وقد صحَّ نحوُ هذا التشبيهِ عن النَّبيِّ ﷺ فيما رواه مسلمٌ (٢٨٥٨) عن المُستورِد الفِهْرِيِّ .

ويُسمَّى تدبُّرًا ؛ لأنَّهُ نَظرٌ في أدبارِ الأُمورِ وهي أواخرُها وعواقبُها ، ومنهُ تدبُّرُ القولِ ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَم يَدَّبَّروا القَولَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨] ، وقال : ﴿ أفلا يتدبَّرونَ القرآنَ ولو كانَ مِن عندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اختلافًا كثيرًا ﴾ [النِّساء : ٨٢] .

وتدبُّرُ الكلامِ أنْ يَنظُرَ في أوَّلِهِ وآخرِهِ ، ثمَّ يُعيدَ نَظرَهُ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ ، ولهذا جاءَ على بناءِ التفعُّل ؛ كالتَّجرُّع والتَّفهُّم والتَّبيُّن .

وسُمِّيَ استبصارًا ؛ وهو استفعالٌ من التَّبصُّرِ وهو تَبيينُه وانكشافُهُ وتجلِّيهِ للبَصيرَةِ ، وكُلٌّ مِن التَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ لهُ فائدَةٌ غيرُ فائدَةِ الآخَرِ ؛ فالتَّذكُّر يُفيدُ تَكرارَ القَلبِ على ما عَلِمَهُ وعَرَفَهُ ليرسخَ فيهِ ويثبتَ ، ولا ينمحي فيذهَبَ أثرُهُ من القَلبِ جُملَةً ، والتَّفكُّرُ يُفيدُ تَكثيرَ العلمِ واستجلابَ ما ليسَ حاصلًا عندَ القلبِ ، فالتَّفكُّرُ يُحَصِّلُهُ والتَّذكُّرُ يحفظُهُ ؛ ولهذا قال الحَسَن : **ما زالَ أهلُ العلـمِ يعودونَ بالتَّذكُّرِ على التَّفكُّرِ وبالتَّفكُّرِ على التَّذكُّرِ ويُناطِقونَ القلوبَ حتى نَطَقَتْ بالـحكمَةِ .**

فالتَّفكُّرُ والتَّذكُّرُ بِذَارُ العلمِ ، وسَقْيُهُ مُطارحتُهُ ، ومُذاكرتُهُ تلقيحُهُ ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : مُلاقاةُ الرِّجالِ تلقيحٌ لألبابها .

فالمُذاكرَةُ به لِقاحُ العَقلِ .

فالخَيرُ والسَّعادَةُ في خِزانَةٍ مِفتاحُها التَّفكُّرُ ، فإنَّهُ لا بدَّ من تفكُّرٍ وعلمٍ يكونُ نتيجةً للتَّفكُّرَ ، وحالٍ يُحدِثُ للقَلبِ من ذلكَ العلمَ ؛ فإنَّ كلَّ مَن علمَ شيئًا من الـمحبوبِ أو المكروهِ لا بدَّ أن يُبقي لقلبِهِ حالةً وينصبغَ بصبغَةٍ من علمِهِ ، وتلكَ الـحالُ تُوجِبُ له إرادَةً ، وتلكَ الإرادَةُ تُوجِبُ وقوعَ العَمَلِ .

فها هنا خمسَةُ أُمورٍ :

الفِكْرُ وثمرتُهُ العلمُ ، وثمرتُهما الحالَةُ التي تَحدُثُ للقَلبِ ، وثمرةُ ذلكَ الإرادَةُ وثمرتُها العملُ .

فالفِكْرُ - إذًا - هو المبدأُ والمِفتاحُ للخَيراتِ كلِّها .

وهذا يكشفُ لكَ عن فَضلِ التَّفكُّرِ وشرفِهِ ، وأنَّهُ من أفضَلِ أعمالِ القَلبِ وأنفعها له ، حتى قيلَ : تفكُّرُ ساعَةٍ خَيرٌ من عبادَة سنَةٍ[1] .

فالفكرُ هو الذي ينقُلُ من موتِ الغفلَةِ إلى حياةِ اليَقظَةِ ، ومن المكارهِ إلى المحابِّ ، ومن الرَّغبَةِ والحرصِ إلى الزُّهدِ والقناعَةِ ، ومن سجنِ الدُّنيا إلى فضاءِ الآخرَةِ ، ومن ضيقِ الجَهلِ إلى سَعَةِ العلمِ ورحبِهِ ، ومن مَرَضِ الشهوَةِ والإخلادِ إلى هذه الدَّارِ إلى شِفاءِ الإنابَةِ إلى اللَّهِ والتَّجافي عن دارِ الغرورِ ، ومن مصيبَةِ العَمى والصَّمَم والبُكمِ إلى نِعمَةِ البَصَرِ والسَّمعِ والفَهمِ عن اللَّهِ والعقلِ عنهُ ، ومن أمراضِ الشُّبُهات إلى بَردِ اليَقين وثلجِ الصُّدور .

وبالجُملَةِ ؛ فأصلُ كُلِّ طاعَةٍ إنَّما هي الفكرُ ، وكذلكَ أصلُ كلِّ معصيَةٍ إنَّما يحدثُ من جانبِ الفكرَةِ ؛ فإنَّ الشيطانَ يُصادفُ أرضَ القَلبِ خاليَةً فارغَةً فَيَبْذُرُ فيها حَبَّ الأفكارِ الرَّدِيَّةِ ، فيتولَّدُ منهُ الإراداتُ والعُزومُ ، فيتولَّدُ منها العملُ ، فإذا صادَفَ أرضَ القَلبِ مشغولَةً بِبَذْرِ الأفكارِ النَّافعَةِ فيما خُلِقَ لهُ وفيما أُمِرَ بِهِ وفيمَا هُيِّئَ لهُ وأُعِدَّ لهُ من النَّعيمِ المقيمِ أو العذابِ الأليمِ لم يجدْ لبذرِهِ موضعًا ، وهذا كما قيل :

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهَوى   فَصادَفَ قلبًا فارغًا فتمكَّنا

---

(١) ورُوي نحوُ ذلك مرفوعًا ، ولا يصحُّ ، فانظر « سلسلة الأحاديث الضعيفة » (١٧٣) و « الأسْرار المرفوعة » (١٤١) و « الفوائد المجموعة » (٢٥١) .

وبالجُملَةِ ؛ فلا شيءَ أنفعُ للقَلبِ من قراءَةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ ؛ فإنَّهُ جامعٌ لجميعِ منازلِ السَّائرينَ وأحوالِ العاملينَ ومقاماتِ العارفينَ ، وهو الذي يُورِثُ المحبَّةَ والشوقَ والخَوفَ والرَّجاءَ والإنابَةَ والتَّوكُّلَ والرِّضا والتَّفويضَ والشكرَ والصَّبرَ وسائرَ الأحوالِ التي بها حياةُ القلبِ وكمالُهُ .

وكذلكَ يزجُرُ عن جميعِ الصِّفاتِ والأفعالِ المذمومَةِ التي بها فسادُ القَلبِ وهلاكُهُ .

فلو علمَ النَّاسُ ما في قراءَةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ لاشتَغلوا بها عن كلِّ ما سواها ، فإذا قرأَهُ بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيَةٍ هو مُحتاجٌ إليها في شفاءِ قلبهِ كرَّرَها ولو مِئةَ مرَّةٍ ، ولو ليلَةً ، فقراءَةُ آيَةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خَيرٌ من قراءَةِ خِتْمَةٍ بغيرِ تَدبُّرٍ وتفهُّمٍ ، وأنفَعُ للقَلبِ ، وأَدْعى إلى حُصولِ الإيمانِ وذَوْقِ حلاوَةِ القرآنِ .

وهذه كانَت عادَةَ السَّلَفِ يُرَدِّدُ أَحدُهم الآيَةَ إلى الصَّباحِ .

وقَد ثبتَ[1] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قامَ بآيَةٍ يُرَدِّدُها حتى الصَّباح ؛ وهي قولُهُ : ﴿ إنْ تُعَذِّبْهُم فإنَّهُم عبادُك وإنْ تَغفِرْ لهُم فإنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحكيم ﴾ [المائدة : ١١٨] .

فقراءَةُ القرآنِ بالتَّفكُّرِ هي أصلُ صلاحِ القَلبِ ، ولهذا قال ابنُ مسعودٍ : لا تَهُذُّوا القرآنَ هذَّ الشِّعرِ ، ولا تَنثُروهُ نَثرَ الدَّقَل ، وقِفُوا عند عجائبِهِ ، وحرِّكوا به

(١) رواه أَحمد (٥ / ١٤٩) ، والنَّسائي (٢ / ١٧٧) ، وابن ماجه (١٣٥٠) ، والحاكم (١ / ٢٤١) عن أَبي ذَرّ .

وصحَّحه البوصيري في « مصباح الزُّجاجة » (١ / ٢٤٢) ، والحاكم ، ووافقه الذهبيُّ .

وللحديث شواهد عدَّة ؛ فانظر « فتح العزيز الغفَّار .. » (ص ١٣٤) ، للأَخ عطاء بن عبداللطيف .

القلوبَ ، لا يكُن همُّ أحدِكُم آخرَ السُّورَةِ[٢].

وروى أيُّوب عن أبي جمرَةَ ، قال : قلتُ لابن عبَّاس : إنِّي سريعُ القراءَةِ ، إنِّي أقرأُ القرآنَ في ثلاثٍ ! قال : لَأَنْ أقرأَ سورَةً من القرآنِ في ليلَةٍ فأتدبَّرَها وأُرتِّلَها أحبُّ إليَّ مِن أن أقرأَ القرآنَ كما تَقرأُ .

والتَّفكُّرُ في القرآنِ نوعان :

تفكُّرٌ فيه ليقعَ على مُرادِ الرَّبِّ تعالى منه .

وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عبادَهُ إلى التَّفكُّرِ فيه .

فالأوَّلُ : تفكُّرٌ في الدَّليل القرآني .

والثَّاني : تفكُّرٌ في الدَّليلِ العِياني .

الأوَّلُ : تفكُّرٌ في آياتِهِ المسموعَةِ .

والثَّاني : تفكُّرٌ في آياتِهِ المشهودَةِ .

ولهذا أنزَلَ اللَّهُ القرآنَ ليتَدَبَّرَ ويُتفكَّرَ فيهِ ، ويُعمَلَ بهِ ، لا لِمُجرَّدِ تلاوتِه مع الإعْراضِ عنهُ .

قال الحَسَنُ البَصريُّ : أُنزلَ القرآنُ ليُعْمَلَ به ، فاتَّخِذوا تلاوتهُ عملًا .

[ولْيَكُنْ هذا آخِرَ الكلامِ ، وقد جَلَبْتُ إليك فيه نفائسَ ، في مِثْلِها يتنافسُ المُتنافِسون ، وجَلَّيْتُ عليك فيه عرائسَ ، إلى مِثْلِهِنَّ بادَرَ الخاطِبون] [٢] .

[وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للّه ربِّ العالمين] .

---

(١) أي : أن يَختِمَها فقط ؛ رواه ابن أبي شيبة في « المصنَّف » (١٠ / ٥٢٥) .

(٢) مِن خاتمة الإمام ابن القيِّم لكتابه « مفتاح دار السعادة » (٣ / ٣٨٧ - بتحقيقي) .

فهرس الأحاديث المرفوعة[1]

(أ)

(١) وما قبله حرف (ح) فهو مذكورٌ في الحاشية .

(ص)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(لا)

(ي)

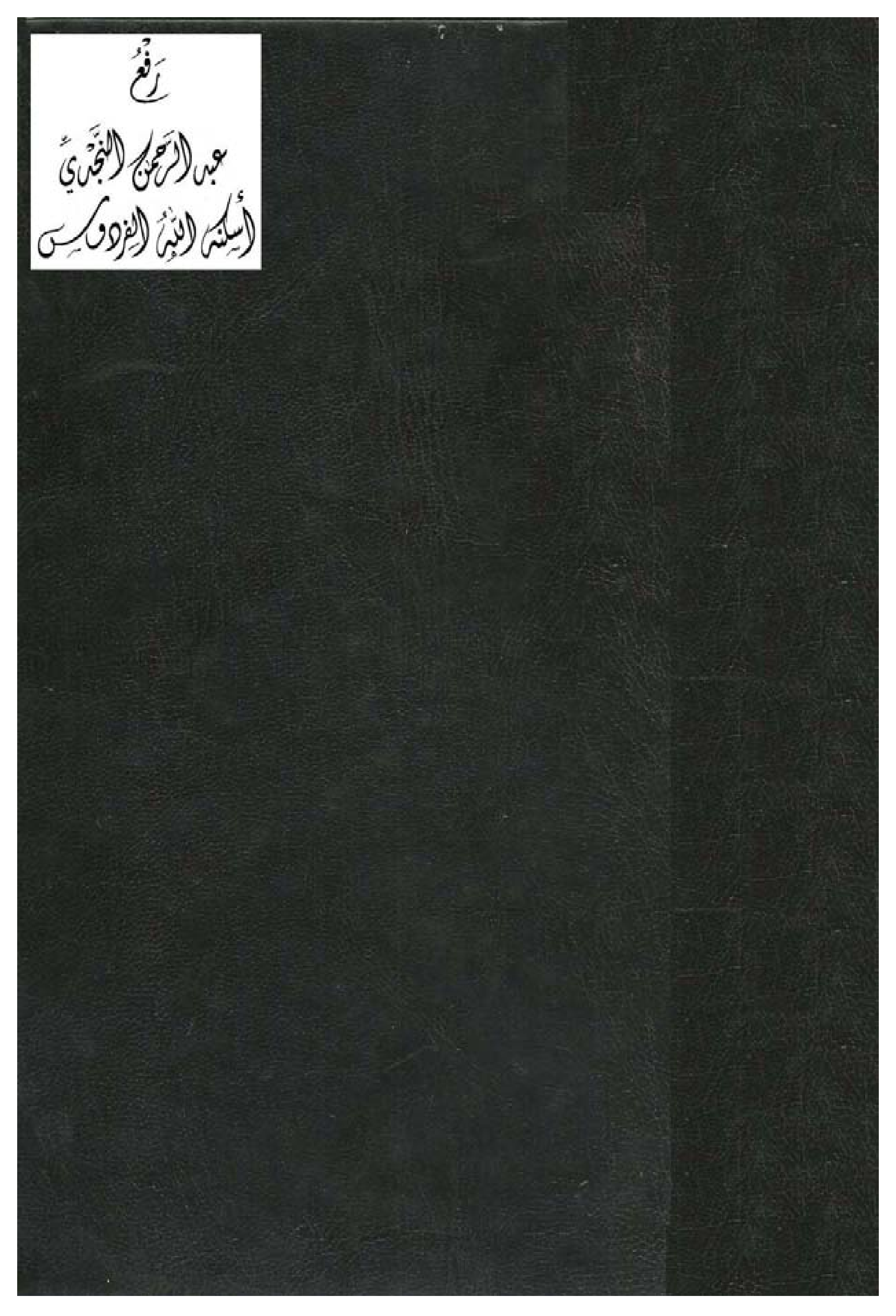
فهرس الموضوعات

يصدرُ قريبًا – إِن شاءَ اللهُ –
مِن أَعمالِ المُحقق ، مِن منشوراتنا :

* « أَحكام الشتاء في السنّة المطهرة » .

* « مدارج السّالكين » ؛ للإِمام ابن قيّم الجوزيّة رحمه اللهُ .

□ □ □ □ □


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس